حنفى المحلاوى

حريم ملوك مصر

من محمد على إلى فاروق



قبل الدخول فى الممنوع !

هناك العديد من الدوافع الخفية والمعلنة التى قد تقودك إلى إثارة موضوع ما أو مناقشته .. رغم آلاف المحاذير التى تجدها تتراقص أمام عينيك مثل الأشباح المخيفة .

والعالم المدقق الذى لا هدف له سوى الاقتراب من منطق الحقيقة ، سواء فى عقله أو فى الواقع لا يأبه بمثل هذه المحاذير حتى ولو كانت مكتوبة على لوحات ومعلقة فى كل مكان .. أو كانت حية تنبض بالصوت والصورة ، وتنطق معلنة هذه المحاذير ..

وباستعراض مدقق لكل حكايات التاريخ المصرى خاصة الفترة التى تناولت الملكية فى مصر الحديثة منذ محمد على وحتى آخر أحفاده الملك فاروق ، لاحظنا وجود نوع من الإغفال المتعمد أو غير المتعمد عن وضع المرأة المصرية ، ودورها فى الحياة الملكية التى دبت فيها الحركة على يد محمد على .. ذلك الضابط الألبانى الذى فاز بعرش مصر منذ عام ١٨٠٥ ، واستمر هو ومن جاء بعده من أولاده وأحفاده فوق هذا العرش ، حتى زُلزلت أركانه فى يوليو عام ١٩٥٢ .

وحين نشير إلى وضع تلك المرأة فى هذه الملكية ، ودورها خلف أسوار القصور العالية ، لا نقصد دورها السياسى بل وضعها الاجتماعى ، ونظرة هؤلاء

الحكام إليها باعتبارها الوعاء الذى كان يحتضن « ولى العهد » ، ومن كانت تفشـل فى هـذه المهمة تظل قابعـةً فى ركن النسيان داخل قصور الحريم ، ولا تخرج منه إلا بعد أن تموت .

هـذا الإغفال الذى نُشير إليه .. لم يقتصر ـ فقط ـ على دراسات العصر القـديم .. بل امتد كذلك إلى العصر الحـديث .. حتى عندما تجرأ مفكر مثل « قاسم أمين » ، وتحـدث عن المرأة الجـديدة ، لم يجرؤ هو الآخر على تناول أحـوال المـرأة ووضعـها الاجتمـاعى فيمـا كـانت عليه بل وَجَّهَ حديثه إلى المستقبل ، وحصره فى نطاق المطالبة بحرية المرأة داخل الحريم الشعبى ، دون الحريم السلطانى .

وما نعنيه بالحريم الشعبى : هُنَّ هؤلاء النسوة اللائى تزوجن من خارج الأسرة الملكيـة .. دون تحديد هذا الصنف بالحى الذى يقيم فيه ؛ فالمسألة لم تكن أبداً مرتبطة بالمكان بقدر ارتباطها بالظروف الاجتمـاعيـة ، ونظرة الرجل للمـرأة ، وقد يكون هناك ارتباط بالمكان فى حـالة واحـدة فـقط .. هى حين نقترب من أسوار القصور الملكية العالية التى كانت ولا تزال منتشرة فى كل أرجاء مصر ، والتى كانت فى الماضى من المناطق المحرَّمة أو الممنوعة الاقتراب ، ونتحدث عن نساء الحاكم وزوجاته .. فهن ـ فقط ـ من يحق أن نطلق عليهن لفظ « الحريم السلطانى » .

وهذا التـفسير لابد من فهـمه واستيعـابه بمعناه الحقيـقى .. لأن معظم أحـاديث هـذه الأوراق كثيراً ما تُشـير إلى هذا التصنيف .. فى مقابل تصنيف « الحريم الشعبى » . مع أنه .. وفى فترة متأخرة من تاريخ الملكية فى مصر ـ وكـما سـوف تلاحظ ـ نجد أن صنف « الحريم الشعبى » اقترب كثيراً مثلنا من أسوار القصور الملكية ، بل قفز إليها ؛ ودخلها من أبوابها الكبيرة مع تقديم

تحية الملكات .. وأكثر من ذلك ، تمكن هذا الصنف الحريمى من الجلوس فوق مقاعد عرش هذه القصور بجوار ما بها من ملوك ، وبالتالى فقد تحول ذلك الصنف فى هذه المرحلة إلى « الحريم السلطانى » .

وحين نحاول تحديد الفترة الزمنية التى حدث خلالها هذا التقارب والالتقاء العفوى بين صنفى الحريم الشعبى والسلطانى .. نجد أنها عام ١٩١٤ .. حين تولى السلطان حسين كامل عرش مصر خلفاً لابن أخيه عباس حلمى الثانى .

أو بمعنى آخر يمكننا القول بأن الفترة الذهبية التى شهدها ارتفاع شأن الحريم الشعبى .. قد بدأت .. مع بداية الحقبة الثالثة لحكم أُسرة محمد على ، وقد استمرت حتى بلغت ذروتها فى الحقبة الرابعة أيام حكم كل من فؤاد وابنه فاروق .

وحين نعود إلى الحديث عن ذلك الإغفال المتعمّد أو غير المتعمّد من جانب الدارسين أو رجال الحكومة عن وضع المرأة داخل الحريم السلطانى .. نقول : إنه نظراً لذلك الستار الحديدى الذى ضُرب على وجوه وألسنة هؤلاء النسوة كحجاب ملتهب من نار .. فقد واجهتنا مشكلة نقص المصادر التى سوف نعتمد عليها كمورد رئيسى فى هذا الموضوع .. لذلك .. لم يكن أمامنا سوى الركون إلى طريقتين : إحداهما : كان الأرشيف وأوراقه الصفراء .. حيث أخذنا نجمع مئات من قصاصات الصحف والمجلات القديمة .

أما الطريقة الثانية .. فقد انصبت تجاه الكتب التى صدرت باللغات الأجنبية ، وأيضاً بعض الكتب العربية التى كانت تشير باستحياء إلى وضع المرأة داخل القصور الملكية .

أيضاً كانت الصفة الغالبة فيما وجدناه من كتب أجنبية .. هى مذكّرات بعض الرحّالة الأجانب الذين سجلوا مشاهداتهم ، وكأنما فى قصور ألف ليلة

وليلة ، وما بداخلها من حريم شرقى ، ونسوة من كل جنس ولون ، ومذكرات بعض الذين عاصروا حكم هؤلاء الولاة .. وأيضاً مذكرات بعض نسائهم .

ولقد بدأ مؤشر الاهتمام بأحوال المرأة سواء فى الصحف أو فى الكتب يزداد اتجاهه ناحية اللاممنوع .. حتى وصل إلى قمته ابتداء من عام ١٩١٩ .. حين دخلت أول امرأة من صنف « الحريم الشعبى » إلى قصر « الحريم السلطانى » ، وكانت تلك المرأة هى الآنسة « نازلى » التى أصبحت فيما بعد الملكة « نازلى » .. وكانت بذلك أول سيدة تدخل القصور الملكية ، مع أنها لم تكن تنتمى إلى أسرة الملك سواء من قريب أو بعيد ، كما كان العُرف سائداً آنذاك .

ومن بعدها واصل ذلك الصنف من الحريم اتجاهه بسرعة الصاروخ ناحية القصور الملكية ، والجلوس فوق عرش مصر حتى إن ثلاثة منهن من بعدها قد جلسن على ذلك العرش .

* * *

ولقد قسّمنا رحلتنا عبر هذه الأوراق إلى عدة محطات نتوقف عندها .. هى أشبه بمراحل فى حياة تلك الملكية .. ولعلنا نكون أول من لجأ إلى هذا التقسيم التاريخى للملكية المصرية فى العصر الحديث ، والتى استمرت لأكثر من مائة وأربعين عاماً .

لقد تحدثنا عن الحقبة الأولى التى تناولت فترة حكم « الوالى » بدءاً من محمد على ثم ابنه إبراهيم وحفيده عباس حلمى الأول .. ثم ابنه الصغير محمد سعيد باشا ، وهى فترة امتدت لأكثر من ثمانين عاماً ، وقد شمل حديث هذه الفترة بيان ما كانت عليه المرأة داخل القصور الملكية ، خاصة زوجات الوالى وحريمه اللائى كُن يبلغن فى بعض الأحيان أكثر من خمسين زوجة ، وما لا يقل عن ثلاثة آلاف امرأة من الجوارى والحظايا وما ملكت أيمانهم .

ثم أعقبنا ذلك بحديث آخر عن زوجات « الخديوى » .. وهى الحقبة الثانية فى حياة الملكية فى مصر بدءاً من الخديوى إسماعيل الذى تولى العرش عام ١٨٩٣ ، والذى تزوج ـ وحده ـ بأربعة عشر امرأة شرعاً ، بخلاف ما كان فى قصره من جوَارٍ وحظايا بلغت عدة آلاف ، ثم الخديوى توفيق الذى تزوج من امرأة واحدة ، ومن بعده ابنه الخديوى عباس حلمى الثانى الذى تزوج من امرأتين فقط .

ومن بعد فترة حقبتى « الوالى والخديوى » .. تحدثنا عن الحقبة الثالثة ، وهى فترة حكم « السلطان » ، والتى شغلها كل من السلطان حسين كامل وأخيه أحمد فؤاد ، ووضع المرأة كزوجة وكجارية داخل قصور السلطان .

ثم تطرقنا فى الحديث لآخر حقبة فى تاريخ تلك الملكية ووفقاً للتقسيم السابق ، وهى حقبة حكم « الملوك » التى مثلها كل من فؤاد وابنه فاروق .

* * *

ولعلنا بهذه المناسبة نتقدم بالشكر لكل من أسهم معنا فى الحصول على المعلومات سواء مَنْ كان منهم فى مكتبة وأرشيف أخبار اليوم و الأهرام ودار الهلال أو من كان منهم يعمل بمعهد الآثار الشرقية الفرنسى ، وعلى رأسهم الأستاذ عرفة عبده على ، مدير مكتبة المعهد ؛ فقد كان له ولهم الفضل فى إكمال الناقص من المصادر ومن الصحف والمجلات .

وبالله التوفيق .

يناير ١٩٩٤ .

حنفى المحلاوى

حدائق القبة

الفصل الأول

في حريم السلطان

نستطيع القول بأن حياة الملوك في أى مكان على وجه الأرض ، ومنذ نشأة هذا النظام السياسى لحكم الشعوب قد ارتبط بمظهرين أساسيين لا ثالث لهما .. المظهر الأول : كان ضرورة وجود زوجة تكون بمثابة الوعاء الملكى الذى يحفظ سلالة هذه الأسرة أو ذاك .. وحتى لا تنقطع .. أو بمعنى آخر يكون الدافع الأساسى للملوك فى الزواج هو الإنجاب .. وليس الإنجاب على إطلاقه .. بل يكون مهمته إنجاب الذكور فقط . باعتبار أن الطفل الذكر « ولى العهد » ، هو الذى يحفظ الحكم ويضمن استمراريته فى هذه الأسرة أو فى غيرها .

وفى بعض المجتمعات قديماً وحديثاً قد يكون للبنت أيضاً وضع ملكى خاص يساوى ما قد يتمتع به الطفل الذكر .. فهى كثيراً ما تتبوأ منصب « ولى العهد » أو « ولية العهد » ، ولكن ثبت بالدليل التاريخى أن الصفة الغالبة فى هذه المجتمعات أن يكون ولى العهد من الذكور ، والمرأة التى تفشل فى إنجاب ، ولى العهد .. تحاول من تلقاء نفسها أن تبتعد عن القصر السلطانى .. كى تفسح المجال لغيرها ، فربما يأتى ولى العهد من بطنها .. ! .

وكيفية اختيار هذه الزوجة التى تمثل وعاء المُلك للأسرة الحاكمة .. يختلف من أسرة ملكية إلى أخرى .. بل ومن مجتمع إلى آخر .. هذا الاختيار تحكمه عدة معايير ، وفى غالب الأمر لا يكون للابن الملك أى رأى فيه ..

ولعل أبرز هذه المعايير أن تكون الزوجة من أسرة ملكية أو أسرة عريقة .. وليس بشرط أن تكون من أهل البلاد التى يحكمها الملك .. بل ربما تكون من بلاد بعيدة ومجتمعات غريبة .

وقديماً كانت مثل هذه الزيجات تُعقَد لتحقيق بعض المصالح الشخصية أو القومية .. أما فى العصر الحديث .. فإن هدفها أولاً وأخيراً أصبح هو البحث عن « ولى العهد » من أم تنتسب إلى أحدى الأُسر العريقة .

وفى كثير من الأحيان تكون هذه الزوجة من « حريم السلطان » .. ونسائه الذى اشترى بعضهن ، وحصل على الجانب الأكبر منهن كهدايا أو كسبايا فى الحروب ، وقليلاً ما كان يدخل القصر السلطانى من النساء امرأة من عامة الشعب !! .

وحتى فى مثل هذه الحالة كان لابد وأن تكون تلك المرأة هى الأخرى على صلة بالقصر الملكى سواء عن طريق أمها أو أحد من أقاربها ، وهنا كان لابد أيضاً وأن تقنع بها الملك شخصيا .

ومثل هذه الظاهرة قد عاشتها الملكية المصرية فى آخر حلقاتها التى بدأت من عام ١٩١٨ وما بعدها .. خاصةً منذ تولى الملك أحمد فؤاد عرش مصر وحتى رحيل ابنه فاروق .

أما المعيار الثانى لهذا الاختيار هو موافقتها على أن تلتحق « بالحريم السلطانى » . أو الجناح الخاص بالملكة ، وهذا المعيار لم يكن يُعد شرطا توافق عليه الملكية أو لا توافق ، بل فى كثير من الأحيان كان يُعد أمراً ملكيا لابد من تنفيذه .. كما لابد وأن تكون هى نفسها عارفة به حتى قبل مَقْدمها إلى عرين الملك ؛ لأنها ـ أولاً وأخيراً ـ قدمت من أُسرة ملكية عاشت أمها من قبل نفس هذه الظروف .

و « الحريم السلطانى » فى مثل هذه الحالات كان ينقسم إلى قسمين .. الأول : هو القسم الشرعى والذى تمثله زوجة الملك أو زوجاته . أما القسم الثانى : فيمثله جيش النساء اللائى كُنَّ يعج بهُنَّ القصر السلطانى ، وهؤلاء قد اختلفت مهامُّهن من عصر لعصر ومن مَلك لملك .. بل ومن قصر لقصر أيضاً ، ولكن فى كل الحالات كُنَّ جميعاً نسوة فى خدمة الملك .. مع اختلاف طبيعة هذه الخدمة ، كما كان يضمهن مكان واحد وهو « قصر الحريم » . أو « الحرملك » .. ولسوف يكون لنا وقفة طويلة مع ذلك الحريم ودوره اجتماعيا وسياسيا بعد أن نلقى الضوء على المظهر الثانى الذى ارتبط بحياة القصور الملكية .

ويتمثل المظهر الثانى فى حياة الأسر المالكة هنا بالإضافة إلى الاهتمام بالزوجة .. هو الاهتمام كذلك بالمكان .. وما نقصده بطبيعة الحال هو القصر الملكى ، الذى يعتبره العديد من المؤرخين من الأهمية من حيث تحديد قوة وشكل الأسرة الحاكمة .. وأيضاً مدى ما تتمتع به تلك الأسر من قوة اقتصادية ونفوذ واسع يتبلور بشكل أو بآخر فى عدد ما تملكه من قصور والصفة المعمارية التى تتميز بها .

وإذا كان المظهر الأول لا يتأثر كثيراً بالزمن أو بالتطور الاجتماعى ؛ ذلك لأن مفهوم الزواج قد نشأ منذ خلق آدم ـ عليه السلام ـ ولم يختلف هذا المفهوم كثيراً عن العُرف العام سواء داخل أسوار القصور العالية أو خارجها .. فإن المظهر الثانى للحياة الملكية قد تأثر كثيراً بتلك التطورات الزمنية والاجتماعية ، وكان منذ شكله الأول يرتبط بإقامة القلاع ، والأسوار العالية التى كانت خط الدفاع الأخير عن حياة الملك ، حين يثور عليه الناس أو يكون عرضة لهجوم الأعداء .

هذا الشكل القلاعى قد ظل ماثلاً فى ذهن الأسر الحاكمة ، وهى تخطط لبناء قصورها سواءً على الطرز القديمة أو الحديثة .

ولكل من يريد التأكد من نظرتنا هذه .. عليه أن يتوجه بعينيه ناحية أى قصر ملكى فى مصر أو فى غيرها .

ولما كان ذلك المظهر الثانى بعيداً عن موضوع هذه الأوراق ، فإننا نقصر فيه الحديث ، ونتوقف فيه عند هذا الحد ، ومن ثم علينا أن نواصل حديث « حريم السلطان » ذلك المظهر الرئيسى الذى ارتبط بحياة الملوك ، ويرتبط أيضاً بموضوع هذه الأوراق .

ولقد رأينا أن أنسب بداية لرحلتنا قبل أن ندخل بأقدامنا ، وبلا استئذان إلى « الحرملك » أو إلى قصر « حريم السلطان » ـ كى نستطلع تاريخه وشكله ، ودوره ، وأهميته فى الحياة الاجتماعية والسياسية ـ أن نسوق المعنى اللغوى لتلك الكلمة ، وما يتبعها من كلمات أخرى تدور فى فلكها ، ثم نواصل البحث عن ذات المعنى ولكن فى الموسوعات الثقافية .

يقول القاموس العربى : إن كلمة حريم الدار تعنى ما دخل فى هذه الدار مما يغلق عليه الباب ، كما تعنى كذلك ما يضاف إلى تلك الدار ، وكان من حقوقها ومرافقها . ويبدو أن الأصل فى هذه الكلمة هو التحريم والحُرمة الذى يقابل الحلال فى المعنى ..

وعلى أية حال سوف نسوق أشهر ما ذكرته القواميس العربية عن المعنى اللغوى لتلك الكلمة حتى تكتمل لدينا الفائدة المرجوة . إن الحريم من وجهة نظر الدين معناه هو : حُرمة الرجل وهى حرمه وأهله .. وحُرم الرجل وحريمه هو ما يقاتل عنه الرجل ويحميه .. وجمع كلمة حريم حُرم .. وفلان مُحْرِمٌ بنا أى فى حرمنا .. أما حريم الدار هو ما دخل فى ما يغلق عليه الباب ..

وحريم الدار أيضاً هو ما أُضيف إليها وكان من حقوقها ومرافقها . والحُرمة هى المهابة .. وما لا يحل لك انتهاكه .. ثم إن حُرم الرجل هم عياله ونساؤه وهم المحارم ومفردها محرَمة ومُحرمة . ورَحِم محرُم .. أى مُحرم تزويجها .

والمدقق فيما أوردناه من معانٍ لغوية .. لابد له وأن يتيقن أن كلمة حريم مصدرها التحريم والحرمة .. والحرام الذى يعنى فى معناه الواسع ارتكاب المعصية بأشكالها المعروفة ، سواء فيما يتعلق بالاغتصاب أو السرقة أو انتهاك ما يملكه الغير .. تحت أى ظرف من الظروف .. ولعلها - أيضاً كلمة - عربية لها تاريخ قديم حتى من قبل ظهور الإسلام .. وذلك وفقاً لعادات العرب أهل البادية الذين كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها متاع شخصى ، ولا يجوز لأحد حتى أن يراها سواء داخل خيمتها أو خارجها .

وحتى حينما جاء الإسلام أقر مبدأ الحفاظ على كيان المرأة ، وبالتالى ربط العربى بين هذا الإقرار ، وبين مكانة تلك المرأة داخل حرمه الخاص .. وبصرف النظر عن صحة أو خطأ تلك النظرة ؛ إلا أنها كانت تمثل الواقع فى فترة زمنية طويلة من فترات التاريخ الإنسانى الذى سطره رجل البادية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان .

وقد يكون المعنى اللغوى للكلمة غير مطابق لواقع استخدامها فى الحياة ؛ لذلك حرصنا على التعرف على الاستخدام الواقعى للكلمة بعيداً عن تلك القواميس فلجأنا - كالعادة - إلى الموسوعات الثقافية التى قرأنا فى أوراق إحداها :

.. حريم : تعنى حجرات النساء فى المسكن الإسلامى ، ويبدأ تاريخ حريم سلاطين تركيا - أكثر الحريم شهرة - فى القرن الخامس عشر ، هذا النوع من الحريم كان يتميز ببناء دور أو قصور محاطة بأسوار عالية ، وبها مكاتب

حكومية ، ومساكن خاصة بنساء السلاطين .. وقد أُلغى هذا النظام بسقوط السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٩ .. وهو يعرف فى الهند باسم « برادا » .. وفى إيران باسم « زيناتا » .

ومن قبل الدخول فى تفاصيل الحديث عن تاريخ ظهور الحريم وارتباطه بالحكام .. رأينا ضرورة أن نفرق بين نوعين من الحريم .. وإن كان كل منهما يندرج تحت مسمى واحد . **النوع الأول** : وهو النوع السبّاق فى الظهور على غيره ، هو « الحريم الشعبى » .. أو حريم أهل القرى والمدن والبادية .

وهذا النوع تندرج تحته كل النسوة منذ ظهور علامات الأنوثة على البنت ، وحتى التحاقهن بحريم آخر ينقلها فقط من دار إلى دار ، ومن ملكية إلى ملكية أخرى ، ونقول : إن هذا النوع سباق على النوع الثانى وهو « الحريم السلطانى » أو الحريم الملكى .. لسبب هام جدا يرتبط بنظرة الرجل الأول للأنثى ، ولقد سبق لنا وتناولنا هذا الموضوع بتوسع كبير فى كتابنا « النساء ولعبة السياسة » .

أما النوع الثانى : وهو « الحريم السلطانى » .. فنقصد به ذلك الحريم الذى يستأثر به الحاكم مهما كان وضعه وكيانه ضعفاً أو قوة .. ولقد لاحظ علماء الاجتماع أن هذا النوع الحريمى قد نشأ منذ عرف الإنسان أنظمة الحكم على اختلاف أنواعها .. حتى وهو ما يزال يعيش فى ظل نظام القبائل ! . طبعاً مع اختلاف المسميات والوظائف .

وربما دفع هذا التصور هؤلاء العلماء أوبعضهم للربط بين نشأة « حريم السلطان » وبين ظهور نظام الجوارى والقيان ! هذا الربط لن نجده بطبيعة الحال فى نوع « الحريم الشعبى » .. لسبب بسيط للغاية هو أن الرعية كانوا يقتصرون فى حريمهم على اقتناء الزوجة فقط إلا القليل منهم الذى كان يتمتع ببعض

لـذلك نجـد أن التاريخ قـد حـدثنا كثيـراً عن تلك القصور السلـطانية أو الأميرية أو الملكية التي تمتلىء عن آخرها بالجوارى الحسان .. حتى حكايات ألف ليلة وليلة لم تَخْلُ من حديث الجوارى والقيان .. رغم أن تلك الحكايات قـد صورت لنا ـ فقط ـ قصور أهل الفرس والهند حتى لنظن أن بلاد العرب قد خلت منهن .

إن الجـوارى والحظايا لم يقـتصـر وجـودهُنَّ ـ فى واقع الأمـر ـ على بلاد الروم وفـارس ، وإنما امتـد أيضاً إلى قلب الجزيرة العربيـة فى جاهليـة ما قبل الإسلام ، وإذا ما عرفنا أن وجودهن قد تعدى الإسلام إلى الدولتين : الأموية والعباسية ، وما انتهت إليه كل منهما من تفـرق إلى ولايات مفتتة ، لتأكد لدينا أن الأمـر لم يكن مـرتبطاً بجـاهـليـة أو اعـتناق ملة .. بل هـو لصـيق بالإنسـان أينما وحينما كان[1] .

والغريب ـ فى هـذا الأمـر ـ أن المعنى اللغـوى لكلمة جـارية أو محظية قد اخـتلف كثيراً عن الاستخـدام العـام لها فى الواقع ؛ لأن كلمة جارية اتضح أن من معانيها والجـميلة : المـرأة الفتية من النسـاء بينة الجراية والجرى ، وهى ـ أيضا ـ المنة أو النعمة من الله على عبـاده .. لهذا كانت العرب تقول : صدقة جـارية تعنى سـارية ، أما الحـظية فهى الفتاة ذات المكانة أو المنزلة لـدى مـولاهـا أو سلطانها ، وتطلق ـ أيضـاً ـ على المـرأة التى تُفضَّل على غيـرها فى المحبـة .

وهذا الحديث كـان لابد وأن يجذبنا إلى ضـرورة أن نربط ـ مثلمـا فـعل علماء الاجتمـاع ـ بين الحريم والجوارى وبين الرقيق وقد اكتشفنا أن ما بين الثلاثة من عـلاقـة يكاد يكون ضـعيفـاً .. بل ومـعدوماً أيضاً .. لأن المنشأ فى الغـالب كـان واحـداً ، فالمرأة تدخل قصـر الحريم إما بطريق شرعى وهو الزواج

---

(١) الجوارى والحظايا ـ جمال بدران .

الذى يكون دافعه فى الغالب المصلحة العامة بين شعبين متجاورين أو ملكين أو سلطانيين فى حاجة إلى تحقيق مصلحة من نوع ما ! . أو أن تأتى نفس المرأة إلى قصر الحريم من الأسواق .

وهنا تكون فى منزلة الجارية التى يشتريها رجال السلطان أو التى تأتيه على سبيل الهدايا ، لما تتمتع به من مزايا خلقية .. عندئذ تلتقى المرأة فى هذه الحالة بالمعنى الثالث وهو الرق .. الذى يقوم فى الأساس على بيع وشراء النساء فى الأسواق .. وعادة ما يكون مصدرهن الأسر فى الحروب أو السطو على البلدان .. والتاريخ ملىء بمثل هذه الحكايات التى لا يخلو منها كتاب حدثنا عن المرأة فى العصور القديمة أو الوسيطة .

وأكثر من ذلك .. فإن التاريخ به العديد من الحكايات التى تروى لنا كيف تمكنت أكثر من جارية وأكثر من امرأة بيعت في سوق الرقيق من إعتلاء العروش .. بل وإنجاب أولياء العهد ، وفى ذلك يتفوقن على حريم السلطان الشرعيين الذين أتوا بهن إما بالمصاهرة أو بالإعجاب الملكى .

ولعل ما اكتشفناه من ارتباط بين المعانى الثلاثة لألفاظ : الحريم والجارية ، والمحظية ، يجعلنا نقدم على تقسيم « الحريم السلطانى » الذى كان يقع خلف أسوار القصور العالية إلى نوعين :

النوع الأول : وهو الحريم الشرعى .. أو هؤلاء النسوة اللائى قَدِمْنَ بإرادتهن إلى تلك الأسوار العالية .. ولقد سبق وذكرنا أن الدافع فى غالبية الأحوال لمثل هذا الزواج السلطانى أو الأميرى أو الملكى هو المصلحة العامة أو الخاصة .. وتحقيق عدة أغراض وأهداف ، تبدأ بالخوف من الضعف داخل الدولة ، واحتياج هذا السلطان أو ذاك إلى من يقوى ظهره .. فلا مفر – إذن – من الزواج من ابنة ملك قوى !! .. بالحاجة إلى إنجاب ولى العهد .. لأن المرأة

التى لا تنجب الذكـور يكون موقعـها داخـل قصر حـريم السـلطان مهدداً ، حتى ولـو كـانت ابنة ملك الجـان ! . على الأقل إن لم يطلقـهـا .. فسـوف يتزوج غيرهـا .

أما النوع الثانى : هو مـا « ملكت الأيمان » .. ويكون مـصـدره ـ فى الغالب الأعم ـ هدايا الملوك أو سبايا الحروب .. أو أسواق النخاسة .

ويقـول التاريخ من واقع ما سجله من حكايات : إن « الحريم الشرعى » داخل القـصـور السلطانيـة لـم يكن له بريق مـا « لحريم الهـدايا » .. سـواء من حيث الجاذبية أو شغف السلطانيه .. ولذلك وجدنا كم من العروش قد ضاعت والتيـجان قد سقطت بسبب ذلك الصراع الخفى بين حريم السلطان خلف الجدران العـاليـة . ليس فى العـصـر القـديم والوسيط فـقط ، بل وفى عـصـورنا الحديثة أيضاً .

وكـمـا يقـول التاريخ أيضاً فإن أزهى عصور الحريم سواء الشرعى أو غيره كـانت فى الفـتـرة التى بدأت على الأقل فى العـالـم الإسـلامى ، أو فى منطقـة الشرق من نهايات الـدولة الأموية ثم الـدولة العباسـية .. ثم الـدويلات الصغيرة حتى الـدولة العـثـمـانيـة .. أما عندنا فى مـصـر .. فقـد واصل عـصر الحـريم توهجـه حتى بعد زوال ذلك النظام من الدولة العـثـمـانيـة ، واسـتـقـر خـلـف جـدران قصور محمد على ، ومن تبعه من أولاده وأحـفاده حتى رحل آخرهم عـام ١٩٥٢ .

ولقـد نُقل هذا النظام من دولتى الفـرس والروم ؛ لأننا لو اطلعنا على النموذج الفارسى لوجدناه يتخذ وضعه فى قصور بنى عباس خاصة ، مثلما ساد النموذج البيزنطى والرومانى عند الأمويين[١] .

---

(١) المصدر السابق .

ولعل من أزهى عصور حريم السلطان فى العصر العباسى كان عصر هارون الرشيد ، وبشكل عام لقد بات نظام الحريم جزءاً لا يتجزأ من واقع حياة الملوك والحكام طبعاً مع اختلاف صوره وتسمياته فى كل عصر وزمان .

* * *

وبما أننا لم نخصص هذه الأوراق إلا للحديث عن حريم السلطان فى العصر الحديث وفى مصر بالذات .. وبالضبط منذ تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥ .. لذلك فلن نغوص فى دروب التاريخ بعيداً عن مسار هذا الحديث .. ونترك تلك المهمة لغيرنا ، ومع ذلك فإننا ربما نخرج عن عصر محمد على قليلاً للحديث عن قصر حريم السلطان العثمانى .. لسببين :

أولاً : أن مصر ظلت حتى وهى تحت حكم محمد على .. ولاية عثمانية .

وثانياً : أن النظام العثمانى فى حب الأبهة حتى داخل القصور قد انتقل بالتبعية إلى مصر .

وأدق وصف عثرنا عليه فى الكتب لما كان عليه حريم السلطان العثمانى .. هو ما نقله إلينا الكاتب الكبير عبد الحميد الكاتب بقوله : « هذا الحريم عالم مستقل بذاته .. لا يمكن أن يدخله أو يقترب منه أى رجل .. أما هؤلاء الأغوات فقد انفصل ما بينهم وبين الرجولة ، وصاروا فى حكم الحريم .

وكان كبير الأغوات يحظى بمركز كبير يكاد يصل إلى مركز رئيس الوزراء الذى يسمونه « الصدر الأعظم » . أما الرجال ، فإنهم يعيشون فى السلاملك .. وبين الحريم والسلاملك جناح كبير مخصص للسلطانة الوالدة

وهى أحيـانًا أم السلطان وأحيـانًا أم من يجعله السلطان وليًا للعـهـد ، وكـان للسلطانة الوالدة مكانة كبيـرة تلى مكانة السلطان ، وأهم ـ طبعًا ـ من مكانة رئيس الـوزراء الذين يسمونه « الصدر الأعظم » .

وكان هناك ما يسمى بالطريق الذهبى ، يمتد بين السلاملك والحرملك مارًا بجـناح السلطانة الوالـدة ، وهـذا الطريق هو الذى تمر فيه الجارية التى يقـع عليهـا الاختيـار لمقابلة السلطان ، وكان يتقدمها فى هـذه المسيرة كبير الأغوات .

وكان رئيس الأغوات فى ذلك الوقت شخصًا مهذبًا رقيقًا ، وكان يعطف على حريم السلطان الغرباء »[1] .

وفى مـوضع آخر من ذات الوصف أضاف عبد الحـميـد الكاتب : « فى جناح الحريم المقدّس » تكون فيه المتعة بكل ما فيها من إثارة وإغراء .. والمالك هنا هو السلطان العثمانى بكل ما فيه من غرائز جامحة .. أما راهبات هذا الدير فهن هؤلاء الجوارى اللاتى جئن من چورچيا والبلقان واليونان وسوريا وأرمينيا . وكان بعضـهن أوربيات ، لقد كان عـملاء الباب العالى يطوفون أوربا ليعـودوا بأجمل الأوربيات . وكـانت المحظيات يعشن حياة مترفة يتلقين دروسًا فى إثارة السلطان وإمتاعه .

ولكن حياتهن مع ذلك لـم تكن بعيدة عن الخطر .. فقـد ضاق السلطان ذات مـرة بحـريمه المكون من ٣٠٠ امرأة ، فـتـخلص منهن جـمـيـعًا وجـاءوا له بحريم جديد ، وكـانت الطريقة المثلى للتخلص من حـريم السلطان هى الطريقـة العثمانية التقليدية .. فقد أمر بتقييد أقدامهن بسلاسل ثقيلة ثم إغراقهن فى مياه البوسفور » .

---

(١) حكاية أتاتورك والإسلام ـ عبد الحميد الكاتب .

« وكانت كل جارية تعمل ما تستطيع لتجمّل نفسها ، على أمل أن تحظى بالإعجاب السلطاني يوماً ما ، فقد كان السلطان يذهب من حين لآخر لزيارة الحريم .. عندئذ يدق رئيس الأغوات جرساً كبيراً مصنوعاً من الذهب معلناً تشريف السلطان لجناح الحريم هذا المساء فتسرع كل جارية إلى تزيين نفسها بأجمل ثيابها وحُليّها ، على أمل أن تلفت نظر السلطان .

وتكون السلطانة الوالدة في استقبال ابنها على باب الحريم ، ومعها رئيس الأغوات ، ووراءه الجوارى الجميلات ، وقد وضعت كل واحدة يدها على صدرها احتراما وإجلالاً ، ويصل هذا الموكب الثلاثى إلى الحفل الذى تقيمه السلطانة فى جناحها لهذه المناسبة السعيدة ، وتزدحم غرفة الاستقبالات بنساء كثيرات ومحظيات سابقات أنجبن للسلطان أطفالاً ، إنهن الآن فتيات جميلات فى انتظار إشارة السلطان .

ويبدأ الحفل بأن يركع السلطان أمام السلطانة الوالدة ، فتأخذ بيده حتى يجلس على أريكة عالية يقف على أحد جوانبها رئيس الأغوات ، وعلى الجانب الآخر حامل مفتاح الخزينة ، وتجلس السلطانة الوالدة على الأريكة المقابلة وبينهم جمع من الجوارى الحسان يمشين فى خطوات كلها إثارة ودلال . فيفحصهن السلطان بنظرات ، شرهة بينما تطوف الخادمات الصغيرات بصوان حافلة بأطباق الحلوى وأقداح القهوة ، ويفوح أرجاء المكان برائحة العطور والبخور .

كل من فى الحفل يتطلع للسلطان ليرى أين تتجه عيونه .. وينتظر الجميع فى لهفة ما يقرره السلطان .. فإما أن ينهض من أريكته ويغادر الحفل .. عندئذ يعلو بكاء الجاريات .. وإما أن يستقر نظره على إحدى الجاريات فيسأل السلطانة الوالدة عنها ، فتشير إليها لتقترب من أريكة السلطان وتنحنى وتقبل الوسادة التى يتكئ عليها » .

« إن هذه الجارية قد صارت منذ الآن محظية مقربة من السلطان فتنفصل عن باقى الحريم وتقيم فى جناح خاص .. تنتظر فيه حتى تتلقى أمراً بدخول المخدع الملكى .

ويسجل رئيس الأغوات التاريخ الذى يتم فيه اللقاء بين الجارية الحسناء وعظمة السلطان ، فإذا وضعت الجارية طفلاً بعد تسعة أشهر فإنه ينسب إلى السلطان ، وإذا كان المولود ذكراً حَظِيَت أمه بكثير من الجواهر ، وكثير من الخدم والعبيد ، ومنحوها جناحاً مستقلا فى القصر الكبير ، وأخذ الأمل يداعب خيالها بأن يتولى ابنها الحكم ، وبأن تكون السلطانة الوالدة فى يوم من الأيام أما إذا كان الوليد بنتاً .. فكأنها لم تنجب .. وتعيش بقية حياتها على ذكريات الليلة التى دخلت فيها مخدع السلطان » .

* * *

وإذا ما أمعنا النظر وأطلنا التفكير فى ذلك الوصف الحيوى والدقيق لما كان يحدث خلف جدران القصور العالية ، سوف نجد تأكيداً لما سبق وذكرناه عن الفرق الشاسع بين الحريم السلطانى والحريم الشعبى ، وأيضاً سوف نجد نفس الفرق يضيق بالنسبة لمعانى الكلمات الثلاث : الزوجة ، الحريم ، والجارية ! . فرغم الاختلاف فى الحروف ؛ إلا أن المعنى كما رأينا كان واحداً

ولا شك أن هذا الوصف أصبح يغنينا تماماً عن المزيد من البحث عن حريم السلطان داخل قصور الدولة العثمانية ، وبالتالى يتيح لنا فرصة الاقتراب أكثر من ذى قبل من قصور حريم السلطان فى مصر .. خاصة منذ أيام حكم محمد على باشا والى مصر عام ١٨٠٥ ، ومروراً بأولاده ، وأحفاده الذين تولوا حكم مصر من بعده من نفس سلالته وإن اختلفت تسمياتهم حتى آخر هؤلاء الأحفاد وهو الملك فاروق ..

وما نحب أن نؤكـد عليه.. أننا حين نتحدث هنا عن حريم ملوك مصر وسـلاطينها .. سـوف يقتصـر حـديثنا فى الغـالب على الحـريم الشـرعى .. أو الزوجات .. والسبب كما نعرف أن عصر الجوارى قد بدأ ينقرض ويختفى مع اختفاء وإلغاء أسواق النخاسة .. سواء فى الشرق أو فى الغرب ، ولا نقول : إنه قد اختفى تماماً ، ولكنه قد قلّ كثيراً وإن لم ينقرض أو يختفِ .. كذلك لم تعُدْ الحروب هى المصدر الرئيسى للجوارى .. كما أن تجارة الرقيق فى العالم كله قد بدأت تتوارى مع ظهور صـور الحـركات النسـائية وبوادر البحث عن حـقوق الإنسان .

وهناك حقيقة أخرى لابد من التأكيد عليها .. وهى أن لفظ الجارية قد اختفى من قصور سلاطين مصر المختلفة ، وحل محلها تسمية أخرى ، وإن كانت تـؤدى نفس الوظيفـة . لقد باتت الجارية فى قصر الملك أو السلطان فى مصر يطلق عليها لفظ « وصيفة » . هـذه الوصيفة لم تكن تُبـاع أو تُشـترى أو تدخل القصور رغماً عنها كما كان يحدث فى الماضى القريب .. بل جاء وقت خاصة هنا فى مصر ، كانت فيه المرأة ومن يعولها تسعى بكل ما تملك كى تدخل القـصـر السلطانى أو الملكى تحت أى مـسـمى من المسـمـيـات .. وكانت أحلام بعض هؤلاء الوصيفات تداعب عقولهن من أجل الفوز بالملك وبالعرش . تماماً مثلما كان يحدث من بعض الجوارى زمان .

* * *

لقد أصبحنا الآن على مقربة من حديث ملوك هذه الأوراق ، وما كان يحدث فى أيامهم داخل قصور الحريم .. ولكننا وقبل الوصول إلى أبواب هذه القصور .. كى نستطلع وضع المـرأة المتزوجـة بداخله ، كان علينا أن نفسـر أولاً المعنى اللغـوى والموسوعى لكلمة « سلطان » رغم أنها كانت الكلمة التى

لم يستخـدمها حكام مصر منذ محمد علي وحتى الملك فاروق سوى مرتين فقط فى عصر السلطان « حسين كامل » وأخيه السلطـان « أحمد فؤاد » ، أما بقية الألقاب فقـد تدرجـت من لفظ « الـوالى » إلى « الخديوى » وأخيراً « الملك » .

والسبب الذى دعانا لمعرفة معناها اللغوى .. هو أنها كانت الأمل الذى كان يعيش من أجله حكام مصر منذ وفـاة محمد على .. ولولا ارتباط مصر بالـدولة العثمانية حتى حصولها على إستقلالها لسـارع هـؤلاء الـولاة إلى إختيار لفـظ سـلطان دون غيره تماماً مثل لقب « السلطان العثمانى » فى العاصمة الآستانة .

وعلى أية حـال .. إن ما يؤكـد لدينا وجهة النظر هـذه هو ترحيب الأمير « حسين كامل » وتمسـكه بلفظ وبلقب « السلطان » رغم أن والده وعمه من قبل كانا يحملان لقب « الخديـوى » .

كما أننا حين نقـرأ الفقرة القادمة من مذكرات نوبار باشا الذى عاصر هذه الآمال المدفونة فى صدور حكام مصر من أبناء وأحفاد « محمد على » .. سـوف نتيقـن من ضـرورة معـرفـة ذلك المعنى اللغـوى لكلمة السلـطان . قـال نوبـار :

.. « بعدما وافقت الآستانة على منح مصر حق إدارة شئونها .. بقيت مشكلة اللقب .. الذى يطالب به إسمـاعيل .. وهـو « لقب العزيز » ويرفض رئيس وزراء البـلاط العثمانى .. ويطلب من نوبـار الاختيار بين ألقـاب أخـرى مثل « الأميـر » أو « الملك » أو « الخديوى » وهو أحد ألقاب شاه فارس .. ويختار نوبار لقب الخديوى »[1] .

* * *

(١) نوبار فى مصر – نبيل زكى .

يقول صاحب قاموس مختار الصحاح ، الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر الرازى فى قاموسه تحت كلمة « سلط » : السلاطة هى القهر .. وقد سلطه الله عليهم تسليطاً فَسُلطَ عليهم . والسلطان : الوالى وهو فعل يذكر ويؤنث والجمع سلاطين ، والسلطان أيضاً : الحجة والبرهان ولا يُجمع ، لأن مجراه مجرى المصدر .

أما دائرة المعارف فتقول : فى اللغة : السلطان : الحجة والبرهان ، والسلطان : هو الوالى وجمعه سلاطين . وقيل : إن أول من استحدث هذا اللقب هم الخلفاء العباسيون ، وكانوا يطلقونه على كبار وزرائهم كالوزير « جعفر البرمكى » . كما أطلقوه على كبار الولاة ، وكان أُمراء الدولة السامنية يُعرَفون بالسلاطين ، أما أول من جعل لهذا اللقب دلالة بمعنى الحاكم المستقل كان السلطان « محمود سبكشكين » مؤسس الدولة الغزنوية فى فارس .

كما أصبح لقباً لملوك السلاجقة والأيوبيين والمماليك ، وبانتقال الخلافة من مصر إلى القسطنطينية تلقب به الخلفاء الأتراك ، ولقب « سلطان » كان يُطلق على الحكام المسلمين من المستقلين أو الذين يحكمون فى ظل حماية أجنبية كالسلطان زنجبار سابقاً ، وقد أُطلق لقب « سلطان » على خديوى مصر منذ عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٢ ، وهما السلطان حسين كامل والسلطان أحمد فؤاد .

ولعلنا نستأذن صاحب القاموس وأصحاب الموسوعة ؛ كى ننطلق بعيداً عن كلماتهم .. لنواصل الحديث عن قصر الحريم ومنشأه وتطوره منذ حكم محمد على وحتى حكم آخر أحفاده الملك فاروق .. ولسنا فى حاجة إلى التأكيد من جديد على أن المقصود هنا بالحريم .. هو حريم السلطان الشرعى .. أو

زوجاته ، ولكن ما نحب أن نؤكد عليه وقبل كل شئ أن وضع المرأة المصرية ـ أبداً ـ لم يتغير فى هذه الآونة سواء خارج أسوار القصور أو داخلها .. لقد عاشت المرأة المصرية عصر الحريم بكل معانيه سواء « الحريم الشعبى » أو « الحريم السلطانى » ، وهناك العديد من الأدلة التاريخية التى تثبت وجهة النظر هذه منها على سبيل المثال .. أن المرأة داخل قصر الحريم لم يصبها شئ من التحرر أو التقدم إلا حينما ثارت المرأة الشعبية أو نساء العامة .. وإن كانت امرأة القصور قد سبقت غيرها من النساء المصريات فى بعض الجوانب ، مثل التحلى بأدوات الحضارة والأُبهة بحكم ما كانت تتمتع به تلك المرأة من علاقات ربما كانت تتم من خلف ظهر أسرتها .. أو ربما من أجل إسعاد جلالة السلطان ورغم هذا التفوق إلا أنها ظلت حبيسة القصور حتى ربما إلى ما بعد خروج الحريم الشعبى وتحرره من قيود وسيطرة التقاليد .

ولقد عبر عن هذا المعنى العديد من مفكرى هذه العصور من أمثال : قاسم أمين والشيخ محمد عبده ، ومن قبلها كان الشيخ رفاعة الطهطاوى ، لكن الغريب فى الأمر .. أن كل دعوات الإصلاح التى نادت بتحرير المرأة وخروجها من قصر الحريم قد ظهرت مع بدايات عصر محمد على ، والدليل على ذلك ما ذكرته الدكتورة « سامية خضر » حين قالت : لقد تحولت المرأة المصرية منذ الفتح التركى لمصر إلى عبدة لبعض العادات والتقاليد المنتشرة ، وهى المرأة المصرية حاملة شعلة الحضارة الفرعونية وحفيدة حتشبسوت ونفرتيتى ، بل أصبحت نفس المرأة تتلقّى خبراتها الإنسانية عن أمها أو عن الماشطة فيما يتصل بالخبرة الجسدية والجمالية .. والعالمة فيما يختص بالخبرات الأنثوية لكى تتمكن من النجاح فى بيت الزوجية المرتقب ، وما أصعب النجاح فيه لسيطرة الرجل سيطرة مُجحفة بالقيم الإنسانية ! وغالباً ما يكون هذا الرجل جاهلاً رغم

أن معظم نساء مصر فى ذلك الوقت لم تكُن تعرفن العالم الخارجى إلا من الفتحات الضيقة التى كان يُسمح لها بالنظر منها ، سواء من المشربية ، أو الحجاب السميك الذى أُسدل على وجهها ، وعقلها معاً[1] .

وإذا كان للحملة الفرنسية دورها فى إيقاظ الوعى الفكرى والسياسى والثقافى داخل مصر .. فإن تولى محمد على حكم البلاد ، وإرساله البعثات المصرية للخارج يعتبر نقطة تحول هائلة فى وضع حجر أساس فى نهضة فكرية خاصة فيما يتعلق بوضع المرأة[2] .

وتؤكد الدكتورة « درية شفيق » على دور محمد على فى إخراج المرأة من قصر الحريم حين قالت : لقد كان للمرأة نصيب من مظاهر الإصلاح التى استحدثها محمد على فى مصر .. إذا لم يغب عن دهائه أن المرأة التى تؤلف قوة شعبية لها قيمتها فى ميزان الأحداث والثورات ، ولم يغب عن دهائه أن المرأة فى مصر تمثل خطراً ، لابد من إتقائه بالتظاهر بالاهتمام بمطالبها واحتياجاتها .. وهكذا تطوع محمد على بإصدار أول أمر نظامى بفتح مدرسة مهنية للمرأة فى مصر .. وهى ضرورة كانت تحتمها ظروف التطور الذى أصاب البلاد ثم توقفت جهود محمد على عند هذا الحد .

ومع ذلك كانت هذه الخطوة سبباً فى إثارة اهتمام الرجال برفع عصابة الجهل من فوق عيون بناتهم وزوجاتهم ، فتنافس المستنيرون منهم فى تعليم نسائهم وبناتهم[3] .

ورغم أن هذه كانت البداية .. على تواضعها .. إلا أن غالبية حريم الشعب المصرى فى ذلك الوقت ظلت على ما هى عليه قابعة خلف الجدران العالية

(١) المشاركة السياسية للمرأة ـ د . سامية خضر صالح .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم ـ د . درية شفيق .

سواء داخل القصور أو خارجها . حيث عاشت المرأة المصرية رغم هذا التطور الذى اعتبره المؤرخون تطوراً خطيراً فى بلادها عيشة الجمود والتأخر والاستعباد . فلم يكن يسمح لها بالخروج إلا تحت حراسة مشددة وفى كامل التحجب .. فلم تكن المرأة ـ غالباً ـ ترى النور وضوء الحياة خارج جدران منزلها إلا مرة أو مرات نادرة طوال عمرها ، بل لقد كان هناك من لا يكتب لها مثل هذا الحظ السعيد فى حياتها .. فلا تخرج من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها أو لا تخرج من بيت زوجها إلا إلى القبر .

وهناك نقطة أخرى سبق وألقينا عليها بعض الأضواء وتتعلق بعصر محمد على وما تلاه من عصور أولاده وأحفاده ، وهى أن عصر الجوارى كان قد بدأ فى الإنقراض للأسباب التى ذكرنا بعضها من قبل ، ومع ذلك ظلت بعض البيوت المصرية والتى كونت « الحريم الشعبى » ، كان لا يزال مليئاً عن آخرها بأصناف متعددة ومتنوعة من هؤلاء الجوارى .

وتذكر الدكتورة « درية شفيق » : أنه فى ذات العصر قد تفشت بدعة اقتناء الجوارى البيض ، وإنزالهن منازل التكريم ، والتفضيل فى قصورهم وبيوت أتباعهم من أتراك ومصريين ، حتى إذا جاء محمد على فتطورت هذه البدعة وعَمّ انتشارها .

حيث لم يقتصر غزو هؤلاء الجوارى على القصور السلطانية والأميرية أو البيوت الكبيرة .. بل امتد حتى شمل أغلب البيوت المصرية المتوسطة الحال فى المدن والقرى حتى قيل : إنه لم يكن يوجد بيت ما يخلو من جارية أو أكثر إذ يلغ عدد هؤلاء ـ ٣ آلاف ـ من الجوارى البيض ، والحبشيات ، اللواتى جلبهن محمد على وأبناؤه من شركسيات ، وقبرصيات ، وسودانيات ، أكثر من ذلك: إن محمد على نجح إلى حد بعيد فى تمكين هؤلاء الجوارى من السيطرة

على البيوت المصرية ، وانتزاع الأزواج من نسائهم الوطنيات .. حيث أصبحت الجارية فى أكثر الأسر المصرية هى الزوجة الأولى والمحظية المقدمة على سائر نساء الأسرة[1] .

ورغم انطلاق الشرارة الأولى لثورة « الحريم الشعبى » .. التى سرعان ما امتدت إلى « حريم السلطان » .. ابتداء من عام ١٨٣١ بافتتاح مدرسة الحكيمات .. إلا أن العهود التى تلت عصر محمد على مثل إبراهيم وعباس وسعيد لم تشهد أى تقدم على طريق تحرير المرأة .. بل بالعكس كانت رمزاً للتأخر والجمود .. حتى جاء عصر إسماعيل بن إبراهيم باشا ابن محمد على .. عاد الأمل يدب فى صدر المرأة من جديد .. حيث بادر إلى إعادة ديوان المدارس ورصد له ميزانية معقولة كانت سبباً فى إعادة فتح المدارس .. وبذلك بزغت نهضة علمية كبيرة لم تتخلف المرأة المصرية عن السير معها بفضل تشجيع العلماء والمفكرين .

* * *

وكان لابد لهذه النهضة أن تخترق جدران القصور العالية .. وتزلزل كيان حريم السلطان .. وسواء حدث ذلك بإرادة امرأة السلطان أو جاريته أو بعيداً عن إرادتها .. فما حدث داخل القصور السلطانية من تمرد نسائى ــ ولو محدود ــ على تقاليد قصر الحريم كان شيئاً لا يمكن إغفاله .. فقد قيل : إن كتاب قاسم أمين حامل لواء ونداء تحرير المرأة ، والذى صدر عام ١٨٩٩ بعنوان « تحرير المرأة » قد أمرت بوضعه « الأميرة نازلى هانم » حفيدة إبراهيم باشا .. وابنة فاضل باشا الذى كان من المطالبين بالدستور على عهد السلطان العثمانى .

---

(١) المصدر السابق .

لقد كانت ابنته « نازلى » مثقفة ومستنيرة وصاحبة صالون أدبى وسياسى يلتقى فيه المعتدلون من المفكرين المصريين ، كما قيل وقتها : إن « نازلى » هى التى أمرت بوضع هذا الكتاب ، لأنها غضبت من رأى قاسم أمين عن الحجاب[1] .

وبشكل عام نستطيع القول بأن بداية حركة التمرد النسائى داخل قصور الحريم أو داخل منازل المشربيات ، وسواء على المستوى السلطانى أو الشعبى .. قد حدثت على استحياء .. وبدأت أولاً ثورة اجتماعية صامتة .. أشعل وقودها يوماً بعد يوم افتتاح المدارس وإلحاق البنات بها ، ثم امتدت إلى الحياة الاقتصادية .. حيث بدأت المرأة فى الخروج من منزلها للبيع والشراء .. أما الجانب السياسى فقد ظل مختبأ خلف الحجاب حتى ثورة ١٩١٩ .

والشئ الملفت للأنظار فى هذا التطور .. أن استجابة « الحريم الشعبى » للثورة والمشاركة فيها كان أكثر إيجابية وسرعة من مشاركة « الحريم السلطانى » .. والدليل على ذلك على سبيل المثال لا الحصر .. أن عدد زوجات ومحظيات الوالى محمد على وصلن إلى تسعة وعشرين محظية وزوجة .. بخلاف زوجتين .. أما ابنه إبراهيم فقد وصل عدد زوجاته إلى ست زوجات ، فى حين بلغ عدد زوجات عباس الأول خمس زوجات ، وسعيد باشا زوجتان .

ورغم نزول المؤشر العددى لزوجات ملوك مصر أيام سعيد وعباس .. إلا أننا سوف نلاحظ ووفقاً لاستخدام ذات المؤشر أن العدد بدأ يزيد من جديد أيام إسماعيل ، فقد بلغ عدد زيجاته أربعة عشر زوجة ، أما الخديوى توفيق فكانت له زوجة واحدة ، وعباس حلمى الثانى زوجتان فقط ، وكذلك السلطان حسين وأخوه أحمد فؤاد كان لكل منهما زوجتان فقط ، إحداهما كانت

(١) قاسم أمين ــ الأعمال الكاملة ــ الدكتور محمد عمارة .

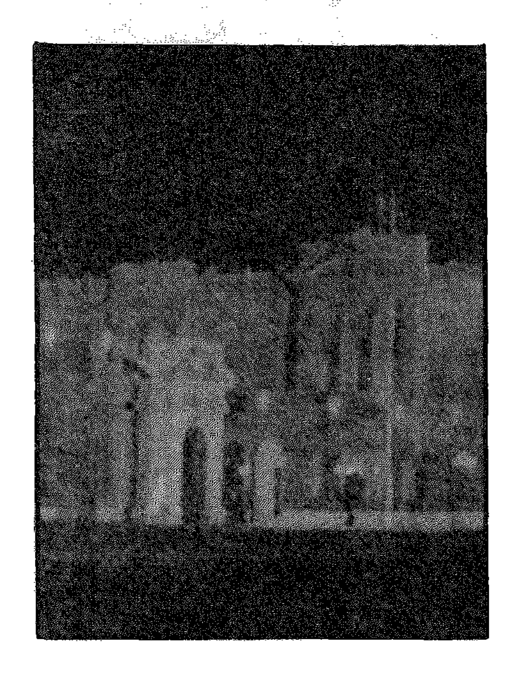
أميرة إذ تزوجها قبل توليه الحكم .. وأخيراً حين يجئ الدور للحديث عن الملك فاروق نجد أن عدد زوجاته اثنتان فقط .. طبعا بخلاف زيجاته العرفية .

ولعلنا ، ومن خلال الأوراق القادمة سوف نلقى المزيد من الأضواء على « الحريم السلطانى » وموقع زوجة السلطان أو الأمير أو الملك داخل هذا الحريم .. بدءاً من الوالى محمد على باشا الذى اعتلى عرش مصر عام ١٨٠٥ على إثر نجاحه فى القضاء على خصومه السياسيين من المماليك فى حادث مذبحة القلعة الشهير ، وانتهاء بآخر أحفاد ذلك الوالى وهو الملك فاروق .

إنها قصة تستحق المزيد من التأمل ومن الدراسة .. ولعلها تكون الأولى من نوعها التى سوف نتحدث من خلالها عن حريم السلاطين وزوجات ملوك مصر فى العصر الحديث .

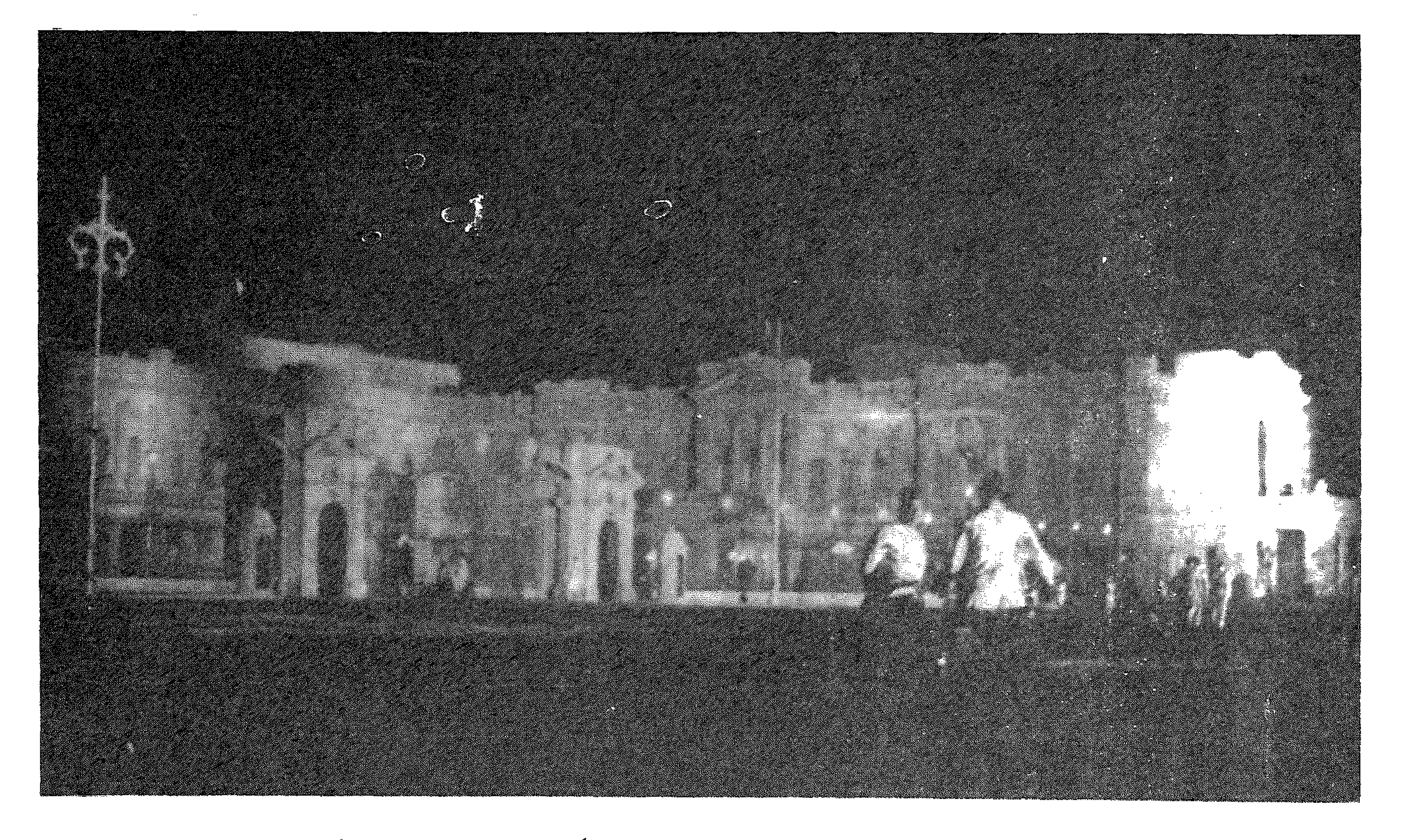
* * *

ملحق صور الفصل الأول

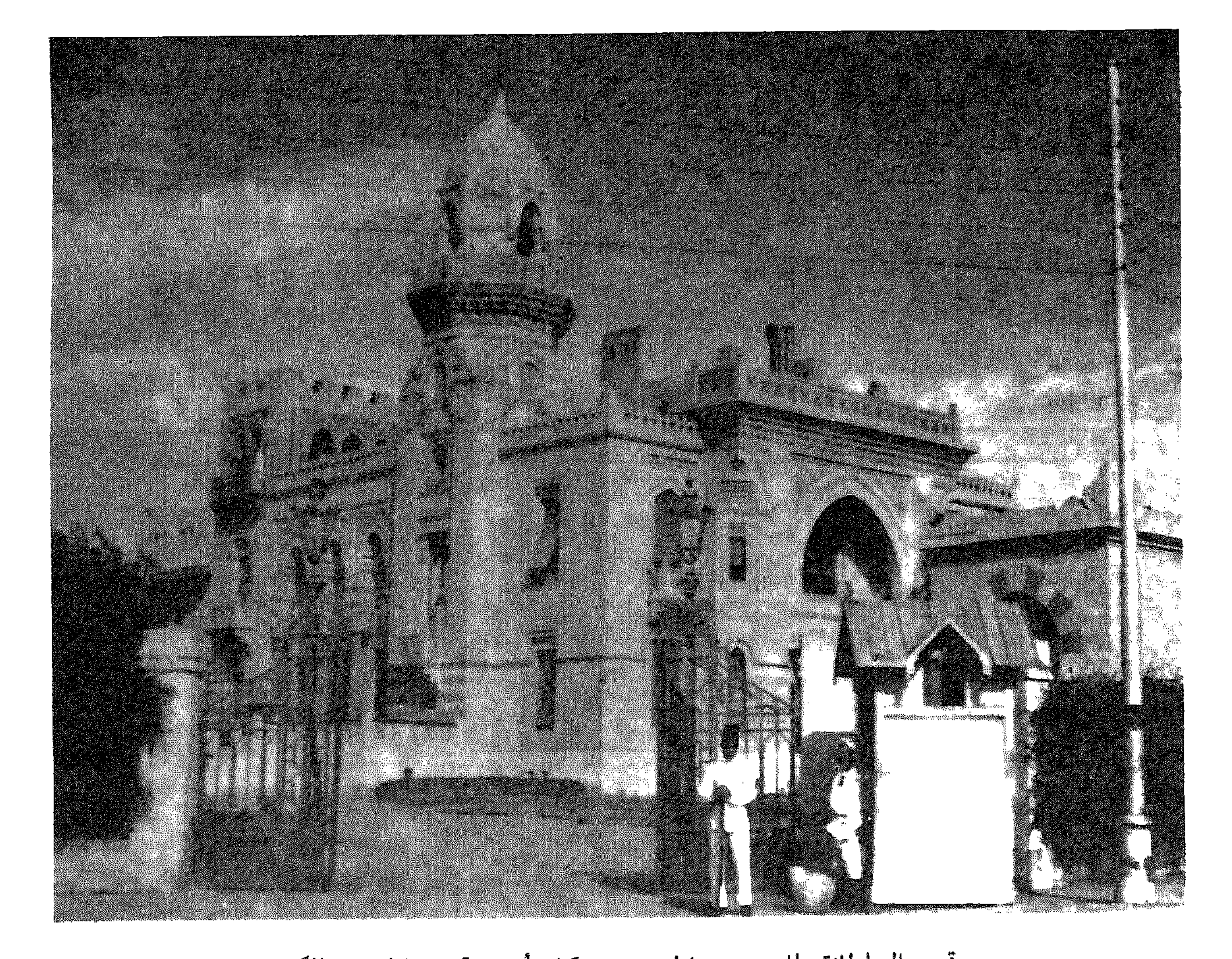


قصر عابدين

شهر قصور الحريم في مصر



صورة فى ليل القاهرة الجميل .. لقصر عابدين أشهر قصور الحريم الملكى



قصر السلطانة ملك بمصر الجديدة .. كان أحد قصور الحريم الملكية ..

وهو يقع الآن فى مواجهة قصر البارون

الفصل
الثانى

حــريم الــوالى

في إحصاء سريع أجريناه لمعرفة عدد نساء أسرة محمد على .. اكتشفنا أن عددهن وصل إلى ـ تسعة وخمسين امرأة ـ عاشت خلف جدران القصور العالية سواء داخل قلعة جبل المقطم التى أقامها محمد على ، وكانت المقر الرئيسى له طوال فترة حكمه ، أو فى القصور الملكية التى شيدها هو وأولاده وأحفاده سواء فى القاهرة أو الإسكندرية أو مدينة « بنها » .

وحتى نكون منصفين أكثر فى تقديم ما أسفر عنه هذا الإحصاء ، نذكر أننا قد أحصينا ـ فقط ـ زوجات وحريم الوالى والخديوى ، ولم يشمل ذلك الإحصاء زوجات السلطان أو الملك .

ولتوضيح هذه النقطة أكثر نقول : إن محمد على باشا مؤسس الملكية المصرية الحديثة ـ ذلك المواطن الألبانى المولد والأصل ، والتركى الانتماء السياسى واللغوى والعسكرى .. بعد أن استقر له الأمر فى مصر عام ١٨٠٥ وحتى يوم رحيله فى أغسطس عام ١٨٤٩ ـ اتخذ لنفسه لقباً يناسب البلد التى بات يحكمها باعتبارها إحدى ولايات الامبراطورية العثمانية ، وهى مصر المحروسة ، وقد ظل محمد على طوال أكثر من ثلاثين عاماً فى محاولات سلمية أحياناً وحربية أحياناً أخرى من أجل أن يحصل لمصر على استقلالها لا لشئ ؛ إلا لكى يقيم امبراطورية مترامية الأطراف مثلما فعل من قبل العثمانيون ، وكانت هذه الامبراطورية قاب قوسين أو أدنى من التحقيق لولا ظروف سياسية محلية ودولية حالت دون تحقيق ذلك الهدف ، ويذكر بعض المؤرخين ـ فى هذا الصدد ـ أن محمد على كان يحلم بتكوين امبراطورية عربية ! . وهذا

المعنى قد أكده نوبار باشا فى مذكراته الخاصة ، باعتباره كان المترجم الشخصى لمحمد على .

وعلى إثر هذا الفشل .. استسلم محمد على للأمر الواقع .. وقَبِلَ هو وأولاده وأحفاده أن يظلوا تابعين للامبراطورية الأم ، وهى الامبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت ، وبالتالى ظل ـ أيضاً ـ لقبه الرسمى هو « والى مصر » .

وفى عام ١٨٤٨ ، وفى حياة الوالى الكبير محمد على .. تولى ابنه الأكبر إبراهيم باشا حكم مصر .. بناء على فرمان أو أمر سلطانى من الباب العالى فى مدينة الآستانة عاصمة الامبراطورية العثمانية صدر فى مارس عام ١٨٤٨ نظراً لمرض والده .. وكان عليه ـ أيضاً ـ أن يُسلم بالأمر الواقع الذى آل إليه فى حياة أبيه الوالى الكبير ، وأن يقبل لقب « والى مصر » .. ما دام لا يزال فى نطاق تبعية الامبراطورية العثمانية وسلاطينها فى تركيا .

ولحسن الحظ أو لسوئه .. لم يعمر إبراهيم باشا أو والى مصر الجديد سوى سبعة أشهر ونصف حيث توفى بعد ذلك وهو لم يتجاوز الستين من عمره .. ويذكر المؤرِّخُون أن الوالى إبراهيم باشا مات فى حياة أبيه الوالى الكبير .

وبعد رحيل والى مصر الثانى .. تولى بعده الولاية والحكم الوالى عباس حلمى الأول ابن أحمد طوسون باشا ابن محمد على باشا الكبير فى الثالث عشر من يوليو عام ١٨٤٨ ، وقد ظل فى منصبه قرابة خمس سنوات حتى اغتيل فى قصره بمدينة بنها فى يوليو عام ١٨٥٤ . ويقول المؤرخون : إن الوالى الثالث فى حكم مصر .. من عائلة محمد على باشا الكبير لم يضف أى شئ لا لمصر ولا لحياته الخاصة .. وبالتالى فقد قنع هو الآخر بما أنعم عليه السلطان العثمانى بلقب والى مصر .

ونفس الشئ تَقَبَّلَهُ منِ جاء بعده من أسرة محمد على وهو الوالى محمد سعيد باشا ابن محمد على وأخو الوالى إبراهيم باشا .. وقد تولى هذا الرجل

الحكم أو الولاية فى الرابع عشر من يوليو عام ١٨٥٤ وظل بها حتى الثامن عشر من يناير عام ١٨٦٣ على إثر وفاته .

أما فى عام ١٨٦٣ فقد تولى أحد أبناء الوالى إبراهيم باشا بن محمد على ولاية مصر ، وهو الوالى إسماعيل أو الخديوى إسماعيل فيما بعد ، والذى ظل فى حكم مصر قرابة ستة عشر عاماً بعد أن عزله السلطان التركى عبد الحميد الثانى بضغط من انجلترا وفرنسا فى عام ١٨٧٩ .

ولم يتوقف حكم أسرة محمد على عند الخديوى إسماعيل .. بل امتد كى يشمل حكم اثنين من أحفاده حمل كل منهما لقب « خديوى » .. بدلاً من لقب « والى » بعد ما نجح إسماعيل فى إقناع الباب العالى التركى بذلك التغيير ، وهما الخديوى توفيق بن إسماعيل باشا ابن إبراهيم بن محمد على باشا ، وقد تولى منصب الخديوية من السادس والعشرين من يونيه عام ١٨٧٩ حتى السابع من يناير عام ١٨٩٢ .. ثم تولى المنصب من بعده ابنه الخديوى عباس حلمى الثانى فى الفترة من يناير ١٨٩٢ وحتى سبتمبر عام ١٩١٤ .

وبخلع الخديوى عباس حلمى الثانى من خديوية مصر .. توقف عنده هذا اللقب ، وتغير إلى لقب سلطان ثم لقب ملك .. لأنه بعد أن فرضت بريطانيا الحماية على مصر فى الثامن عشر من ديسمبر عام ١٩١٤ لقيام الحرب بينها وبين تركيا والامبراطورية العثمانية .. وبعد أن نجحت فى خلع وعزل إسماعيل حلمى الثانى .. اختارت الحكومة البريطانية الأمير حسين كامل ابن الخديوى عباس كى يكون حاكماً على مصر تحت لقب « السلطان » .. وبذلك تساوت مصر فى هذا الأمر فقط مع الدول العظمى .. وتحولت تحت راية هذا الاسم من مجرد ولاية .. إلى دولة عظمى .. يلقب حاكمها بالسلطان .

ولم يتوقف الأمر عند حد تغيير اللقب بل تعداه إلى ضرورة تغيير حياة الحاكم كى تتلاءم مع وضعه الجديد فى ظل الحماية البريطانية .. وأيضاً فى ظل لقب « السلطان » وكان لابد لهذا التغيير أن يصيب أيضاً حياة الأمير حسين كامل الشخصية سواء داخل جدران قصر عابدين أو خارجه .. ولا شك أن هذا التغيير الذى أحدثته بريطانيا قد امتد إلى قصر الحريم السلطانى .. وبناء عليه تغير أيضاً لقب زوجته إلى « سلطانة » .. بعدما كانت تحمل مثل غيرها من زوجات هؤلاء الحكام لقب « هانم » .

وعندما توفى السلطان المصرى حسين كامل فى التاسع من أكتوبر عام ١٩١٧ .. وبعد تنازل ابنه الوحيد الأمير كمال الدين حسين .. تم اختيار أخوه الأمير أحمد فؤاد ابن الخديوى إسماعيل كى يخلف السلطان حسين من قِبَل السلطات البريطانية . وقد ظل الأمير أحمد فؤاد يحمل لقب سلطان مصر حتى إعلان الاستقلال .. ومن ثم تغير لقبه إلى ملك مصر ! . هذا اللقب الذى حمله من بعده ابنه فاروق .. وكان بذلك آخر حكام أسرة محمد على باشا .

وأيضاً عندما تغير لقب حاكم مصر .. من مجرد سلطان .. إلى ملك .. فقد صحب هذا التغيير تغيراً آخر فى حياة هؤلاء الحكام خلف جدران قصورهم العالية .. وباتت زوجاتهم تحمل لقب « ملكة مصر » ، بدلاً من « سلطانة مصر » .

ونظراً لهذا الاختلاف الجوهرى فى الشكل فقط ، والذى شمل تغيير الألقاب من والى إلى خديوى إلى سلطان إلى ملك .. فقد خصصنا فصول الكتاب وأوراقها القادمة كما نتحدث من خلالها عن حريم هؤلاء وهؤلاء .

ولقد رأينا ضرورة تقديم هذا التوضيح حتى لا يتساءل من يأتى بعدنا .. عن السبب فى تخصيص فصل بكامل أوراقه للحديث عن حريم الوالى ثم

الخديوى ثم حريم السلطان والملك .. مع أنهم ـ جميعاً ـ من نسل محمد علي باشا الكبير .

وهناك نقطة هامة ترتبط ـ أيضاً ـ بهذا التوضيح .. وهى أن قبضة رجال القصر من الخدم والعسس والأغوات الذين كانت مهمتهم مراقبة قصر الحريم قد خفت .. بل وتلاشت مع الأيام .. وأيضاً مع تغير اللقب الخاص بالحاكم .

لقد شهدت الأيام التى تلت تغيير لقب حاكم مصر من والٍ إلى خديوى إلى سلطان .. تطوراً هاما داخل قصور حريم السلطان بل وخارجه ، هذا التطور كان من المؤكد نتيجة لتطور الحياة الاجتماعية داخل المجتمع المصرى ذاته ، والذى أدى فى نهايته إلى خروج المرأة من قفص حريم الرجل ، وليس من حريم السلطان فقط .

لقد شهد عصر الخديوى إسماعيل ثم السلطان حسين كامل ومن بعدهما الملك فؤاد والملك فاروق خروج السلطانة أو الملكة أو الأميرة إلى الحياة العامة .. بل والمشاركة فى هذه الحياة .. ويكفينا دليلاً على ذلك .. السماح بنشر صور هؤلاء الحريم فى الصحف .. بل وإجراء الأحاديث والمقابلات الصحفية معهم وهو ما لم يكن يحدث حتى أيام الخديوى توفيق .

كما شهدت نفس الفترة دخول بنات عامة الشعب وبنات الوصيفات إلى مخادع الملوك ، ليس على سبيل البيع أو الشراء مثلما كان يحدث مع غيرهن من الجوارى .. بل على سبيل الفوز بلقب الملكة بعد الاقتران بالحاكم ، وهو ما أسميناه من قبل « الحريم الشرعى » .

* * *

ولعلنا بعد هذا التوضيح .. ننطلق للحديث عن زوجات سبعة من حكام مصر .. تلقب أربعة منهم بلقب والى مصر هم : محمد على وإبراهيم وعباس

حـلمى الأول وأخـيراً محـمـد سـعيد باشـا ، وتلقب الـثلاثة الباقـون بلقـب « خديوى » وهـم : إسمـاعيل وتوفيق ، وأخيراً عباس حلمى الثانى .. وكـما سبق وذكرنا فإن عدد الحريم الشرعى لهؤلاء الحكام بلغ خمساً وأربعين زوجة ، استأثر مؤسس الأسرة المالكة فى مصر ، وهو محمد على باشا الكبير بتسعة وعـشرين زوجـة فـقط !! . وهذا الرقم هو المدون فى الوثائق الرسمـية ، وهناك بعض المـؤرخين الـذين يرون أن محـمـد على قـد تزوج أكـثـر من هذا الرقم بكثير .. وقد لوحظ أن السجـلات الـرسمية كانت تذكـر الزيجات الشـرعية تحت اسـم . زوجـات الوالى ، أمـا مَنْ عـداهن من زوجـات فكان التـدوين يتم تحت مسمى « مستولدات » !! . أما جملة ما أنجبه محمد على ثلاثون طفلاً منهم سبعة عشر ذكراً و ثلاثة عشر بنتاً .

أما ابنه الكبير إبراهيم فقد تزوج واستولد من ستة نساء وأنجب من أربعة منهن فقط أربعة ذكور هم : الأمير محمد ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير إسمـاعيل والأمير مصطفى بهجت ، كما أنجب بخلاف ذلك بنتين همـا : الأميرة أمينة والأميرة فاطمة .

ولسـوف نلاحظ أن عـدد حريم هؤلاء الحكام قـد بدأ يتناقص .. بدءاً من الوالى عباس حلمى الأول الذى تزوج خمسة نساء فقط ، وأنجب منهن ثلاثة ذكور وبنتين هـم : الأمير إبراهيم إلهامى باشا ، والأمير مصطفى ، والأمير محمد صديق .. أما الأميرات فهن : الأميرة حواء ، والأميرة عائشة صديقة ، ثم الوالى سعيد باشا الذى تزوج زوجتين فقط .. وقد رُزِقَ من زوجته الثانية بولدين هما : الأمير محمد طوسون باشا ، والأمير محمود .

ولكن حين تولى الخديوى إسماعيل حكم مصر .. أعاد أمجاد والده وجده الأكبر فى حب اقتناء الزوجات والحريم ، فقد وصل عدد حريمه الخاص أربعة

عشر امرأة ، أنجب منهن ثمانية أمراء هم : فؤاد ، وتوفيق ، وحسين كامل ، وحسن باشا ، والأمير إبراهيم حلمى والأمير محمود حمدى ، والأمير رشيد ، وأخيراً الأمير على جمال ، كما أنجب بخلاف هؤلاء خمس أميرات هُنّ : الأميرة زينب هانم ، والأميرة توحيدة أو تفيدة ، والأميرة جميلة ، والأميرة أمينة ، والأمير نعمت .

ثم يبدأ مؤشر اقتناء الحريم السلطانى فى التراجع من جديد أيام حكم الخديوى توفيق الذى تزوج من امرأة واحدة ، وأنجب منها ولدين هما الخديوى عباس حلمى الثانى ، والأمير محمد على باشا .. كما أنجب من هذه الزوجة ثلاث أميرات هن : الأميرة « نازلى » هانم ، والأميرة خديجة ، والأميرة نعمة الله .

كما تزوج ابنه عباس حلمى الثانى من زوجتين فقط .. رُزِقَ من الأولى بخمسة أطفال ولدين هما : الأمير محمد عبد المنعم ، والأمير محمد عبد القادر .. كما رُزِقَ أيضاً بثلاث أميرات هن : الأميرة أمينة والأميرة عطية الله ثم الأميرة فتحية .

وبعد هذا الإيجاز .. علينا من الآن الانتقال إلى التفصيل .. والحديث الممزوج برائحة العطر وصيحات القيان .. عن حريم الوالى ثم نتبعه بحديث آخر .. ولكن فى قصور الخديوى .

● حريم محمد على باشا :

حين عثرت على أسماء حريم الوالى محمد على وأولاده وأحفاده ، وعدد هؤلاء الحريم وموطنهم .. بل وأسماء أولادهن الذكور والإناث ، وكأنما قد عثرت على كنز سليمان .. لأننى مع طول البحث سواء فى أوراق التاريخ الصفراء أو فى أوراق المؤرخين قد لاحظت إغفالاً كاملاً لذكر هؤلاء وهؤلاء ،

ولا أعرف هل السبب فى ذلك يرجع إلى نقص مصادر المعلومات .. أم هذا الإهمال جاء متعمّداً ؟!.. ونحن لا نظن فى المؤرخ المحايد الذى لاهَمّ له سوى تسجيل التاريخ وأحداثه ووقائعه .. هذا التعمد فى الإهمال .. وبالتالى فربما يكون السبب عدم توافر مثل هذه المعلومات التى ظلت حتى سنوات قريبة حبيسة الخزائن والصدور ، وقلما وجدت عن حريم الوالى أو زوجاته كلمة واحدة أو عبارة تدل على وجودهن بيننا ، وكما سبق وذكرت فإن هذا الستار الحديدى بدأ ينحسر رويداً رويداً عن حياة هؤلاء الحريم خلف الجدران العالية ، وقد صاَحَب ذلك بعض التطورات الاجتماعية داخل المجتمع المصرى نفسه ، ومع ذلك فإن كل ما قيل عن هؤلاء الحريم .. كان من النّزر اليسير الذى لا يغنى العلماء فى أبحاثهم أو يعين المؤرخين فى تسجيلهم لوقائع التاريخ .

مثل هذه الحقيقة واجهت كاتب هذه السطور .. حين أراد أن يعيش بكيانه وبقلمه خلف قصور الوالى والخديوى .. لا ليسجل فقط أسماء الحريم وأولادهن .. بل ويسجل حياتهن ومعيشتهن وأحوالهن .. خاصة بعدما اكتشف أن جميع مفكرى هذه العصور ، وحتى الذين كانوا على مقربة من الوالى أو الخديوى لم يشيروا إلى هؤلاء الحريم من قريب أو من بعيد .

ولسنا فى حاجة إلى إعادة ما ذكرناه من أن هؤلاء المفكرين قد شغلوا أنفسهم ـ فقط ـ بحريم الرجال .. أو « الحريم الشعبى » .. دون غيره ! . لذلك كنا بالكاد نعثر على جملة أو عبارة فى كتاب يضم ألف صفحة عن حريم هؤلاء الحكام .. فقد كُنّ فعلاً حريماً بالمعنى الصحيح للكلمة فى اللغة ، وفى الواقع .. لذلك كان الويل كل الويل لمن تسوّل له نفسه من هؤلاء المقرّبين ويذكر حريم الوالى سواء بالخير أو بالشر ، ولم يكن ذلك متاحاً إلا بعد وفاة ذلك الوالى بعشرات السنين .. بل واندثار آثاره من ورثته من أهل الحكم .

ولـذلك رأينا من واجـبنا الاقتراب من شخصية هذا الوالى أو ذاك .. نقلب فى تاريخـه ، ونرجـع إلى كل ما كُتِبَ عنه خـاصة ممـا ذكـره بعض المقربين إليه من النظار أو الندمـاء .

والبداية على هذا الطريق .. كانت بالنسبة لمحمد على باشا ، الذى نعتبره مؤسس الأسرة الملكية فى مصر والتى استمرت قرابة ـ ١٤٥ عاماً ـ حيث بدأت من عـام ١٨٠٥ على إثر الفـرمان السلطانى باختـيار محـمد على والياً على مصر نزولاً على رغبة أهل البلاد وحتى التنازل عن ذات العرش عام ١٩٥٢ . ورحيل آخـر أحفـاده عن مصر .

* * *

لقد ولـد محمد على إبراهيم أغا .. وهـذا اسمه بالكامـل مـا بين عـامى ١٧٦٩ ، و ١٧٧٠م . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد التاريخ بالضبط لعدم وجود ما يرجع إليه فى هذا الصدد[١] . وكـان مولده فى « قـولة » المطلة على بحر إيجة باليونان ، وعلى ربوة عالية تشرف على البحر تقع دار « جنتكمان » التى ولد بهـا « محـمد على باشا » ، وكـانت هذه الدار تنقسم إلى قسـمين : الأول للرجال ، والثانى للحريم ، قسـم الرجـال أو « السـلاملك الرجـالى » : به سلم يؤدى إلى الدور الأول .. أمـا القـسم الآخر وهو « الحـرملك » : فكان يتكون من حجرتين بالدور الأرضى يتوسطهما فناء به سلم خاص للحريم وثلاث حجرات نوم بالـدور الأول منهـما الحجرة التى ولـد بها محمد على وتطل على الطريق المـؤدى إلى البحـر ، ولا زالت ـ إلى الآن ـ كـمـا هى بما فيـهـا من أثـاث ومعـدات للتدفئة[٢] .

وطراز هذا البيت تركى ، وقد نقله محـمد على إلى وادى النيل فطبع به سراى رأس التين الصيفية التى بناها بالإسكندرية .

(١) محمد على ـ حسين كفافى .

(٢) المصدر السابق .

وكان والد محمدعلى يُدعى « إبراهيم أغا » .. ويعمل رئيساً للحرس الخاص بحراسة الطرق ، وقد رُزِقَ هذا الشيخ بسبعة عشر ولداً ماتوا جميعاً إلا أصغرهم محمد على .. وهو اسم مركَّب . ثم مات أبوه وهو فى العقد السابع من عمره فكفله عمه « طوسون أغا » الذى ألحقه بالعمل معه فى الجيش العثمانى وحراسة الحدود ، وقد تدرج محمد على فى سلك العسكرية من ضابط بالجيش السلطانى العثمانى .. ثم ضابطاً بالأسطول العثمانى ، ولم يغادر قريته « قولة » إلا وهو برتبة صاغ ، فى نفس الجيش الذى توجه إلى الإسكندرية لمحاربة الأسطول الفرنسى بقيادة نابليون بونابرت .

وعلى إثر جلاء الفرنسيين ذهب « حسين قبطان باشا » قائد الأسطول العثمانى فى البحر الأبيض إلى « خسرو باشا » والى مصر حينذاك وقدم إليه محمد على مُثنياً عليه لكفاءته وبما أبداه فى معركة الرحمانية من شجاعة وفدائية فى منازلة الفرنسيين وأخبره أنه يعتمد عليه[1] . وبالتالى تم ترقية محمد على إلى رتبة « قائم مقام » قول أغاس .. وهى الرتبة التى تعادل رتبة « عقيد » الآن ، ولم يكن عمره آنذاك قد تعدى الثلاثين عاماً ، ومن يومها ظل محمد على فى مصر حتى تولى حكم البلاد .

وعلاقة محمد على « بالحريم السلطانى » .. قد بدأت من قبل أن يأتى إلى مصر فقد عاش هو نفسه فى ظل بيوت الحريم .. وإن كان من النوع الشعبى ، وسبق لنا وأن وصفنا المنزل الذى عاش فيه فى قريته باليونان ، ولما كان والده الشيخ « إبراهيم أغا » قد تزوج من امرأة واحدة إلا أنه قد أنجب منها سبعة عشر طفلاً .. لذلك نجد أن محمد على قد سلك نفس طريق والده فى مجال التعامل مع الحريم ، حين أقدم على الزواج لأول مرة وهو فى سن العشرين من عمره ، ولم يكن قد ترك قريته بعد .. ولسوف نترك التاريخ يحكى

(١) محمد على ـ كريم ثابت .

لنا قصة زواج محمد على لأول مرة .. ومن بعدها نتحدث عن زوجاته .. بل وعدد حريمه الخاص .

كان حاكم قولة .. صديقاً لوالده إبراهيم أغا ، عندما كان الأخير رئيساً لحرس الطرق بالمنطقة وكما أن محمد على قد وطدت علاقته مع نفس الحاكم بعدما أصبح محمد على ضابطاً فى الأسطول العثمانى برتبة ملازم أول ، وبعد موت عمه « طوسون أغا » .. لذلك تزوج محمد على من ابنة حاكم قولة ولم يكن قد تجاوز عمره العشرين عاماً ! ، وذلك كعادة أهل ديار الإسلام فى السلطنة حينذاك ؛ حيث كانوا يتزوجون وهم صغار السن للمحافظة على أنفسهم وعلى دينهم ، وفى رواية أخرى لكريم ثابت قال : إن حاكم قولة زوّج محمد على من ابنة أحد أصدقائه ، ومن هذا الزواج المبكر أنجب محمد على أول أولاده ، فى نفس المنزل الذى وُلِدَ به هو . كما رُزِقَ كذلك من نفس الزوجة بابنة توفيت فى ريعان الشباب ، ثم رُزِقَ بعد ذلك بالطفل إبراهيم فى عام ١٧٨٩ ، ثم بالطفل « طوسون » الذى أسماه على اسم عمه ، ثم بالطفل إسماعيل ، وبعدها رزقه الله بابنته نازلى هانم ، وقد رُزِقَ محمد على بخمسة وثلاثين طفلاً خلال حياته سواء فى قريته اليونانية أو فى مصر المحروسة من عدة زوجات ، وكان أصغر هؤلاء الأولاد ابنه سعيد باشا الذى تولى حكم مصر بعد عباس حلمى الأول ابن طوسون باشا ابن محمد على .

هذا ما قالته كُتب التاريخ ، وسجله المؤرخون عن زواج محمد على باشا .. أما ما ذكرته الأوراق الرسمية فقد وجدنا فيها تفاصيل أكثر عن هذا الحريم وقد عثرنا فى هذه الأوراق على أسماء أكثر من عشرة نساء تزوجهم محمد على طوال حياته .. نذكرهم كالتالى :

* * أمينـة هـــانم :

وهى ابنة على باشا الشهـيد « بمصرلى » من أهالى قرية نصرتلى التابعة لأعمال اليونان ، حضرت إلى مصر فى عام ١٨٠٨ أى بعد تولى محمد على حكم مصر بثلاث سنوات ، وتقول نفس الوثائق التاريخية عن تلك المرأة : إنه فى عام ١٨١٤ ميـلادية ـ ١٢٢٩ هجرية ، وفى شهـر رمضان من هذه السنة سافـرت « أمينة هـانم » إلى بلاد الحجـاز لأداء فـريضـة الحج ، وهناك نزلت بجدة ومنها سافرت إلى مكة المكرمة ، وكان تبعها ٥٠٠ جمل تحمل خدمها ومتاعها ، وفى مِنـىً التقت بزوجها محمد على ونظراً لما كانت عليه من أبهة ولجلال موكبها وعظمة الحرس الذى كان يحيط بها ، وفخامة الخيمة التى أقامت بها أطلق عليها أهل الحجاز اسم « ملكه النيل » .

وقد توفيت بالقاهرة فى عام ١٨٢٤ .. حيث مكثت بمصر ستة عشر عاماً .. ودُفنت فى المدفن الكبير بالإمام الشافعى ، وقد رُزِقَ محمد على باشا منها أولاد .. ثلاثة ذكور وبنتين . هم : الأمير إبراهيم باشا الذى ولد عام ١٧٨٩ ، والأمير أحمـد طوسـون باشـا عـام ١٧٩٣ ، والأمير إسماعيل كامـل باشـا فى عام ١٧٩٥ ، وقد رُزِقَ بهم محمد على جميعاً وهو لا يزال يقيم فى قريته « قولة » اليونانية .

أما بناته فهن : الأميرة توحيدة هانم وولـدت عـام ١٧٩٧ ، وكانت زوجة لمحـرم بك الـذى عيَّنه محمد على حاكمـاً للجيزة ثم محافظـاً للإسكندرية ثم أميراً للأسطول المصرى ، وقـد سمى باسمه الحى المعروف الآن بالإسكندرية وهـو حى « محـرم بك » . ثم الأمـيـرة « نازلى هـانم » التى ولـدت عـام ١٧٩٩ ، وهى زوجة محمد بك الدفتردار قائد حملة محمد على للسـودان .

* * ماه دوران هانم « أو قمش قادين » :

وتقول نفس الوثائق : إن محمد على لم ينجب من هذه المرأة ، وقد توفيت فى عام ١٨٨٠ ، ودُفنت بمدافن والدة الأمير محمد على باشا بشارع ابن الفارض بالقاهرة ، وكانت تملك وقفاً بلغت مساحته ١٣ ألف فدان بالجيزة والمنيا والقليوبية والبحيرة .

* * أم نعمان بك :

وقد رُزِقَ منها بالأمير نعمان ، وقد توفيت بالقاهرة عام ١٨١٦ ودُفنت بالمدفن الكبير بالإمام الشافعى ، ولم تذكر لنا الوثائق التاريخية متى وكيف تزوجها محمد على ، وهل كانت جارية . أم امرأة من نساء الحكام والأغوات ! .

* * عين الحياة قادين :

تقول الوثائق التاريخية : إن هذه السيدة توفيت بمدينة الإسكندرية بقصر رأس التين عام ١٨٤٩ ودُفنت بحى النبى دانيال ، وقد رُزِقَ منها محمد على بابنه محمد سعيد (والى مصر فيما بعد) عام ١٨٣٢ وقد توفى سعيد باشا بالإسكندية أيضاً فى ١٨ يناير عام ١٨٦٣ .. ودُفن بجوار والدته بحى النبى دانيال بالصالة الكبيرة .

* * ممتاز قادين :

أنجب منها محمد على ابنه الأمير حسين عام ١٨٢٥ ، وقد توفى فى باريس عام ١٨٤٧ ودُفن كذلك بحى النبى دانيال بالإسكندرية بالصالة الكبرى .. أما أمه ممتاز قادين فقد توفيت من بعده عام ١٨٦٨ ، ولكنها دُفنت بالقاهرة .

وتذكر لنا تلك الوثائق أيضاً أن هـذه السـيدة كـانت تمتلك أكثر من ٣٥ ألف فدان بنواحي درين والمنشأة الكبرى بمحافظة الغربية بوسط الدلتا .. وقد خُصصتا جميعاً لأموال الوقف لها ولابنها الأمير حسين .

** مـاهوش قـادين :

توفيت بالقاهرة عام ١٨٥٦ ، ودُفنت بمدفن الأمير محمد عبد الحليم بالإمـام الشـافعي ، وقـد رُزقَ منهـا محـمـد علي بالأمـير علي صـديق بك عـام ١٨٢٨ ، والذي توفي عـام ١٨٣٦ .

** نام شـاز قـادين :

توفيت هذه المرأة في عام ١٨٦٩ .. أي بعد رحيل محمد على بأكثر من عشرين عاماً . وقد دُفنت الأخرى بمدفن الأمير محمد عبد الحليم بالإمام الشافعي ، وهو الابن الذي أنجبه منها الوالي محمد علي عام ١٨٣١ .. هذا الابن توفي عام ١٨٩٤ ودُفن بمدينة الآستانة في مدافن السلطان محمود .

** زبيـدة خـديجة قـادين :

أنجب منها محمد على ابنه الأمير محمد باشا الصغير عام ١٨٣٣ ، وقد توفي أيضاً بالآستانة عاصمة الامبراطورية العثمانية في ذلك الوقت ودُفن هناك بمسجد أبي أيوب الأنصاري عام ١٨٦١ . أما والدته زبيدة قادين فقد لحقت به ورحلت عام ١٨٧٨ ، ودُفنت بمدفنها بشارع ابن الفارض بالقاهرة .

** شمس صـفا قـادين :

توفيت عام ١٨٤٦ ، وبعد ثلاث سنوات لحق بها محمد علي ، وكان قد أنجب منها أميرتين هما : الأميرة فاطمة هـانم التي توفيت عام ١٨٢٢ ودُفنت بحي النبي دانيال بالإسكندرية ، والأميرة رقية هـانم التي توفيت عـام ١٨١٤ ودُفنت بالمـدفن الكبير بالإمـام الشـافعي .

** شمس نور قادين :

رُزِقَ منها محمد على بالأميرة زينب هانم عام ١٨٢٥ ، وقد توفيت بالآستانة عام ١٨٨٤ . وهى زوجة يوسف باشا كامل الصدر الأعظم بالامبراطورية العثمانية . وتقول الوثائق التاريخية عن هذه السيدة : إنها كانت تملك ٥ آلاف فدان ، وهى صاحبة وقف « تفتيش صبيح » .. كما كانت تملك أيضاً مساحة ١٠٢٠٠ فدان والذى عُرِف باسم وقف شاوه المشهور الذى أُقيم عليه فندق شبرد وما حوله .

** نايلة قادين :

ولم نعثر لها على معلومات فى وثائق التاريخ سوى سطراً واحداً تقول : كلماته : « لم يُرزَقْ منها بأولاد » .

** جلفدان قادين :

أيضاً لم يُرزق منها بأولاد ، ولكن الوثائق التاريخية تقول إنها توفيت بالقاهرة عام ١٨١٣ ودُفنت بملحق المدفن الكبير بالإمام الشافعى .

** قمر قادين :

لم يُرزق منها محمد على أولاداً .. وتوفيت بالقاهرة عام ١٨٦٨ ، ودفنت بمدفن الأمير محمد عبد الحليم بالإمام الشافعى .

وفى نهاية الوثيقة التاريخية التى حملت إلينا أسماء زوجات وحريم الوالى محمد على باشا نقرأ هذه العبارة التى تحمل إلينا دلالات كثيرة : « وكان لمحمد على باشا ـ رحمه الله ـ مستولدات أُخريات كثيرات ، ولم تحفظ لنا الوثائق الرسمية أسماءهن ، وإنما حفظت لنا أسماء أولادهن : مثل الأمير جعفر بك ، وأميرين باسم إسكندر بك ، وأميرين باسم حليم بك وأميرين باسم

عبد الحليم بك والأمير محمود ، وأميرتين باسم رقية هانم ، والأميرة عائشة هانم ، والأميرة « زليخة هانم » ، وثلاث أميرات باسم زينب هانم » .

ويرجح بعض المؤرخين أن حريم محمد على قد شاهدن مذبحة القلعة من خلف المشربيات والفتحات السرية التى كانت موجودة داخل الحرملك .. فقد ذكر أحدهم تأكيداً على رؤيته أن أحد المماليك الذين تعرضوا لتلك المذبحة وهو سليمان بك البواب استطاع بعد تسلقه الجدران أن يصل إلى باب الحريم مستغيثاً ، والعادة كانت فى ذلك الوقت تقتضى أن من استنجد بالحريم لابد من نجدته ، ولكن من الذى كان سينجده من العساكر الألبان !؟ .

● حريم الوالى إبراهيم باشا :

وأيضاً كان علينا أن نعيش ولو للحظات قليلة بالقرب من شخصية الوالى الثانى لمصر .. فى سلسلة الولاة والسلاطين والملوك الذين تعاقبوا على عرش مصر من أسرة محمد على .. وفى بداية الأمر لجأنا إلى حديث المؤرخين الذين سجلوا لنا باليوم والشهر والسنة تولى إبراهيم باشا حكم مصر خلفاً لوالده محمد على ونظراً لمرض الأخير فقد تولى إبراهم باشا حكم مصر بفرمان من الباب العالى فى مارس عام ١٨٤٨ ، ولكنه لم يعمر فوق العرش وعلى الأرض أكثر من سبعة أشهر ونصف بعد ذلك .. وقد توفى عن عمر يناهز الستين من عمره[١] .

وإذا ما تركنا حديث الأوراق الرسمية لمزيد من المعلومات عن ذلك الحاكم الذى من المؤكد سوف يؤثر ويتأثر بأحواله ومرضه ، ويفيض ذلك على حريمه .. أقول : إذا ما تركنا حديث الأوراق الرسمية .. ولجأنا لحديث الذكريات والمذكرات .. لاكتشفنا تصويراً دقيقاً لحالة ذلك الحاكم ، وجهوده لنيل حكم مصر رغم أن والده الكبير كان ـ ولا يزال ـ يعيش بجواره .

(١) حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم ـ د . ناصر الأنصارى .

يقول نوبار باشا فى مذكراته عن الوالى إبراهيم باشا والتى علق عليها الكاتب الصحفى نبيل زكى » : « كابدت مصاعب جمة فى مرافقتى لإبراهيم بعد أن نجح فى إقناع أبيه محمد على بضرورة نقلى لأيعمل معه سكرتيراً خاصاً .. فرغم رجاحة عقل هذا الرجل الكبير ؛ إلا أنه كان يصعب فى بعض اللحظات مجرد الاقتراب منه بسبب انفعالاته الحادة .

وفى أواخر عام ١٨٤٧ يسافر إبراهيم إلى إيطاليا للاستشفاء ، وهناك كان دائم السؤال عن أخبار والده الذى كان يعانى ــ هو الآخر ــ من تدهور فى صحته ، وبعد عودة إبراهيم من إيطاليا أُصيب أبوه الوالى الكبير محمد على باضطراب عقلى ، وأصبح يخفى عجزه عن تجميع أفكاره عن طريق التزام الصمت لفترات طويلة .. غير أنه يظل يحتفظ بمظهره « السامى » ويتخذ جلسته المعهودة متربعاً على أريكته فى قصره بشبرا » .

ويضيف « نوبار » قوله عن أحوال الوالى إبراهيم باشا : « لم تعد طباع إبراهيم تتسم بالحدة البالغة فحسب ، بل أُصبحت تنتابه انفجارات غضب مرعبة ، كما لم يكن ينام الليل .. وإذا نام فإن نومه لا يدوم سوى لفترات متقطعة ! .

وحين سافر محمد على إلى نابولى ودخل الحجر الصحى هناك عام ١٨٤٨ . قرر إبراهيم السفر إلى تركيا كى يحصل من الآستانة على فرمان بتوليه الحكم » .

وهناك ــ وكما يقول نوبار باشا ــ .. كان السلطان العثمانى يتردد فى منحه الولاية لسببين **الأول** : أنه كان يخشى أن يثير إبراهيم متاعب جديدة للامبراطورية العثمانية ، **وثانياً** : أن والده لا يزال على قيد الحياة ؛ لذلك هناك من اقترحوا على إبراهيم تولى القيادة العامة العسكرية لمصر فرفض ، وقد حدث شئ مفاجئ أدى إلى تحول الموقف كله فى الآستانة .. لحسن حظ إبراهيم أن

كبير المنجمين فى البلاط العثمانى الامبراطورى أعلن بعد التشاور مع النجوم أن إبراهيم سيموت بعد مضى ستة أشهر !! . ومن ثم وافق السلطان العثمانى على تولية إبراهيم والياً على مصر طبقاً لفرمان عام ١٨٤١ ، وتقرر الاستغناء عن الحفل التقليدى فى مثل هذه الأحوال .

وبجانب هذه الشهادة التى ذكرها « نوبار باشا » فى مذكراته عن الوالى إبراهيم باشا .. فقد صور لنا آخر لحظات فى حياة ذلك الحاكم ، وكيف استقبل حريمه ذلك الخبر .. ؟ .

يقول نوبار :

اقتربت النهاية ، ودامت آلام الاحتضار ثلاثة أيام .. كان الصراع خلالها مخفياً بين الحياة والموت .. إنه مشهد لا يبرح ذاكرتى أبداً .. لم يكن إبراهيم يستطيع أن يصدر صوتاً .. كانت شفتاه ـ فقط ـ تتحركان ، وكنت أنا وحدى الذى أفهم لغته الصامتة .

وطلبت من « نازلى هانم » شقيقة إبراهيم التى تحدثت معى من ثقب باب جناح الحريم أن ألتمس منه أن يأذن لابنه مصطفى بالمثول بين يديه ، ورفض إبراهيم فى البداية (بنظرة من عينيه) أن يمنح ذلك الإذن ، ثم وافق فى الساعة الأخيرة .

وبعد مرور نصف ساعة من منتصف ليلة الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٤٨ انطلقت صرخات جناح الحريم ، وجاء من يعلن النهاية أن الرجل الذى كان يخشاه الجميع اختفى من الوجود[١] .

أما هؤلاء الحريم اللاتى صرخن لرحيل إبراهيم باشا .. فكنّ بالترتيب الآتى :

(١) مذكرات نوبار ـ مصدر سابق .

** خديجة برنجك قادين :

رُزِقَ منها بابنه الأمير محمد بك عام ١٨١٤ ، وتوفى عام ١٨١٩ . أما والدته فقد توفيت هى الأخرى عام ١٨٧٠ . معنى ذلك .. أن زوجته الأولى قد عاشت بعد رحيله بأكثر من عشرين عاماً .

** شيوه كار قادين [شويكار] :

توفيت بمصر عام ١٨٦٤ ، ودُفنت بالإمام الشافعى ، وقد رُزِقَ منها بالأمير أحمد رفعت باشا عام ١٨٣٥ ، وقد توفى ـ هو الآخر ـ فى عام ١٨٥٨ فى حادث سقوط قطار السكة الحديد بكفر الزيات .

** خوشيار قادين :

توفيت فى مصر ودفنت بمسجد الرفاعى عام ١٨٨٦ ، وقد رُزِقَ منها الوالى إبراهيم باشا بالخديوى إسماعيل الذى ولد فى سراى المسافر خانة فى الثانى عشر من يناير عام ١٨٣٠ ، وتوفى فى سراى أمرجيان بالآستانة فى الثانى من مارس ١٨٩٥ ، ودفن أيضاً بمسجد الرفاعى .

** ألفت قادين :

توفيت فى مدينة استانبول عام ١٨٦٥ ، ودُفنت بمسجد السلطان أيوب وأنجب منها إبراهيم الأمير مصطفى بهجت فاضل الذى ولد فى القاهرة عام ١٨٣٠ ، وتوفى فى استانبول عام ١٨٧٥ . ثم نُقل رفاته إلى مصر عام ١٩٢٦ ، ودفن بالجامع المسمى باسمه بشارع « درب الجماميز » .

** كلزار قادين :

توفيت فى مصر فى أكتوبر عام ١٨٦٥ ، ولم يُرزق منها إبراهيم باشا أولاداً .

** سارة قادين :

وأيضاً توفيت فى مصر عام ١٨٧٠ ، وكذلك لم تنجب أولاداً .

وتختتم الوثيقة التاريخية عن حريم إبراهيم باشا بالقول : وكان للمغفور له إبراهيم باشا بنتان هما : الأميرة أمينة التى توفيت عام ١٨٢٩ ، والأميرة فاطمة التى ولدت عام ١٨٢٣ ، وتوفيت عام ١٨٣٢ وكلتاهما دفنتا فى الصالة الكبيرة بالإمام الشافعى ، ولعلهما رزقتا للوالى من كلزار قادين وحدها أو من سارة قادين وحدها أو منهما معاً .

● حريم عباس الأول :

ويبدو أن الحظ كان ـ ولا يزال ـ يمشى مع تحركات القلم الذى يسجل هذه اللقطات التاريخية سواء داخل قصور حريم الوالى أو داخل قصور الوالى نفسه . هذا الحظ هو الذى ساعد رجل مثل نوبار باشا كى يعيش كل عصور الولاة .. ينقل لنا ولهم خبرته وتجاربه من خلال معاملة متميزة أحياناً ، وقاسية أحايين أخرى ، لقد دفع به الحظ أن ينتقل من معية وخدمة الوالى إبراهيم باشا إلى ثلاث ولاة آخرين منهم عباس حلمى الأول .. وقد سجل لنا أحرج اللحظات فى حياة ذلك الرجل .. وكذلك ينقل إلينا صفاته الشخصية السرية والعلنية .. وأيضاً يحدثنا عن علاقاته بحريمه الخاص والعام .

يقول نوبار باشا عن الوالى الجديد :

رغم أن الفرمان الذى يمنح ورثة محمد على حق الولاية على مصر لم يفرض أن يتوجه الورثة إلى الآستانة لتلقى أمر تولى الحكم .. ولكن الظروف التى أجبرت إبراهيم على هذا السعى .. اضطرت عباس إلى أن يحذو حذو عمه بعد أن أصبح ما فعله إبراهيم سابقه فى هذا الخصوص ، ولكن الفارق كان واضحاً بين الحفاوة التى قوبل بها عباس والفتور الذى قوبل به إبراهيم .

وقد تولى عباس حلمى الأول حكم مصر فى نوفمبر عام ١٨٤٨ ، واستمر جالساً على أريكة الوالى حتى الثالث عشر من يوليو ١٨٥٤ ، معنى ذلك أنه قد قضى فى الحكم قرابة خمس سنوات ، حيث اغتيل فى قصره بمدينة بنها .

ويشير نوبار باشا فى مذكراته عن ذلك الوالى إلى اختلاف شخصيته وآرائه عن سابقيه ، فلم تكن لديه دوافعهم وطموحاتهم فى إقامة دولة حديثة ، لذلك اضمحل فى عهده الجيش والبحرية ، كما أغلقت العديد من المدارس والمعاهد ، بجانب ذلك كان هذا الوالى يميل إلى الحياة فى عزلة وكان كثيراً ما يردد « إننى لا أريد أن يتحول قصرى إلى نوع من المقهى .. ومكان للقاءات حيث يدخل المرء لكى يثرثر ؛ لأنه فى حالة فراغ ولا توجد لديه مشاغل أو أعمال » .

وقد سجل لنا « نوبار باشا » وصفاً دقيقاً لحياة القصر مقر حكم عباس باشا .. فكتب فى نفس المذكرات : كان عباس يجسد فى نظرى دائماً شخصية السلطان أو الأمير الشرقى الحقيقى ، فهو يعيش وحيداً فى عزلة ، ويهيمن بجبروته على أعمق أعماق قصره ، والجميع يطيعونه طاعة عمياء ، والقصر الذى شيده فى صحراء العباسية مؤثث بذوق رفيع .

وقد امتد الصمت الذى كان يسود قصره إلى مصر كلها وأصبح الجميع يتحدثون بصوت خافت . إنه خلال السنوات الأربع لولاية عباس : كانت مصر كلها تشبه هذا القصر .. لا أحد يختلط بأحد أو يصادق أحداً .. لقد عاش الناس فى حالة انطواء .. يتحاشون بعضهم البعض .

ولسوف نقترب اكثر من معرفة مدى علاقته بحريمه الخاص حين نقرأ هذه الكلمات التى سطرها « نوبار باشا » فى نفس هذه المذكرات .. « لقد أصدر « عباس » أوامره ذات يوم بحياكة شفتى إحدى نسائه ؛ لأنها مارست التدخين فى جناح الحريم .. مما يعنى أنها خالفت تعليماته » !! .

وبشكل عام تذكر لنا وثائق التاريخ الرسمية أن ذلك الوالى رغم هذا العنف الذى اتسم به قد تزوج من خمس نساء هُنَّ بالترتيب التالى :

** ماهوش قادين :

وأنجب منها الأمير إبراهيم إلهامى باشا .. توفيت فى مصر عام ١٨٨٩ ودُفنت بمدفن الأمير محمود باشا حمدى بالإمام الشافعى .

** شازرل قادين :

وهى امرأة شركسية اختارها عباس الأول زوجة له ، وقد رُزِقَ منها الأمير مصطفى ، والأميرة حواء .. وتذكر لنا نفس الوثيقة أنها كانت تملك وقفاً بمحافظة البحيرة للإنفاق على المترددين بالحرم المدنى الشريف .

** هواية قادين :

رُزِقَ منها بالأمير محمد صديق الذى توفى بالحجاز .. وكذلك الأميرة عائشة صديقة التى توفيت ١٨٥٤ ، ودُفنت بالإمام الشافعى ، أما زوجة الوالى فقد توفيت هى الأخرى فى عام ١٨٧٦ ودُفنت بمدافن العفيفى .

** همدام قادين :

توفيت بالقاهرة عام ١٨٥١ ودُفنت بمدافن الإمام الشافعى .

** برلانتك هانم :

وهى آخر زوجات الوالى عباس الأول .. وقد توفيت فى القاهرة فى أول نوفمبر عام ١٨٩٢ .

● حريم سعيد باشا :

يقول التاريخ : إن محمد سعيد باشا ثالث ولاة مصر الحديثة من أسرة محمد على .. تولى الحكم فى الرابع عشر يوليو عام ١٨٥٤ على إثر

وفاة ابن أخيه عباس الأول .. واستمر فى حكم مصر حتى الثامن عشر يناير عام ١٨٦٣[1] . وهى فترة بلغت تسع سنوات .

أما عن ملامح هذا الوالى الجديد وبعض صفاته الشخصية .. فقد سجلها لنا أيضاً « نوبار باشا » فى مذكراته .. فقد عاصر « محمد سعيد باشا » .

وجملة ما نستطيع أن نعرفه عن ذلك الوالى أنه كان شاباً يتصف بالاندفاع فى كل تصرفاته .. كما كان يحب أن يتلهى بتوافه الأمور .. لقد كان رجلاً طائشًا ورأسه فارغة .

ومنذ اللحظة التى دخل فيها إلى القاهرة فى حماية القناصل ووكلاء الدول الأجنبية فقد بدأت صفحة جديدة فى تاريخ مصر .. عنوانها البارز هو التدخل السافر فى شئون مصر .

نضيف إلى ذلك ما اتصف به الوالى محمد سعيد باشا من تبزير وإنفاق وتبديد لأموال الدولة ، الأمر الذى جعله يترك خزانة مصر خاوية .. مما اضطره للجوء إلى القروض الأجنبية التى وصلت فى عهده إلى عشرة ملايين جنيه لم تُستخدم فى أية مشروعات ذات نفع ، يكفى أنه قد أنفق على زخرفة حجرة فى أحد قصوره ٧ ملايين من الفرنكات ، كما ألح على ضرورة شراء ١٢ مرآة كبيرة لتزيين قصور حريمه ، كان ثمن الواحدة ٨٠ ألف فرنك .

أما عن صفاته الجسمانية فيقول عنها « نوبار باشا » : كان سعيد بديناً ضخم الجثة إلى حَدٍّ أن أباه الوالى محمد على الكبير قرر إلزامه بحضور أربعة عشر درساً فى اليوم الواحد ، والإكثار من جرعات الرياضة البدنية حتى ينقص وزنه . وكان والده محمد على يزنه كل إسبوع ، أكثر من ذلك يقول « نوبار »

---

(١) حكام مصر من الفراعنة حتى اليوم ـ مصدر سابق .

بالحـرف الواحـد : .. كانت جلسات تحضير الأرواح تشغل جـزءاً من وقت سعـيـد .. فـهــو يضع أمـامـه مـا يسـمى بالمـائدة أو الطاولة الـدائـرة التى تنقـل حـديث الأرواح .

وقد اشتهر سعيد باشا فى أوراق التاريخ بحبه للسفر خارج مصر والتجول فى أوربا لأشهر طويلة ، ويبدو أن ذلك كان السبب الرئيسى وراء إحجامه عن اقتناء الحـريم .. لأن الوثائق التاريخـيـة لم تذكـر لنا سوى اسمين لزوجتين للوالى همـا :

** إنجى هـانم :

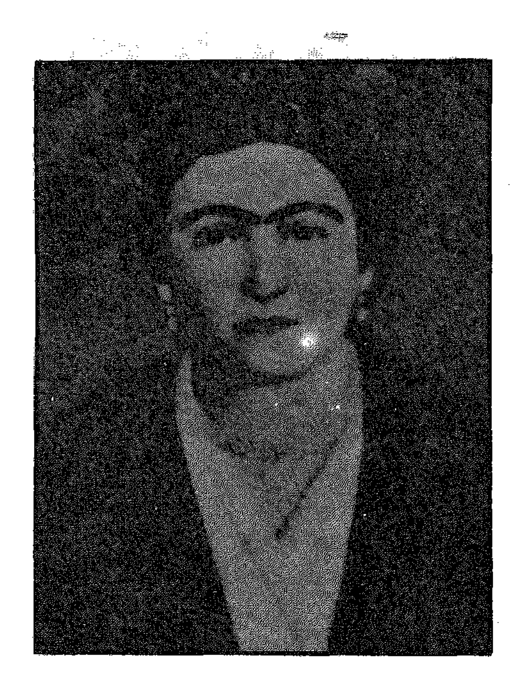
توفيت بالإسكندرية فى ٥ سبتمبر عام ١٨٩٠ ، ودُفنت بمدافن حى النبى دانيال ، وهى صاحبة وقف مشهور بالقرب من مدينة دمنهور بلغت مساحته ٤٨٧٠ فداناً .

** ملك بر هـانم :

وتوفـيت أيضاً فى الإسكندرية عـام ١٨٩٠ .. وبعـد شـهـر واحـد من وفـاة زوجته الأولى ، ودُفنت هناك بمدافن حى النبى دانيال . وقد رُزِقَ منها بولدين : الأمير « محـمـد طوسون » باشا الـذى وُلِدَ عام ١٨٥٣ وتوفى عام ١٨٧٦ ، والأمير محمود الذى توفى بالإسكندرية كذلك . فى عـام ١٨٤٦ .

* * *

ملحق صور الفصل الثاني



زبيدة هانم

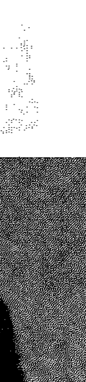
أشهر زوجات ولاة مصر من محمد علي إلى سعيد باشا



صورة زبيدة هانم زوجة محمد علي .



صورة إنجى هانم زوجة سعيد باشا .





صورة ملك بر هانم زوجة الأمير طوسون .

الفصل
الثالث

زوجات الخديوى

ليس معنى استبدال كلمة « حريم » بكلمة زوجات ـ حين الحديث عن عصر حكام مصر من الذين حملوا لقب « الخديوى » بدلاً من لقب « الوالى » ـ أن وضع المرأة المصرية داخل « الحريم الشعبى » أو الحريم الرسمى أو السلطانى قد تغير كثيراً عما كان عليه من قبل وطوال أكثر من ستين عاماً .

ولكن يبدو أن رياح التدخل الأجنبى الذى اتخذ صوراً عديدة ، منذ بداية حكم الوالى سعيد باشا ـ واستمراره حتى أيام خليفتيه إسماعيل وتوفيق ، والذى تطور من مجرد السيطرة المالية والاقتصادية إلى احتلال عسكرى قائم فعلاً ـ قد ترك آثاراً إيجابية إلى حدٍّ ما على وضع تلك المرأة داخل مجتمعها الصغير والكبير .

أضف إلى ذلك تلك البعثات العلمية والعسكرية التى استمرت لسنواتٍ طويلة تجوب أوربا وتحاول تطبيق ما لديهم عندنا ، وكما سبق وذكرنا من قبل فإن « الحريم الشعبى » كان أكثر استجابة لتلك التأثيرات من نظيره « الحريم السلطانى » . لذلك حين نبحث عن وضع المرأة ابتداء من عصر الوالى إسماعيل ثم توفيق .. نجد أنها بدأت بالفعل تتأثر حتى داخل القصور العالية ، وبطبيعة الحال وفى رأينا أن السبب الرئيسى وراء هذا التغيير .. لم يكن طبعاً البعثات التعليمية أو أفكار المصلحين المصريين بقدر ما كان بسبب ذلك الاختلاط السافر بين المصريين والأجانب ، ومحاولة الحكام المصريين تقليد هؤلاء المستعمرين حتى لا يتصفوا بالتخلف .

وكلنا يعرف أنه ابتداء من عصر إسماعيل .. قد حدث نوع من التدخل السافر في شئون مصر .. رغم أنه قد بدأ في صورة مشروعات اقتصادية ، وأشهرها كان ـ بطبيعة الحال ـ مشروع « قناة السويس » .

من ناحية أخرى اكتشفنا أن تجارة الرقيق والعبيد واقتناء الجوارى من الأسواق قد بدأت تختفى أو كانت في سبيلها إلى ذلك مما دعا حتى الولاة والحكام أن يبعدوا هذه الشبهة عن قصورهم ، رغم أنها بالفعل كانت موجودة . ونستطيع أن نقول : إن هذا السبب وغيره ـ من الأسباب الظاهرة والباطنة ـ كانت وراء اعتزاز الإنسان المصرى سواء داخل القصر أو خارجه بالمرأة الزوجة ، رغم أن هذه النظرة لم تغير من كونها إحدى حريمه الخاص ، وكل ما فى الأمر أن التسميات قد اختلفت كى توائم العصر الذى اتسم فى أوربا بحقوق الإنسان والبحث عن تلك الحقوق حتى ولو فى أدغال أفريقيا .

* * *

وبوصول الوالى إسماعيل باشا إلى حكم مصر عام ١٨٦٣ .. بدأت فعلاً حقبة جديدة من تاريخ الأسرة الملكية التى أسسها محمد على الكبير .. هذه الحقبة الزمنية قد اتسمت بعدة صفات وسمات : كان أبرزها بالنسبة للحاكم نفسه هو تغيير اللقب من « والى » إلى « خديوى » ؛ لأنه بعد نجاح إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا الكبير فى إقناع الباب العالى فى الآستانة بتغيير لقبه .. وأيضاً تغيير نظام الحكم بالوراثة فى أسرته وأسرة من يأتى من بعده قد وضع بداية جديدة لعصر جديد من حكم أسرة محمد على : يمكن أن نطلق عليه عصر الحكام « خديوى » بدلاً من الحكام « والى » .

هذه الحقبة التاريخية التى امتدت من عام ١٨٦٣ وحتى عام ١٨٩٢ ، شهدت حكم ثلاثة ولاة بدرجة « خديوى » .. هم إسماعيل وتوفيق وعباس

حلمى الثانى .. فى مقابل ما شهدته الحقبة التاريخية الأولى التى مثلها أربعة حكام من نفس أسرة محمد على أطلقوا على أنفسهم لقب « الوالى » ، وهم محمد على ، وإبراهيم باشا ، وعباس الأول ، ثم الوالى محمد سعيد .

وحين يتطرق الحديث عن حريم ذلك العصر وعددهم .. سواء داخل القصور أو خارجها نكتشف أن شهية الحكام الذين حملوا درجة «خديوى » قد تغيرت فيما يخص اقتناء هذا الصنف من النساء ، رغم أن الخديوى إسماعيل وطبقاً للوثائق الرسمية كانت لديه أربعة عشر زوجة ؛ إلا أنه ومع ذلك كان معروفاً داخل المجتمع المصرى بأن عدد زوجاته أربع نسوة فقط .. بخلاف علاقاته مع نساء أوربا من الحكام أو زوجاتهم . كما نكتشف فى المقابل أن إبنه الخديوى توفيق لم يكن له سوى زوجة واحدة .. ثم حفيده الخديوى عباس حلمى الثانى كانت له زوجتان إحداهما أجنبية .

وهذه النظرة ــ المتقدمة إلى حد ما ــ لوضع المرأة ، سواء داخل « الحريم الشعبى » أو « الحريم السلطانى » تتضح لنا أكثر حين يتم عمل مقارنة سريعة لعدد هؤلاء الحريم أيام عصر الولاة عنه فى أيام عصر الخديوى .

ولا شك أن الذين سوف يتصدون لعمل هذه المقارنة من الممكن أن يستعينوا بما سوف نذكره بعض لحظات عن حريم الخديوى أو زوجاته .. سواء من خلال ما عثرنا عليه من وثائق رسمية أو ما وجدناه فى كتب بعض الذين عاصروا هذه الفترة من تاريخ مصر ، ابتداء من عام ١٨٦٣ .

● زوجات الخديوى إسماعيل وحريمه :

ذكرت لنا الوثائق التاريخية ــ التى تم العثور عليها فى قصر عابدين ــ أن الخديوى إسماعيل الذى تولى حكم مصر فى التاسع عشر من يناير عام ١٨٦٣ حتى السادس والعشرين من يونيو عام ١٨٧٩ قد اقترن فى حياته بأربعة عشر

امرأة .. رغم أنه كان يحلو لمن حوله ترديد عبارة أن الخديوى لم يتزوج فقط سوى أربع نساء ! . ولن نستغرق كثيراً فى مناقشة صحة هذا القول من عدمه بل سوف نترك هذه الوثائق تتحدث عن تلك الزيجات بالترتيب الزمنى الذى سجل هذه الزيجات :

** فريال هانم :

ذكرت هذه الوثائق : أن الخديوى إسماعيل تزوج من هذه السيدة ، وقد أنجب منها الأمير أحمد فؤاد ـ الملك فؤاد فيما بعد ـ وجاء مولده فى السادس والعشرين من مارس عام ١٨٦٨ .. أى بعد أن تولى الخديوى إسماعيل حكم مصر بخمس سنوات ، وتذكر نفس هذه الوثائق أن هذه السيدة ملكت أكثر من ثمانية آلاف فدان بمحافظة الشرقية مركز منيا القمح .

** شفق نور هانم :

وقد رُزِقَ منها فى الثلاثين من أبريل ١٨٥٢ الخديوى توفيق .. ويُحكى أن إسماعيل قد تزوج هذه السيدة بأوامر من السلطان العثمانى .

** نور فلك هانم :

والدة الأمير حسين كامل سلطان مصر فيما بعد .. وقد أنجبه الخديوى إسماعيل عام ١٨٥٣ .

** مثل ملك هانم :

وقد رُزِق منها الخديوى إسماعيل بالأمير حسن باشا فى الثلاثين من ديسمبر عام ١٨٥٤ .

** جنانيار هانم :

والدة الأمير إبراهيم حلمى الذى وُلِدَ فى عام ١٨٦٠ ، والأميرة « زينب هانم » التى ولدت عام ١٨٥٩ . ومع أَن هذه الزوجة قد جاء ترتيبها فى

الوثائق التاريخية الرسمية تحت رقم خمسة ؛ إلا أن هناك بعض الكتب قد رأت أن « جنا نيار هانم » كانت فى الترتيب العام داخل قصر زوجات الخديوى وحريمه تحمل الرقم الثانى أو الزوجة الثانية .

** جهان شاه قادين :

وقد رُزِق منهاالأمير محمود حمدى عام ١٨٦٣ ميلادية ، وهو العام الذى تولى فيه حكم مصر .

** شهرت فزا هانم :

أنجب منها الخديوى إسماعيل الأميرة توحيدة أو تفيدة فى عام ١٨٥٥ .. ثم الأميرة فاطمة فى عام ١٨٥٣ .. وبالنسبة لهذه الزوجة .. هناك بعض الكتب التى تحدثت عنها باعتبارها الزوجة الأولى للخديوى ، وذكرت أن اسمها هو « شهرت خانم أفندى » .. وربما يكون هذا الرأى صحيحاً إلى حد ما ، ولا تعارض بينه وبين ما ذكرته وثائق قصر عابدين وفقاً للترتيب السابق .. وكل ما فى الأمر أن هذه الوثائق كانت تُرتب الزوجات وفقاً لإنجابهن الذكور .

** مثل جهان قادين :

أنجبت للخديوى إسماعيل فتاة تدعى الأميرة جميلة فاضل عام ١٨٦٩ .

** نشئة دل قادين :

رُزِقَ منها الخديوى إسماعيل الأميرة أمينة عام ١٨٧٥ ، والأميرة نعمة مختار عام ١٨٧٦ ، وللأميرة « نشئة دل » وقف مشهور باسمها فى الشرقية مساحته ٢٠٠٠ فدان ، وقد توفيت بالقاهرة عام ١٩٢٤ .

** بزم هانم :

وذُكرت فى الوثائق بدون معلومات .

** جشم آفت هانم :

ورغم أن هذه السيدة قد جاء ترتيبها فى الوثائق الرسمية تحت رقم إحدى عشر ؛ إلا أن بعض المؤرخين يرون أنها كانت الزوجة الثالثة للخديوى ، ويبدو أن إهمال وضعها فى الترتيب العام جاء نظرا لأنها لم تنجب أطفالا ، الأمر الذى جعلها تتبنى طفلة لتربيتها .

لقد كانت « جشم آفت هانم أفندى » فعلاً الزوجة الثالثة لإسماعيل ، وكانت ذات مكانة خاصة لديه ، كما كانت تتمنى لو رُزِقَتْ أطفالاً ، فلما لم يُقدِّر لها ما تمنته فكرت فى أن تتبنى طفلة ، وقد وقع اختيارها على « فائقة هانم » لما رأته فيها من صفات طيبة وأخلاق فاضلة ، وهى التى قد تزوجت فيما بعد من حضرة صاحب السعادة محمد عزت باشا[1] .

** حور جنان قادين :

والدة الأميرة أمينة التى جاء مولدها فى عام ١٨٦٤ .. ولها أوقاف أميرية بالغربية .

** فلك ناز قادين :

والدة الأمير رشيد الذى رُزِق به الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ .

** جمال نور قادين :

وقد رُزِق منها الخديوى « بالأمير على جمال باشا » عام ١٨٧٥ .

هذا ما ذكرته لنا الأوراق الرسمية عن زوجات الخديوى إسماعيل ، ولما كنا فى حاجة إلى معرفة المزيد عن هؤلاء النسوة .. خاصة بعدما اختلفت الروايات حول عددهن .. فقد بحثنا كثيراً ليس فقط عن صحة هذه الأرقام ، بل وأيضاً

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ـ أحمد شفيق باشا ـ رئيس ديوان الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ .

بحثنا عَمَّن يأخذ بأيدينا إلى داخل القصور المتعددة التى اقتناها الخديوى إسماعيل وطبعاً كان على رأسهم قصر عابدين .. كى نرى على الطبيعة ونسمع أحوال هؤلاء النسوة .

وفى أثناء بحثنا عن المزيد .. عثرنا على كلمات متناثرة ذكرها الخديوى عباس حلمى الثانى ابن الخديوى توفيق عن جده الخديوى إسماعيل فيما يتعلق بموقفه من الحريم .. ورأينا من الواجب قبل القفز خلف أسوار تلك القصور العالية أن نستمع إلى تلك الكلمات .

يقول عباس حلمى الثانى فى مذكراته (ص ٢٢) : فكر إسماعيل فى إنشاء مدارس علمانية ومصرية تماماً ، وقامت زوجته الأميرة شمس آفت فى عام ١٨٧٣ بإنشاء مدرسة للبنات فى القاهرة .. ثم أنشأت مدارس أخرى بعد ذلك . وأصبحت المرأة المصرية قادرة على أن تتعاون وتسهم فى تنمية أسرتها ، وكذلك على أن تتساوى مع الرجل فى ميدان المعرفة[1] .

والغريب فى قول عباس حلمى الثانى ـ حين التدقيق فيما ذكره عن إسم زوجة جده الخديوى إسماعيل ـ وجود تناقض واضح بين هذا الاسم وبين الأسماء المدونة فى سجلات قصر عابدين الرسمية أو حتى الأسماء التى دوَّنها رئيس ديوانه فى مذكراته ، والقول الأرجح هو أن « شمس آفت » تلك المرأة التى ذكر اسمها الخديوى عباس على أنها إحدى زوجات جده .. ربما لم تدون فى تلك السجلات أو ربما تم ترجمة اسمها على سبيل الخطأ أو ربما كان يقصد « جشم آفت هانم » ، وعلى أية حال .. سوف نترك تحقيق هذه المسألة لمن يأتى من بعدنا ويهمه هذا الأمر التاريخى .

* * *

(١) عهدى ـ مذكرات عباس حلمى الثانى .

وبعد ، فإننا الآن نقف داخل أكبر قصور الخديوى إسماعيل ، بعد أن نجحنا بمساعدة رئيس ديوانه فى القفز خلف أسواره .. وقد سمح لنا بمصاحبته فى جولة سريعة من خلال ما سجله عن حياة زوجات هذا الخديوى وحريمه وجواريه .

يقول رئيس الديوان فيما سجله من انطباعات : « كنت أسمع فى أواخر عهد إسماعيل أخباراً عن الحياة الداخلية فى قصوره .. وكنت أعدها خيالاً أو مبالغًا فيها على الأقل ، فتحدثت مع حماتى ، زوجة الفريق راشد راقب باشا ، الذى استشهد فى حرب الحبشة وشقيقتها حرم محمد بك عبيد أحد زعماء الثورة العرابية ، وإحدى كبيرات « القلفاوات » الموجودة الآن على قيد الحياة ، وكلهن من معتوقات إسماعيل ، وكانت حماتى ذات مكانة خاصة لدى البرنسيسات » .

لاحظ تغير اللفظ أو اللقب من « هانم » إلى « برنسيسة » .. ولاشك أن ذلك كان يدل دلالة واضحة على مدى التأثر بالرياح الأوربية التى بدأت تهب فى ذلك الوقت وبقوة .. ليس على مصر وحدها .. بل وعلى الشرق كله .

ويضيف رئيس الديوان :

« لقد كانت حماتى لذلك تعرف ما لا يعرفه غيرها ، فحصلت على ما يجعلنى مطمئناً لما سوف أذكره » .

ولكن ماذا قالت حماة رئيس ديوان الخديوى عن زوجات الخديوى وحريمه ؟ هذا ما سوف نعرفه بعد أن نوضح كيف حاول إسماعيل أن يقلد الدول الأوربية ليس فى علاقاته السياسية والاقتصادية فحسب .. بل فى داخل قصوره وفى معاملاته مع من حوله .

تقول الأميرة « چويدان » زوجة الخديوى عباس حلمى الثانى فى مقدمة مذكراتها : جاء إسماعيل باشا إلى الحكم خلفًا لعمه سعيد

باشا عام ١٨٦٣ . وإسماعيل هو جد الخديوى عباس حلمى الثانى الذى تربى فى القصور ، وتربية القصور الناعمة غير تربية جندى مرتزقة مثل جده محمد على باشا ، فالجندى المرتزق رجل ضاقت به أسباب الرزق ، كما حدث لمحمد على بعد أن أفلس محل الدخان الذى كان يملكه فى بلدة « قولة » ، فلم يجد عملاً يتعيش منه ، ولم يكن لديه شئ يملكه غير شبابه فانضمَّ إلى الجيش ..

ولكن إسماعيل تربى فى القصور فهو ابن إبراهيم الابن الأكبر لمحمد على وقائد جيشه الذى مات تاركاً الولد لجده يدلله وينعمه . وأصبح إسماعيل بطبعه يبحث عن الترف والترفيه ، واعتقد فى نفسه أنه أحد فرسان العصور الوسطى . هؤلاء الفرسان ليسوا فرسان حرب ، بل فرسان استعراضات ، على الواحد منهم أن يحب امرأة ذات أهمية خاصة ، يتفانى فى حبها ، ويضحى فى سبيلها بكل مرتخص وغال .

ولابد وأن تكون هذه المرأة شيئاً ممتازاً لها اعتبارها ووضعها ، وأن تكون بعيدة المنال على ذلك الفارس بحيث لا يستطيع إخضاعها لسلطانه أو التحكم فى مصيرها ، وتكون هى من جانبها قادرة على الصد وعلى المنح حسب هواها ، واختار إسماعيل « أُجينى » امبراطورة فرنسا ، ولكى يدعو الامبراطورة لزيارته فى مصر صنع حضارة تتلاءم مع أهمية شخصيتها ، وكانت المناسبة التى ستحضر فيها هى افتتاح قناة السويس ، وإقامة أول خط سكك حديدية مصرية من الإسماعيلية إلى القاهرة ، وأنشاءوا الأوبرا كى تشاهد فيها الامبراطورة ما أُعدّ من أعمال فنية ، وكلف الخديوى إسماعيل الموسيقار العالمى « ڤردى » بتلحين « أوبرا » جديدة خصيصاً لهذا الافتتاح هى « أوبرا » « عايدة » التى كتب مادتها التاريخية « مريت بك » المؤرخ ، ومؤسس المتحف المصرى ، والذى لا يزال يوجد شارع باسمه فى القاهرة ، ومن هذه المادة التاريخية ألف « كامى دى لوكلى » المسرحية[1] .

---

(١) مذكرات الأميرة جويدان : مصدر سابق .

ولكن لماذا وقع الخديوى إسماعيل فى هوى امبراطورة فرنسا دون سواها من حريم رجال الحكم فى أوربا .. إن ما يحكيه « نوبار باشا » فى مذكراته يجيب إجابة قاطعة على ذات السؤال .

يقول نوبار : وافقت الآستانة على منح مصر حق إدارة شئونها الداخلية فقط .. وبقيت مشكلة اللقب الذى يطالب به إسماعيل « لقب العزيز » . ويرفض « غالى باشا » الصدر الأعظم ويطلب الاختيار بين ألقاب أخرى مثل ، الأمير والملك والخديوى (أحد ألقاب شاه فارس) ، ويختار إسماعيل لقب خديوى .. وبعد قضاء واحد وعشرين يوماً فى الآستانة توجه إسماعيل إلى باريس فى منتصف يونيو عام ١٨٦٧ ، حيث نزل فى قصر « التويليرى » ضيفاً على الامبراطور ، وهناك يعلن حاجب القصر لدى وصول إسماعيل إلى البوابة .. عن تشريف « صاحب الجلالة ملك مصر » . ومن بعدها .. وكما يقول « نوبار » وقع إسماعيل فى حب فرنسا حيث اشترى منها السفن وكل شئ حتى وصل به الأمر إلى المزيد من الإسراف والبذخ .

* * *

وحين نعود إلى حديث رئيس ديوان الخديوى الذى سجله على لسان حماته التى كانت إحدى محظيات الخديوى إسماعيل وأتقها على حد قوله نجده قد ذكر فى هذا الحديث بالحرف الواحد :

فى سراى عابدين .. الروايات التى تناقلتها الألسن عن أن سرايات إسماعيل كانت مملوءة بالآلاف من الجوارى ، والراقصات ، والمغنيات ، والعازفات على الآلات الموسيقية مبالَغا فيها ، بل لم يكن موجوداً فى سراى إسماعيل إلا جوقة وترية خاصة بالزوجة الثالثة له ومعها مغنيات .

لقد كان الخديوى إسماعيل يقيم أغلب أوقاته فى قصر عابدين مع البرنسيسات زوجاته الأربع حتى زواج ولى عهده توفيق باشا .. فقد انفصلت

والدته بعد زواجـه وأقامت فى سراى القبة ، وذلك عقب الفرمان السلطانى بجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر أولاد إسماعيل .

وقد أشار السلطان على الخديوى إسماعيل بأن يعقد قرانه على والدة توفيق فصُدِعَ بالأمـر فصارت زوجة رابعة !! . أما البرنسيسات الثلاث فكانت تقيم كل واحـدة منهن فى « بلك » وهـو مسكن خـاص مسـتقل ، ولكل منهن « قلفاوات »[1] توزع عليهن الوظائف المختلفة . وكان لهؤلاء « القلفاوات » .. خادمات خصوصيات من الجوارى السـود ، وفتيات شـركسيات .

أمـا إسـمـاعـيل فكان له « بُلك » تُقـفل أبوابه عند دخـوله فى المسـاء ، وكانت له أيضاً حاشية خصوصية من المحظيات والجوارى .

وكـان سمـوُّه يتنـاول الطعـام مع حـريمه على الطـراز الأوربى .. وكـان « العشى باشا » ـ الأسطى إبراهيـم الـذى خـلف طاهيًـا فرنسيًا فى قصر والد « محمـود باشا فـهـمى » وكيل دائرة الوالدة باشا ـ يُرسل الأطعـمـة المخصَّصة للخديوى على سُنة سلاطين آل عثمـان ، فى أوانٍ ملفوفة بالقماش ومختوماً عليها بالشمع الأحمـر إلى غرفة متصلة بالحـرم ، فيتسلمها محمد بك الناغى « السفرجى » الخصوصى للخديوى .. ثم يخرج من هذه الغرفة فتتسلمها أربع جوار تفك أختام الأطعمة وتقدمها إلى المائدة .

وكـانت الأطعـمـة تُقـدم فى أوانٍ من فـضـة إلا فى المناسبات الخـاصـة ، فكانت الأوانى من الذهب .. وقد حـمل الخديوى إسـمـاعـيل حين سفـره من مصر الأطقم الذهبية الثمينة .

وعن كيفية استقبال زوار جناح حريم الخديوى إسماعيل ، يضيف أحمد شـفـيق باشـا رئيس الديوان الخـديوى : كـان اسـتـقـبـال الزائرات سـواء كُنَّ من

---

(١) وصيفات .

الأفرنج أو من أهل البلد ، بأن يتقدم الأغا ويساعدهن فى النزول من العربة ويرافقهن إلى باب الحريم .. وهنا تأتى الجوارى المدربات كى يتسلمن منهن « اليشمق والفراجية » أو المعاطف وترافقهن إلى الصالون فى الدور الأسفل . ثم تُرشد الزائرات إلى الصالون الخصوصى للأميرات بالدور الثانى .. وفى الاستقبالات الهامة تتقدم الزائرات إحدى « القلفاوات » فى زى رجل بملابس مزركشة ، وكانت تُختار من بين الجوارى ذات الوسامة وصاحبة القد الرشيق ، هذه الجارية تحمل فى يدها عصا غليظة .. فتسير بين أيديهن إلى حيث البرنسيسات وكان يُطلق عليها اسم « الشاويش »[1] .

وكانت الأميرات يلبسن الملابس الحريرية الفاخرة ذات الألوان الزاهية والأذيال الطويلة فى زى أفرنجى ، وكنّ يجلسن عند الاستقبال بجوار بعضهن .. وتقدم الزائرات كل واحدة منهن الوصيفة الخاصة بالترجمة عند وجود أجنبيات .. وكان يقوم . بهذه المهمة بالتناوب وصيفتان هما « قوبسز » هانم « وجاره سز هانم » .

ولقد كان الدخول لأول مرة على حد قول أحمد شفيق باشا كشاهد عيان فى سراى عابدين من الزائرات تدهش لمنظر الجوارى اللائى يستقبلن الزائرات فى ملابسهن الفخمة !! .

هذا ما كان يحدث فى سراى عابدين وجناح الحريم به .. أما فى السرايات الأخرى .. كان إسماعيل ينتقل بعض الأحيان من عابدين إلى السرايات الموجودة فى الجزيرة ، أو الإسماعيلية أو الجيزة ، وكانت الأميرات ترافقه فيها ، وكذلك كان للخديوى فى كل هذه السرايات « بُلك » مخصوص تقيم فيه « القلفاوات » الخصوصيات والمحظيات .

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ـ أحمد شفيق باشا ـ مصدر سابق .

أما كيف كانت زوجات إسماعيل يعشن فى وفاق خلف جدران قصر الحريم ، فيقول الراوى : كانت زوجات إسماعيل يعشن فعلاً فى وفاق دائم مع أنهن ضرائر ؛ فضلاً عن وجود محظيات كثيرات له ، فقد علمت ـ والكلام على لسان أحمد شفيق باشا ـ أن الغيرة لم تكن لدرجة إحداث شقاق بينهن فى الغالب ، وإذا حدث شئ من ذلك كان . « خليل أغا » ـ باش أغا والدة إسماعيل ـ يقوم بتلافيه .. والفضل فى ذلك يرجع لإسماعيل نفسه .. فإنه عقد على من كان يُعتقد فيها الرزانة والعقل الراجح ، والمحافظة على المقام العالى الذى يرفعها إليه .. فَكُنَّ لآخر حياتهن موقرات من الجميع .

ولم ينس شفيق باشا أن يروى لنا بعض المعلومات التى عرفها عن والدة الخديوى إسماعيل .. ولما كانت هى الأخرى تحتفظ بالكثير من الجوارى .. فإننا سوف نفسح المجال أمام الراوى كى يحدثنا عن هذه الوالدة .

يقول أحمد شفيق باشا : كانت والدة الخديوى إسماعيل فى شبابها جميلة الصورة ، وقد بقى أثر هذا الجمال مدة حياتها ، وقد أقامت مع حاشيتها الكبيرة فى سراى الزعفران بالعباسية ، وقد تركت الوالدة هذه السراى بعد أن شيدت سرايا فخمة ومتسعة على النيل فى نقطة حى جاردن سيتى الحالى .

لقد كانت والدة الخديوى إسماعيل تدعى « خوشيار هانم افندى » .. وكان لها غرام خاصٌ بالفن الجميل .. وكانت لذلك تنتقى الجوارى الحسان ، وتأتى لهن بالمعلمين والمعلمات مصريين وأتراك وأجانب .. ولا مبالغة إذا قلنا : إن هذه السراى كانت تحوى من الجوارى الحسان ، وأتباعهن السودانيات ما يبلغ الآلاف عدداً .

وهؤلاء الجوارى كن يُشترين من بعض الأتراك الذين كانوا يأتون بهن من الآستانة ، وأغلبهن من أصل شركسى يأتون بهن صغار السن ، أما أميرات

البيت الخديوى فيرسلن أحد القلفاوات لانتقاء هؤلاء الجوارى ، فتطلع إلى أجسامهن وتنتقى من تصلح وتشتريها .

أما الطعام فى سراى الوالدة ، فكان كل شئ فيه أميل للطريقة الشرقية ، حيث كانت تجلس الوالدة مع من تجدهن من البرنسيسات والزائرات غير الأجنبيات على « شلَت » حشايا مغطّاه بقماش مزركش ، وتوضع على الأرض بهيئة دائرة وفى وسطها كرسى مغطى بنفس الغطاء المزركش وتوضع فوقه صينية من الفضة وأدواتها .

وكان يتم استقبال زائرات الوالدة لغاية باب الحريم على حد قول الراوى مثل النظام المتبع فى سرايا عابدين إلا أنه يختلف فى جلوس الزائرات فى غرفة الاستقبال على مقاعد شرقية عالية ، على حين تجلس الوصيفات على حشايا أرضية ، وتقدم للزائرات القهوة مثلما يحدث فى قصر عابدين .

* * *

ولعلنا هنا نسوق ملحوظة واحدة .. ربما نختتم بها حديث حريم الخديوى إسماعيل .. هذه الملحوظة تتمثل فى تلك الكلمات الصادقة التى خرجت من خلف أسوار القصور العالية ، والتى صورت لنا فى عبارات موجزة .. كيف كان حال حريم الخديوى وزوجاته ، وهو ما لم يتوفر لنا فى حديث حريم من سبقوه من حكام مصر من الولاة .. ولولا اقتراب رجل مثل أحمد شفيق باشا من هذه الأسوار .. ولولا تدقيقه فيما روته له حماته عما كان يدور داخل جناح حريم الخديوى ؛ لما تمكنًا من تقديم الصورة السابقة بنفس الصدق فى التصوير والبيان .

وربما سوف تواجهنا عقبة الخوف من الاقتراب من ذات الأسوار العالية بعد رحيل الخديوى إسماعيل مغضوباً عليه .. حين نتحدث عن زوجات وحريم ابنه

الخـديوى توفـيق ، رغم أننا عـرفنا منذ بداية الحـديث عـبـر هـذه الأوراق أن توفيق قد تزوج من امرأة واحدة .

● زوجـة الخـديوى توفـيق :

تقول وثائق قصر عابدين ـ فيما يخص زوجات الخديوى توفيق بالنص : كان للمغفور له محمد توفيق باشا خديوى مصر زوجة واحدة ، وهى سمو الأميرة أمينة نجيبة إلهامى كريمة إبراهيم إلهامى باشا ابن عباس الأول .. ولدت أمينة هانم فى ٢٤ مايو عام ١٨٥٨ وتوفيت فى استانبول عام ١٩٣٠ .

وقد رُزِق منها الخديوى توفيق بولدين وثلاثة بنات هم :

* **الخديوى عباس حلمى الثانى الذى ولد عام ١٨٧٤ بمدينة القاهرة .**

* **الأمير محمد على توفيق الذى ولد بالقاهرة أيضاً عام ١٨٧٥ .**

* **الأميرة « نازلى هانم » ولدت عام ١٨٧٧ وتوفيت عام ١٨٧٩ .**

* **الأميـرة « خديجة هانم » ولدت فى مايو ١٨٧٩ وتزوجت من الأمير محمد عباس حليم عام ١٨٩٥ .**

* **الأميـرة « نعمـة الله » ولدت عـام ١٨٨١ وتزوجـت عـام ١٨٩٦ من الأمير محمد جميل طوسون .. وبعد طلاقها منه عام ١٩٠٣ . تزوجت من الأمير كمال الدين حسين ابن السلطان حسين عام ١٩٠٤ .**

وتذكـر لنا نفس هذه الوثائق أن الخـديوى توفـيق حكم مـصر بعـد والده الخديوى إسماعيل فى السادس والعشرين من يونيو عام ١٨٧٩ .. حين وردت برقيـة الباب العالى باختيـاره خليفة لوالده ، وقد انتشرت شائعة قوية غزت كل أركان مصر فى ذلك الوقت ، مؤداها أن الأمير « حسين كامل » يطمع فى أن يخلف والده نظراً لما كان يُعتقد من أنه أحب إلى والده من توفيق ، فضلاً على

أنه لا يفصل بين مولديهما غير بضع ساعات ، إلا أن الخديوى إسماعيل المخلوع نصح ابنه حسين كامل بأن يؤيد الخديوى الجديد فنزل على رأيه ورافق توفيق فى حفل توليه مقاليد الحكم .

وحين نعود للحديث عن زواج الخديوى توفيق وحريمه .. نجد أن الوثائق لم تذكر لنا تاريخ زواجه بالضبط .. ولكن الثابت والمؤكد والذى لاخلاف عليه أن توفيق تزوج فى حياة والده الخديوى إسماعيل .. بل أكثر من ذلك فقد أنجب ولده الأول قبل توليه الحكم خلفاً لوالده أيضاً بمدة تصل إلى ٥ سنوات .

وقد يتساءل البعض عن السبب الذى جعل توفيق يتزوج من امرأة واحدة ، على خلاف ما كان عليه جده وأعمامه حتى إخوته من بعده ! . ورغم عدم وجود إجابة صريحة فى أوراق التاريخ توضح لنا ذلك السبب إلا أننا من الممكن أن نستنتج السبب من خلال متابعة متأنية لحياته داخل القصور .. وأيضاً علاقة والدته « شفق نور هانم » بالخديوى إسماعيل .

لقد كانت أم الخديوى توفيق إحدى جوارى والده إسماعيل .. وقد ظلت ضمن حريمه فترة طويلة حتى وافق أن يتزوجها ويضمها إلى زوجاته الثلاث الأخريات بناء على تعلميات سلطانية صدرت له من السلطان العثمانى ، خاصة بعد أن أنجب ابنه الأكبر توفيق .. وحتى رغم صدور هذه التعليمات فلم تعمر أم توفيق طويلاً كزوجة للخديوى إسماعيل .. بل انفصلت عنه بعد أن تزوج ابنها توفيق ، وقد أقامت معه فى سراى القبة التى ظل مقيماً بها حتى توليه الحكم ، فانتقل إلى القصر الذى بناه فى حلوان واتخذه مقراً لإقامته بجانب قصر عابدين الذى اكتفى بأن يكون مقراً للحكم فقط .

وهناك تعليل آخر لاكتفاء الخديوى توفيق بزوجة واحدة ذكره لنا ابنه عباس حلمى الثانى فى مذكراته حين قال : لقد امتلك الخديوى توفيق بلا جدال قوة الشخصية ، وقوة الصفات اللازمة لحكم بلاده .. ولقد تزوج بواحدة فقط فى بلاد تشتهر بتعدد الزوجات ، وكانت أول مرة يقوم فيها حاكم وربما مواطن بالتصرف بهذه الطريقة ، وكان مَثَلُه يرفع المستوى الأخلاقى للأسرة المسلمة فى أيامنا[1] .

والشئ الطريف فى قصة زواج الأمير توفيق قبل توليه الخديوية .. أننا قد عثرنا فى أوراق التاريخ على وصف جميل ونادر لحفل زفاف ذلك الأمير .. بل وأيضاً وجدنا فى نفس الأوراق وصفاً فى غاية الروعة لجهاز عروس الأمير توفيق ابن الخديوى إسماعيل ، الذى جعل من زواج ابنه مناسبة شبه قومية حيث عُطلت المدارس .. بل وتمّ دعوة التلاميذ لحضور ولائم هذا الحفل الكبير .

يقول أحمد شفيق باشا رئيس ديوان الخديوى وأحد شهود هذا الحفل : « كان جهاز البرنسيسة «أمينة هانم » زوجة الأمير توفيق منسقاً فى ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالى للعرض على الأنظار : وهو يتكون من أنواع الحلى المختلفة الأشكال والمرصعة بالجواهر والماس .. هذا عدا الأوانى الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بزخرفتها الذهبية المحلاّة بالجواهر .. وكان كل جهاز يطاف به فى أنحاء المدينة محمولاً على عربات تحت حراسة الجند الراكب ، تتقدمها فرقة موسيقية لإرسالها إلى سراى العروس » .

وقد لاحظنا ونحن نتابع هذا الوصف التفصيلى الخاص بجهاز العرائس الذى لم يختلف كثيراً عما هو حاصل الآن فى بعض مدن وقرى الوجه البحرى ، أن الراوى قد ذكر لنا ذلك ضمن وصفه لبقية جهاز عروس كل من

---

(١) عهدى ـ مذكرات عباس حلمى الثانى ـ مصدر سابق .

الأمير حسين كامل وأخين حسن . حيث تعمد الخديوى إسماعيل أن يزوج أولاده الثلاثة فى وقت واحد .

إلا أن الراوى يعود فى نفس شهادته كى يحدثنا عن حفل زفاف توفيق باشا بالتفصيل .. فيقول : « وبعد ظهر يوم الأحد التاسع عشر من يناير(*) توجهت عروس توفيق باشا .. التى كانت تقيم فى سراى الحلمية مع والدتها منذ عقد العقد إلى القصر العالى ، لتقضى فيه حتى الخميس ، ولتشاهد الحفلات التى تقام فيه بهذه المناسبة ولتزف بعدها إلى سراى زوجها .

وفى داخل هذه السراى كان الأغوات يرشدون ويصحبون المدعوات إلى داخل أماكن الحريم .. على حين كانت القلفاوات ومعهن بعض من تتكلم اللغات الأفرنجية والتركية فى استقبالهن .. فيحملن عنهن ملابسهن الخارجية ثم يرافقهن إلى الأمكنة التى أُعدت لكل منهن بين عزف الموسيقى وأصوات المغنيات ، وبعد تقديم التهانى للوالدة وللأميرات تقدم للمدعوات القهوة والسجائر .

وعند تكامل حضور الأميرات وكبيرات المدعوات يقمن إلى غرفة المائدة ، ويلبس الأميرات الملابس الفخمة التى جُلبت خصيصاً من باريس ، وبعد العشاء يرجعن إلى الصالون وهناك تقدم لهن القهوة والسجائر ، ثم ينزلن إلى صالون كبير فى الدور الأول حيث تجلس الوالدة فى أحد أركانه ، فيقدمن لها التهانى كلٌ بدورها ثم تبدأ حلقة الراقصات .

وفى الساعة العاشرة تُزَف العروس ويصطف الأغوات صفَّيْنِ ، وبين هذين الصفين تسير العروس فى أبهى حلل العرس مسدولاً على وجهها « الدواك » الذهبى الرفيع .

(*) .. نلاحظ أنه ذكر لنا التاريخ باليوم والشهر وأغفل رقم العام !.

وبدلة العروس مرصعة من الرأس إلى القدم بالماس .. ومن بعدها تخرج العروس من غرفة العرش وتتوجه إلى غرفتها الخصوصية ، ثم تخرج بعدها البرنسيسات وتنفض الحفلة .

وبعد ظهر الخميس ينتظم موكب زفافها للذهاب إلى سراى زوجها .. متجها إلى قصر القبة .. ويتقدم الموكب الموسيقى السوارى وفرقة من المشاة .. ثم يتبع ذلك العربات المقفلة فيها البرنسيسات قريبات العروس ، ثم تأتى عربة العروس وهى عربة تشريفة كبرى مذهبة ويجرها ستة من كرام الخيول وعند وصول العروس إلى سراى زوجها يستقبلها الزوج ، وتنحر الذبائح ، وتزف داخل الحرم ، ويحسر زوجها النقاب المبرقعة به عن وجهها » .

* * *

لقد ظل الخديوى توفيق على حبه لزوجته التى أنجب منها أولاده بل أكثر من ذلك بدأ يفكر طويلاً فى حل مشاكل هؤلاء الجوارى اللائى تركهن وراءه والده من بعد رحيله إلى منفاه .

ويقول التاريخ عن هذا الجهد الذى بذله توفيق من أجل الحفاظ على حياته العائلية التى حصرها فى زوجة واحدة بعد أن تم اختياره فى منصب خديوى مصر ، وانتقاله إلى قصر عابدين وإتخاذه مقرا رسميا له : . إنه بعد أن استقرت له الأمور بدأ يفكر فى حل مشكلة جوارى أبيه .. حيث ترك إسماعيل من بعد رحيله عددا كبيراً من هؤلاء الجوارى والحريم خاصة الشركسيات ، وقد أوكل توفيق أمر هؤلاء إلى « طه باشا » ناظر الخاصة الملكية .. الذى أمر بتزويج كل الجوارى والحريم مع صرف النفقات اللازمة لهن فى الزواج من الخاصة .. وكنت من بين الذين يشتغلون بأداء هذه المهمة .. فزوجت الكثيرات منهن وجهزت أغلبهن وأقمت الأفراح[1] .

---

(١) أحمد شفيق باشا ـ مصدر سابق .

وفى ذات يوم قال لى « طه باشـا » : لقد جـاء دورك أنت أيضاً يا شفيق افندى ؛ فإن الخديوى قد اختار لك فتاة شركسية جميلة كى تتزوجها .. فدهشت لهذه المفاجأة ؛ لأنى كنت صغير السن ، ولم أفكر فى الزواج بعد .. واستشرت والدى فى الأمر فنصحنى بتحقيق رغبة الخديوى إذ هو ولى نعمتى والمتفضل بتربيتى وتعليمى .. فتزوجت بالفتاة التى اختيرت لى[1] .

من جانب آخر تفرغت زوجة الخديوى توفيق الوحيدة لتربية أولاده .. وكما يقول ابنها عباس حلمى الثانى : ..« أمـا والـدتى فإنها كانت بالنسبة للجميع ، وبالنسبة لى ـ بنوع خاص ـ الخيـر الأكثر ندرة والأكثر كمالا . وقد مرت طفولتى منذ عام ١٨٧٤ حتى عـام ١٨٨٠ فى حريم بيتنا ، حيث كانت الزوجة الوحيدة لوالدى الخديوى توفيق الأميرة « أمينة هانم » .. والدتى تشرف على تربية أولادها ، وهنا عرفت جذورى التركية[2] .

● زوجـات الخـديوى عباس حلمى الـثانى :

ويتوقف بنا حديث النساء وحريم الخديوى عند آخر هؤلاء الحكام الذين جلسوا على عرش مصر تحت لافتة « مولانا الخديوى » ونقصد به عباس حلمى الثانى ابن الخديوى توفيق .

وحين نضع النقطة الأخيرة فى حديث النساء فى حياة هذا الحاكم .. نكون قد انتهينا من رسم صورة واضحة المعالم لحريم الجزء الثانى من حكام مصر من أبناء وأحفاد محمد على باشا الكبير .

وأيضاً وقبل استعراضنا لأسماء زوجتى الخديوى عباس حلمى الثانى ، الذى تزوج من امرأتين فقط ، إحداهما كانت مَجَرِيَّةَ الأصل ثم أسلمت ، نود

---

(١) المصدر السابق .

(٢) عهدى ـ مصدر سابق .

أن نشير إلى حقيقة اكتشفناها من خلال تتبع واع لتواريخ زواج هذا الخديوى .. مؤداها أن عباس حلمى الثانى يُعد أول حاكم مصرى من أسرة محمد على الذى تزوج من امرأتين وطلقهما بعد فترة زواج دامت أقل من خمس سنوات .. ولم يتزوج من غيرهما حتى وهو ما يزال حاكماً على عرش مصر ، بجانب ذلك فهو الحاكم الوحيد أيضاً الذى تزوج وهو حاكم فعْلى بدرجة « خديوى » وليس كما كان جميع أقاربه .. حين تزوجوا بدرجة أمراء ! .

والآن علينا أن نترك وثائق « قصر عابدين » كى تحدثنا عن زوجات هذا الحاكم الذى يعتبره التاريخ : آخر من حمل لقب « خديوى » .

تقول هذه الوثائق بالتواريخ .. لقد تزوج عباس حلمى زوجتين هما :

* الزوجة الأولى :

« **إقبال هانم** » التى وُلِدَتْ عام ١٨٧٦ وتزوجها الخديوى عباس فى التاسع عشر من نوفمبر ١٨٩٥ ، ثم طلقها وتزوج من غيرها ، وقد أنجب منها عباس ستة أولاد هم :

* **الأمير محمد عبد المنعم الذى ولِدَ عام ١٨٩٩ .**
* **الأمير محمد عبد القادر ولِدَ عام ١٩٠٢ وتوفى فى مدينة مونتريه السويدية عام ١٩١٩ ، ومع ذلك نُقل جثمانه إلى القاهرة ودفن بمدافن العفيفى بمصر القديمة .**
* **الأميرة أمينة التى وُلِدَت عام ١٨٩٥ .. وكانت أول مولود للخديوى حيث أنجبها بعد عدة أشهر من زواجه الأول .**
* **الأميرة عطية الله التى ولدت عام ١٨٩٦ .. وهى الابنة الثانية فى الترتيب العام لهؤلاء الأبناء .**

* **الأميرة فتحية وقد ولدت عام ١٨٩٧ وتوفيت فى حلوان عام ١٩٢٣ .**
* **الأميرة لطيفة شوكت التى ولدت عام ١٩٠٠ .**

وحين نتتبع تواريخ ميلاد أبناء الخديوى عباس حلمى نكتشف أنه قد أنجب ثلاثة أميرات أولاً من زوجته الأولى ثم أنجب بعد ذلك الأمراء الذكور .. وربما تكون رغبة الخديوى عباس حلمى فى أن يكون له ولى للعهد ، هى التى دفعت زوجته للإنجاب المتعدد حتى بلغ عدد أولادها ستة .. كان منهم وَلَدَانِ وأربع بنات .

** الزوجة الثانية :

وهى الأميرة « **جاويدان هانم** » .. وقد تزوجها عباس حلمى فى الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩١٠ .. ثم طلقها بعد ثلاث سنوات فقط .. ولم ينجب منها أطفالاً .. وزوجة الخديوى الثانية مجرية الأصل وكان اسمها « الكونتيس ماى نوروك » . وقد أسلمت قبل أن يتزوجها الخديوى واتخذت من « جاويدان بنت عبد الله » اسماً لها .. وتقول نفس الوثائق : إن الخديوى عباس لم ينجب منها أطفالاً ، وأنها قد غادرت القاهرة بعد الطلاق .. وعملت موظفة بدار القنصلية البريطانية فى « باريس » .

وقد تفرغت هذه الزوجة لكتابة مذكراتها التى تناولت فيها قصة زواجها من خديوى مصر الذى دام ثلاث سنوات فقط ، وكتبتها باللغة الألمانية ، ثم سرعان ما تم ترجمتها إلى اللغة العربية .

ويقول الكاتب الصحفى مصطفى نبيل فى تعليقه على هذه المذكرات : لعله يعيب هذه المذكرات عدم ترابطها « فليس لها بداية أو نهاية » وتفتقر إلى المغزى السياسى وتقتصر على ما تقدمه كوثيقه تعبر عن عصر بعاداته وتقاليده . ويضيف : إن هذه المذكرات ليس لها سابقة فى التراث العربى فنادراً ما تكتب سيدة عربية مذكراتها وخواطرها بصراحة .. والأكثر ندرة أن تكون الكاتبة أميرة شرقية .

كما أن أجزاء كبيرة من تلك المذكرات تعبير ملتهب عن حبها لزوجها وتغزُّلها فى جماله ومهارته .

وذكرت الأميرة زوجة « عباس حلمى » فى نفس مذكراتها أنه كان يطلق عليها لقب « هانم افندى » .. وكانت تعيش فى قصر مستطرد .. وكان زوجها الخديوى يعيش بعيداً عنها فى قصر عابدين .

أكثر من ذلك وصفت لنا حياة مصر السياسية عقب تولى زوجها العرش فذكرت : « جلس الخديوى على العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره ولم تكن الظروف حسنة .. فقد خلف أباه توفيق باشا وكان حاكماً ضعيفاً ، من بعد جده إسماعيل باشا .. وكان حاكماً كبير المطامع »[1] .

ورغم أن زوجها عباس حلمى الثانى .. قد كتب مذكراته باللغة الفرنسية .. فى وقت لاحق للوقت الذى كتبت فيه زوجته هذه المذكرات إلا أنه لم يحدثنا عن نفسه بمثل ما ذكرته هذه الزوجة التى قدمت لنا وصفاً غاية فى الدقة عن أخلاق ذلك الخديوى وطباعه .. فقد حين قالت : « لم يكن لعباس الثانى أصدقاء بمعنى الكلمة .. فرفاق الصبا أصبحوا ياورانا أو تشريفاتيه فقط ، وأما صداقة الماضى فلا ذكر لها ، وعلى العموم فإن التاج يفصل بين الملوك وبين الماضى ، والحكام يعيشون دائماً فى دائرة منعزلة ، ومنذ أن عرفت عباس حلمى وددت أن أكون رجلاً لكى أصبح صديقاً يخلص له باعتباره صديقاً لا سيداً ، بيد أنى لو كنت رجلاً لما استطعت التعرف به » .

وفى فقرة أخرى من نفس المذكرات تواصل إلقاء المزيد من الضوء على شخصية هذا الحاكم فتقول : « كان الخديوى سريع الحركة لا يكل العمل ولا

---

(١) مذكرات الأميرة جويدان ـ مصدر سابق .

يمله .. وكثيراً ما كان العمل يمنعه من تناول الطعام فى مواعيده ، وكان فى أوربا يميل إلى الأماكن المزدحمة بالناس .. ولعل ذلك ناشئ من حياة العزلة التى كان يحياها فى مصر ، حيث لا يخرج إلا فى حراسة ، ويقف كردون العساكر بينه وبين الجمهور » .

على أن أهم ما جاء فى هذه المذكرات .. ذلك الفصل الذى تُحدثنا فيه زوجة الخديوى عن الحريم .. ليس حريم زوجها فقط .. بل حريم حكام مصر منذ محمد على باشا ، بل وأكثر من ذلك تحدثت عن منشأ الحريم وتطوره .. فقالت على سبيل المثال : كلمة « حريم » التركية مصدرها عربى .. والفعل منها حرم ومعناه الممنوع غير الجائز .. كما أن فيه معنى القداسة .. على أنه لا توجد كلمة أُسيئ استعمالها بقدر ما أُسيئ استعمال كلمة حريم بعدما أُطلقت على القِسم المخصوص لسكن السيدات في البيوت ، وأصبحت النساء فيه سجينات يقوم على حراستهن أغوات لا يَصْدَعُونَ إلا بأوامر سيدهم الذى له مطلق الحرية والتصرف فى هذا السرب من السجينات .

وتضيف بقولها عن ذات الموضوع : ولا يكاد يختلف الحريم فى مصر عن غيرها فالأساس متشابه والنظام واحد ، ونساء الحريم جميعاً يؤمنّ بالخرافات ويعتقدن بالسحر .

وقد وصفت لنا يوماً عاشته داخل هذا الحريم ، ونقلت إلينا من خلاله بعض الصور الغريبة التى شاهدتها مثل وصفها الذى قالت فيه : « لم يكن مسموحاً للطبيب بعيادة الحريم .. فكانت مرضى الحريم تتداوى بطب التجارب ، فإذا استعصى الداء واشتد الخطر جاءوا بالطبيب .. ولكن لا يسمحون له برؤية المريضة شخصيا والكشف عليها . بل يتولى أحد الأغوات الترجمة بين المريضة وبين الطبيب .. وبناء على هذا الوصف يصف العلاج اللازم بعد ما يعرف الطبيب من المترجم ما تعانى منه من آلام وأوجاع » .

ملحق صور الفصل الثالث



زوجـة الخديـوى إسماعيل

صور زوجات الخديوى



جشم آفت هانم زوجة إسماعيل باشا



جهان شاه قادين هانم زوجة إسماعيل باشا



تشته دل هانم زوجة إسماعيل باشا



جنان يار هانم زوجة إسماعيل باشا



شفق نور هانم زوجة إسماعيل باشا



الأميرة (أم المحسنين) زوجة توفيق باشا



صـورة نادرة من الأرشـيف الخـاص للخـديوى عبـاس حلمى الثانى لوالده الخـديوى توفـيق مع والـدته أم المحسنين .. ويظهـر فى الصـورة الخـديوى عباس وأخـتـه الأمـيرة خـديجة والأميرة نعمة الله .. ثم الأمـيـر الصـغير محمد على توفيق .

الفصل الرابع

السلطانة .. والأميرة .. والملكة

مما لاشك فيه أن وضع المرأة المصرية داخل المجتمع قد شهد نوعاً من التحسُّن الملحوظ .. وذلك ابتداء من عام ١٩١٠ ، ولو أردنا تحديد ذلك لقلنا : إنه حدث بالضبط مع نهاية الحقبة الثانية من حكم أسرة الوالى محمد على ، والتى اخترنا لها وفقاً للتقسيم السابق .. مرحلة « الخديوى » .. والتى أعقبت مرحلة « الوالى » .

هذا التحسن كان له العديد من الأسباب بعضها قد ارتبط بالظروف السياسية التى عصفت بمصر فى ذلك الوقت ، وجعلت منها مهبط الأجانب من كل الجنسيات ، والبعض الآخر ارتبط بالظروف الاجتماعية التى هزت وزلزلت أركان المجتمع المصرى إبان تلك الصحوة الفكرية التى قادها كل من محمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى .. ثم قاسم أمين ، أحد رواد حركة تحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث .

ولعل هذا التحسن الطارئ الذى سوف نتحدث عنه بالتفصيل لم يقتصر على صنف « الحريم الشعبى » الذى لوحظ أنه كان أسرع تأثراً بالحركة الإصلاحية التى نادت بتحرير المرأة ، والعمل على إخراجها من قفص الحريم .. بل إن هذا التحسن قد طرأ كذلك على « الحريم السلطانى » وهز أركان جدران قصوره العالية هزاً عنيفاً كاد أن يسقط تلك الجدران على القائمين خلفها .

وابتداء من عام ١٩١٤ .. ذلك العام الذى شهد بداية المرحلة الثالثة من حكم أسرة محمد على وهى « المرحلة السلطانية » أخذت المرأة طريقها نحو التحرر والخروج القوى من قفص الحريم .. ولما كنا نتحدث فقط عن « حريم السلطان » .. دون « الحريم الشعبى » فلسوف نقصر حديثنا على النوع الأول .. الذى هو موضوع هذه الأوراق .

وما نقصده هنا بمرحلة السلاطين .. هى تولى الأمير حسين كامل حكم مصر .. بعد إعلان الحماية البريطانية .. واختياره لقب سلطان بدلاً من لقب « خديوى » .. خلفاً لابن أخيه عباس حلمى الثانى .. ويقول التاريخ : إن السبب فى تغيير لقب حاكم مصر فى ذلك الوقت من « خديوى » .. إلى « سلطان » هو حصول مصر على استقلالها من الامبراطورية العثمانية .. ووقوعها تحت الحماية البريطانية .. إنه منتهى التناقض .. وأيضاً منتهى السخرية ..

هذا الحديث كان لابد وأن يجرنا ـ بالتالى ـ إلى بيان التقسيم الرابع فى حياة أسرة محمد على .. وهى « مرحلة الملكية » .. أو « الملوك » فى مقابل « السلاطين » .. فكما شهدت حقبة السلطان حاكمين من نفس الأسرة وهما : حسين كامل ابن الخديوى إسماعيل وأخيه الأمير أحمد فؤاد .. فقد شهدت « مرحلة الملكية » ـ وهى آخر مراحل حكم أسرة محمد على التى استمرت قرابة مائة وسبع وأربعين عاماً ـ أيضاً حاكمين هما : السلطان فؤاد الذى تحول لقبه إلى الملك فؤاد .. ثم من بعده ابنه الملك فاروق .

وكما تغير لقب الحاكم .. تغيرت أيضاً ألقاب « الحريم السلطانى » .. فبعد أن كانت امرأة الوالى والخديوى وحريمه تحمل لقب « هانم » .. فقد حملت امرأة السلطان والملك ألقاب « السلطانة والملكة » .. على أن أهم ما

يميز هاتين المرحلتين الأخريين فى حياة أسرة حكام محمد على .. هو ظهور امـرأة هذا الحـاكم أو ذاك بجـواره على العـرش الملكى تشـاركـه فى كل المناسـبات العـامة . بل أكثر من ذلك .. كانت امـرأة الحـاكم « السلطان » أو « الملك » أو « الأمير » .. تقوم وحدها وبدون زوجها بالأعمال الخيرية وتساهم فى الحفلات العامة .. بل وأيضاً .. كانت تظهر فى الصور التى تنشرها الصحف والمجلات وبمفردها .. وأثناء قيامها بتلك الأعمال الخيرية .

ومن هنـا .. قَبِلَ الحـاكم أن يطلق على زوجـته لقب « سلطـانه » .. ثم « أمـيـرة » و « ملكة » .. تماماً مـثل ذلك اللقـب الذى كـان يطلق على الحاكم .. والأمر لم يتوقف على مجرد أُمنية أو رغبة فردية .. بل إن الدستور المصـرى قـد تضـمن فى بعض نصـوصـه إيضـاح حـق الملكة فى العـرش والجلـوس بجوار زوجها فـوق نفس العـرش .. بل وأيضاً أصبح لها حق ارتداء « التاج الملكى » .

لقد أثبتت امرأة « الحريم السلطانى » أنها جديرة بتلك الحرية التى نالتها بعد تأييدها لحركات « الحريم الشعبى » ، بل وتفوقت على نظيرتها من حريم الشعـب .. بما توفـر لديها من إمكانات ساعدتها على أن تخطـو خـطـوات سـريعـة وواسعـة خـارج قفص الحـريـم التى عـاشت خـلف قضبانه أكثر من مائة عام .

والغريب فيـمـا سـوف نلاحظه .. أن تلك القـاعدة كـان فيـهـا كثير من التنـاقض .. فلـم تسـتقـم كل الأمـور لامرأة السلطان أو الأمـير أو الملك .. وأيضاً لـم تستطع أغلب نسـاء هـؤلاء الحكام خاصـة فى المرحلتين « مـرحلة السلطان » .. و « مـرحلة الملك » .. أن تتفـاعل مع تلك الحـرية التى فـتحت أبوابها على مصراعيها .. رغم أن الدافع لم يكن فى متناول يدها .. وأن ما ظهر من تناقض فى ظل هذه القاعدة .. كان سببه الأول والأخير تخوُّف بعض هؤلاء

الحكام من سطوة نسائهم رغم استسلامهم لذلك اللقب الذى فرضه الدستور .. والذى أقر بوجود « السلطانة » أو « الملكة » فى الديكور السياسى للدولة .

وهناك ملحوظة غاية فى الأهمية .. رأينا ضرورة إلقاء الضوء عليها قبل الحديث عن زوجات السلطان والملك .. وهى أنه رغم انهيار مملكة الجوارى خلف قصور هؤلاء الحكام .. بل واختفاء المحظيات من جناح الحريم داخل القصر الملكى ؛ إلا أن هؤلاء قد تمسكوا بهؤلاء الجوارى وتلك المحظيات .. ولكن خارج أسوار قصورهم .. سواء فى النوادى الليلية أو فى رحلات الصيد والترفيه خارج البلاد ، وكثيراً ما كانت علاقة بعض الحكام بهؤلاء المحظيات والعاشقات هى السبب الرئيسى والأساسى فى طلاق الملكة والسلطانة والأميرة .

وفى تصورنا أن نظام الجوارى والمحظيات قد احتفظ بكيانه قوياً .. ولكن مع اختلاف الأمكنة والمسميات .. وربما انشغال هذه السلطانة أو الأميرة أو الملكة بحياتها العامة وانغماسها وسط رعاياها من أبناء المملكة .. كان يؤجل وقوع الكثير من حوادث الصدام الذى كان يعجل بالطلاق بين الملك والملكة .. ولسوف نشهد كثيراً مثل هذه الأحداث .. مع تتبعنا المستمر لحديث هذه الأوراق .

بل هناك سبب آخر ربما كان أقوى من سابقه .. وهو وقوع الملكة أو الأميرة أو السلطانة فى طريق العشاق الذى كان يملؤه رجال البلاط والقصر .. وبعض الحاشية .

وأكثر من ذلك .. كان بعض هؤلاء الحاشية يقومون بهذا الدور بتكليف رسمى من الملك .. بل وبعد إصداره أمراً وفرماناً يضمن له الاستمرار فى هذه المهمة .. ولعلنا ـ جميعاً ـ نعرف ، أو سوف نعرف قصة الملكة « نازلى » ..

وأحمد باشا حسين رئيس الديوان الملكى .. خاصة بعد رحيل زوجها الملك فؤاد .. وقصة الملكة فريدة مع الوجيه وحيد سرى سواء بعد أو قبل طلاقها الملك فاروق .

* * *

وحين نقترب كثيراً بالحديث عن المرحلة أو الحقبة الثالثة فى حياة أسرة محمد على فوق عرش مصر ، والتى اخترنا لها اسم « المرحلة السلطانية » .. نكتشف ، وكما سبق وأن ذكرنا ، أنه كان يمثلها حاكمان من هذه الأسرة ، وهما : السلطان حسين كامل ، والسلطان أحمد فؤاد ، ولعلنا بدلاً من اختيار لفظ الحريم الذى ـ لم يعد يناسب تلك المرحلة المتقدمة من تاريخ مصر الذى بدأ فى هذه الفترة من عام ١٩١٤ ـ أو اختيار لقب الزوجة ، فقد بدلنا الأسماء وأصبح الاختيار محصوراً بين ثلاثة ألفاظ هى : السلطانة نسبة إلى السلطان حسين كامل .. والأميرة وهو لقب زوجة الحاكم المنتظر أو القادم من أبناء الأسرة المالكة ، وطبعاً نقصد به الأميرة شويكار .. زوجة أحمد فؤاد ، ومن بعدهما يأتينا اللفظ الثالث وهو لفظ « الملكة » .. ونقصد به « نازلى » .

ولن يقتصر الحديث فى هذا الفصل على هؤلاء الثلاثة فقط ، بل سوف نتحدث كذلك عن الأميرة « عين الحياة » الزوجة الأولى للسلطان حسين كامل قبل توليه العرش .. فقد تبين أن هذا السلطان قد تزوج من امرأتين تمتعت إحداهن بلقب أميرة والآخرى بلقب سلطانة .

وكذلك أخيه أحمد فؤاد الذى تزوج أيضاً من امرأتين .. تمتعت الأولى بلقب أميرة .. والثانية كان لقبها « الملكة » فى الدستور .

ورغم التوضيح السابق ربما يتساءل البعض .. ولماذا لم يطلق لقب « سلطانة » على زوجة الملك فؤاد رغم أنه تمتع بلقب سلطان مثل أخيه حسين كامل ؟! .

وللإجابة على ذلك نذكر : أن الأمير أحمد فؤاد ، ظل متمتعاً بلقب سلطان مصر مدة خمس سنوات فقط ، كان خلالها بدون زوجة .. مع أنه اقترن قبل توليه العرش بإحدى الأميرات ، ثم وبعد أن تغير لقبه إلى ملك مصر .. تزوج من امرأته الثانية ، ولذلك أُطلق عليها لقب « ملكة » ، ولو كان أحمد فؤاد قد تزوج للمرة الثانية وهو لا يزال فوق عرش السلطنة .. لكان لقب امرأته الجديدة ـ بطبيعة الحال ـ مثل لقب زوجة أخيه . « سلطانة » .

* * *

● زوجات السلطان حسين كامل :

تقول وثائق قصر عابدين : إن حسين كامل ابن الخديوى عباس تزوج من امرأتين حملت كل منهما لقب أميرة .. ولسوف نلاحظ ، وقبل الحديث بالتفصيل عن أسماء هاتين الزوجتين وأولادهما .. أن ظروف الاقتران من كل منهما قد اختلفت عن الأخرى فى أشياء كثيرة ومتنوعة .. هذا الاختلاف رجع فى المقام الأول إلى الظروف الاجتماعية التى بدأت رياح التغيير تؤثر فيها .. وأيضاً إلى تلك الظروف الشخصية التى ارتبطت بالزوج وهو السلطان حسين كامل .

فعلى الرغم من أن هذا الحاكم قد اقترن بزوجتين مثل غيره من أعمامه أو أجداده من حكام أسرة محمد على ؛ إلا أن إحداهما قد ظلت تحمل لقب أميرة حتى يوم وفاتها ، أما الثانية .. فقد تغير لقبها من أميرة إلى سلطانة .. والسبب رجع فى الأساس إلى اختيار حسين كامل حاكماً لمصر بدرجة سلطان إنجليزى .

ولقد لاحظنا من خلال البحث الدؤوب عن تاريخ عائلة هاتين الزوجتين .. أن الأولى كانت ابنة عـم حـسين كامل .. فأبوها كان الأمير أحمد رفعت باشا .. أخو الخديوى إسماعيل ، والذى لولا وفاته لأصبح هو خديوى مصر بدلاً من إسماعيل ، ولذلك نجد روايات كثيرة تربط بين رغبة إسماعيل فى الفوز بالحكم من بعد عمه محمد سعيد باشا ، وبين حادث اغتيال أخيه الأمير أحمد رفعت أكبر أبناء الوالى إبراهيم باشا ابن محمد على ، والذى كان من الواجب أن يعتلى العرش بحكم القاعدة والأعراف الوراثية التى نظمت حكم أفراد أسرة محمد على ، من بعده حيث كان يتولى الحكم الابن الأكبر دائماً ولسوف نسوق قصة هذا الاغتيال حين نتحدث بالتفصيل عن الزوجة الأولى للسلطان حسين كامل .

أما فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة عن عائلة الزوجة الثانية .. فقد لاحظنا أن وثائق قصر عابدين لم تحدثنا عن أصلها أو نسبها .. كما لم تحدثنا كذلك عن موعد هذا الزواج .. ولكن ، وبالرجوع إلى سياق أحداث هذا الزمان .. بل والركون إلى تاريخ ميلاد أولاد ذلك الحاكم من تلك الزوجة نستطيع أن نؤكد أن السلطان « حسين » تزوج للمرة الثانية بعد عامين فقط من طلاق زوجته الأولى ، والتى قضى معها اثنتى عشرة عاماً .. وواضح من اسمها كما سنتلوه بعد قليل أنها كانت امرأة تركية وليست مصرية .. وربما أراد حسين كامل بهذه الزيجة أن يقنع الامبراطورية العثمانية بأنه أحق بالحكم من غيره خاصة ، وأنه كان يعتقد أن الأريكة الخديوية كانت من حقه قبل تولى أخيه توفيق .

لقد تزوج السلطان حسين من امرأته الثانية وهى من الآستانة .. أما الأولى فكانت امرأة مصرية حتى ولو بمكان الميلاد فقط ؛ لأنها كانت تنتسب فى الأصل إلى أسـرة محمد على باشـا جـدها الكبير مثلما هـو جد السلطان حسـين أيضـاً .

ولمزيد من التفاصيل تعالوا بنا نقترب من تلك الوثائق التى حدثتنا عن أسماء هاتين الزوجتين .

* الزوجة الأولى :

وهى الأميرة **عين الحياة أحمد** .. كريمة الأمير أحمد رفعت باشا من زوجته الأميرة « دلبر جهان قادين » .. وُلِدَتْ الأميرة عين الحياة فى الخامس من أكتوبر عام ١٨٥٨ .. وتزوجها حسين كامل ، وهو ما يزال أميراً فى الخامس عشر من يناير عام ١٨٧٣ .. ثم طلقها عام ١٩١٠ فى الثانى عشر من أغسطس ..

وحين اللجوء للقاعدة الحسابية .. نكتشف أن « حسين كامل » قد قضى مع هذه الزوجة قرابة ١٢ عاماً .. إذ تزوجها وهو فى سن العشرين من عمره .

وأنجب حسين كامل من هذه الزوجة وكما تذكر وثائق القصر الملكى أربعة أبناء : أميرين وأميرتين هم بالترتيب :

*** الأمير كمال الدين .. الذى وُلِدَ فى العشرين من ديسمبر عام ١٨٧٤ .**

*** الأميرة كاظمة .. وولِدَتْ فى السادس عشر من يولية عام ١٨٧٦ .**

*** الأميرة كاملة .. وُلِدَتْ فى عام الثانى عشر من أكتوبر ١٨٧٧ .**

*** الأمير أحمد كاظم .. الذى وُلِدَ فى الواحد والعشرين من أبريل عام ١٨٧٩ .**

وتقول نفس الوثائق ان حرف « الكاف » قد طبع أسماءهم بطابع خاص .. فالأب اسمه كامل ، وابناه كمال الدين وكاظم ثم بنتاه : الأميرة كاظمة وكاملة .

والحديث عن هذه الزوجة بعيداً عما ذكرته الوثائق الرسمية يرتبط .. بأمرين : الأول : أنها ابنة الأمير أحمد رفعت باشا أخو الخديوى إسماعيل الذى اغتيل فى حادث السكة الحديد .. أما الأمر الثانى .. فهو ارتباط هذه الزوجة بأحداث « أفراح الأنجال » . ذلك اليوم الذى خصصه الخديوى إسماعيل للاحتفال بزواج أولاده الذكور .. حسين كامل ، ومحمد توفيق ، والأمير حسن ، وأيضاً زواج أبناءه البنات الأميرات فاطمة ، وأمينة ، ولسوف يكون لنا مع كل من هذين الأمرين وقفة قد تطول ، وقد تقصر حسبما يتوافر لدينا من معلومات موثوق بها .

بالنسبة للحديث عن الأمر الأول والخاص بزواج الأمير حسين كامل من ابنة عمه أحمد رفعت باشا .. ذلك الأمير الذى كان مرشحاً لتولى عرش مصر خلفاً لعمه محمد سعيد ، نقول : ربما شعر إسماعيل بذنب التخلص من أخيه فى حادث انقلاب قطار كفر الزيات حتى يخلو أمامه الطريق لتولى عرش مصر .. فأراد ألا يحرم أبناء أحمد رفعت من الاقتراب من حكم مصر والفوز بالعرش فى يوم ما .. وبالتالى فقد اختار الأميرة « عين الحياة » كزوجة لابنه الأكبر حسين كامل . وبالفعل قَبِلَ الابن تحقيق رغبة أبيه .. فتزوجها وعاش معها ١٢ عاماً .

لقد أكد بعض المؤرخين أن إسماعيل كان مدبراً وفاعلاً أصيلاً فى حادث انقلاب قطار الأمراء من أقاربه والذى كان فيه أخوه الأكبر أحمد رفعت .

ولعلنا فى هذا المقام نترك التاريخ يروى لنا تفاصيل هذا الحادث : لقد كان الأمير أحمد رفعت ابن الوالى إبراهيم باشا ، وأكبر أبنائه متوجهاً إلى مدينة الإسكندرية ومعه خمسة وعشرين أميراً آخرين من الأسرة المالكة لحضور احتفالاً

ملكياً أقامه الوالى محمد سعيد باشا ، وعند عودتهم انقلب بهم القطار عند مدينة كفر الزيات ، فمات جميع مَنْ فيه ، وكان الخديوى إسماعيل قد اعتذر عن عدم حضور هذا الحفل لمرض ألمَّ به فجأة .

وهذا يؤكد فعلاً اشتراك إسماعيل فى تدبير هذا الحادث ـ كما سبق وذكرنا ـ لكى يتولى حكم مصر من بعد رحيل أبيه الوالى إبراهيم باشا .. باعتباره الابن الأكبر الثانى للوالى أو الابن الرشيد أو أرشد العائلة وفقاً لقاعدة توارث نظام الحكم .

ولكى نكون منصفين فيما رويناه عن علاقة زواج السلطان حسين كامل ابن إسماعيل من ابنة الأمير المقتول أحمد رفعت .. نحب أن نؤكد أن ما وصلنا إليه من استنتاج هو خاص بنا .. ولم يشر إليه أحد من قبلنا .. ومن يريد التأكد من هذه العلاقة عليه قراءة أحداث التاريخ جيداً ، ويحاول الربط فيما بينها .

أما الأمر الثانى الذى يتعلق بهذا الزواج فهو ما أُطلق عليه فى حينه من لفظ « أفراح الأنجال » .. هذا الزواج الأسطورى الذى استمر أربعين يوماً وشاركت فيه مصر كلها .. وقد سبق لنا وأن قدمنا عبر أوراق الفصل السابق .. كيف شاهد رئيس ديوان الخديوى هذه الاحتفالات الأسطورية وسجل بعض لقطاتها كمشاهد حية فى مذكراته الشخصية .

بل أكثر من ذلك هناك عشرات الروايات الأخرى التى تحدثت عن « أفراح الأنجال » ومظاهره وكيف شارك فيه آلاف المصريين الذين سارعوا لعقد قران أولادهم فى هذا اليوم احتفالاً بهذه المناسبة الخديوية ! .. حتى لتظن أن كل أبناء مصر قد تزوجوا فى يوم الاحتفال « بأفراح الأنجال » .

وتكريماً لهذه المناسبة أصدر الخديوى إسماعيل فرماناً خديويا بأن يطلق اسم أفراح الأنجال على أحد شوارع القاهرة القريب من قصر عابدين .. والغريب أن اسم الشارع لا يزال على ما هو عليه إلى الآن فى حى المنيرة .

إن أحد شهود عيان على هذه الاحتفالات وهو أحمد شفيق باشا .. رئيس ديوان الخديوى قد خصص فصلاً كاملاً من مذكراته للحديث عن مظاهر احتفالات « أفراح الأنجال » ، والتى استمرت أربعين يوماً ، وشارك فيها كل الفنانين المصريين ، كما دعى إليها الآلاف من الناس ، ثم عُطلت المدارس حتى صار هذا اليوم عيداً قومياً .

*** * الزوجة الثانية :**

تقول نفس الوثائق عن الزوجة الثانية للسلطان حسين كامل : إن اسمها « ملك جشم آفت » .. التى اشتهرت فى التاريخ المصرى بلقب « السلطانة ملك » . وذكرت تلك الوثائق ، بالإضافة إلى ذلك أن عظمة « السلطانة ملك » كان لها وقف بمركز المحلة الكبرى مساحته ١٢١٤ فداناً .. صُدِرْ منها فى الثالث من أبريل عام ١٩١٦ .

وقد رُزِق منها السلطان حسين كامل بثلاث أميرات هن :

* **الأميرة قدرية التى وُلِدَت فى العاشر من يناير عام ١٨٨٨ .**
* **الأميرة سميحة ووُلِدَت فى السابع عشر من يوليه عام ١٨٨٩ .**
* **الأميرة بديعة التى وُلِدَت فى الرابع من يوليه عام ١٨٩٢ ، وهى زوجة محمود فخرى .. وقد توفيت فى الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩١٣ .**

وبعيداً عما ذكرته هذه الوثائق .. اكتشفنا أن السلطانة « ملك » لم يكن لها أى نشاط سياسى أو اجتماعى يذكر على المستوى القومى .. اللهم إلا

حياته فى عالم الأزواج والاقتران بالنساء بامرأة واحدة فقط .. كانت تنسب مثل غيرها من نساء أعمامه إلى الأسرة العلوية ، وهى الأميرة « شويكار » ابنة الأمير أحمد رفعت باشا .. وكلمة شويكار هى فى الأصل كلمة تركية ـ مكوّنة من مقطعين هما « شيوه كار » .. ثم حرفت حين نقلت إلى اللغة العربية وصارت « شويكار » ! .

ولكن وابتداء من عام ١٩١٩ .. عاود القدر المحتوم الذى كان ينتظر إشارة البدء لهدم أركان ملكية محمد على لممارسة هوايته فى الزحف نحو قصور عابدين ، والقبة ، وحلوان ، والجزيرة ، وذلك حين أقدم السلطان أحمد فؤاد على الاقتران من زوجة ثانية هى الآنسة « نازلى » ابنة إحدى وصيفاته فى القصر الملكى .

هذه الزوجة كانت ـ فعلاًـ من خارج القصور .. ولم يكن لها نصيب وافر ـ كما سوف نرى ـ من النسب الملكى ، وبذلك كسر السلطان أحمد فؤاد قاعدة أجداده الذين كانوا لا يصاهرون إلا الملوك والسلاطين سواء داخل مصر أو خارجها .

ومعنى كسر هذه القاعدة هو أن « الحريم الشعبى » قد اقترب فى هذه الفترة من « الحريم السلطانى » .. حتى تقابلا سويًا داخل قلب وعقل كل من كان له صلة من قريب أو بعيد بالملكية المصرية فى العصر الحديث بدءاً من عام ١٩١٩ .. وحتى عام ١٩٥٢ .. عام الرحيل الأخير الذى شهد إسدال الستار على ملكية محمد على إلى الأبد .

لقد فتحت الآنسة « نازلى » الباب على مصراعيه لدخول « الحريم الشعبى » أو أفراد منه إلى « الحريم السلطانى » حتى من بعد رحيل الملك

فـؤاد .. إذ امتـد هـذا الزحـف وبلغ ذروته أيام ابنهـا فـاروق الذى اقتـرن من امرأتين من عامة الشعب أو من « الحريم الشعبى » .

* * *

وبعد هـذا التوضيح كان علينا العـودة للحديث عن زوجتى السـلطان أحمد فؤاد .. باعتباره لا يزال محسوباً على المرحلة الثالثة من مراحل حكام أسرة محمد على ، وهى المرحلة السلطانية التى بدأت بعصر السلطان حسين وكما سبق ، وأوضحنا فإن الأمير أحمد فؤاد تزوج من امرأتين ، مثلت كل منهما مرحلة من مراحل حياته .

فالزوجة الأولى .. وهى الأميرة شويكار .. تزوجها أحمد فؤاد ، وهو فى سن السابعة والعشرين من عمره .. وكان وقتها من أصغر أمراء أسرة الخديوى إسماعيل .. أما زوجته الثانية فهى السلطانة « نازلى » .. التى تزوجها بعد توليه السلطنة المصرية بعام واحد فقط ، وبالتالى فقد جمع بين زوجتين فى ظرفين تاريخيين مختلفين ، ولما كان لكل زواج قصة ـ لن نرويها على سبيل التسلية ـ فقد عقدنا العزم على تخصيص بقية أوراق هذا الفصل للحديث عن الزوجة الأولى ـ الأميرة والأمير ـ ثم نرجئ بقية الحديث عن الزوجة الثانية للفصل القادم .

* الزوجة الأولى :

تقول الوثائق التاريخية : إنه فى عـام ١٨٩٥ تزوج صـاحب الدولة « البرنس أحمد فؤاد » فى العهد الماضى من البرنسيسة شويكار هانم شقيقة أحمد سيف الدين .. ولم تَقُمْ الزوجية على وفاق ، رغم أنه أعقب منها سمو الأميرة فوقية قرينة معالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس[1] .

---

(١) اللطائف المصورة فى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٣٧ (ص ٦٠) .

وحين استبدل الأمراء مرتباتهم بالأراض استلم أعضاء الأسرة ربما أكثر مما كانوا قد أعطوه » .

ولا شك أن هذا الإفلاس الذى عانى منه الأمير أحمد فؤاد ـ باعتباره أحد أبناء الخديوى إسماعيل الذى رهن كل أملاكه وأملاك مصر سداداً لهذه الديون ـ جعل منه أميراً يبحث فى كل اتجاه عن مصدر تمويل مضمون لمصروفاته .. خاصة ، وأنه رغم هذا الإفلاس كان أميراً مقامراً كثير الاستدانة مثل والده إسماعيل .

وبطبيعة الحال ، لم يكن أمامه سوى طريق واحد للخروج من أزمته المالية وهو البحث عن امرأة ثرية يتزوجها .. وكانت هذه المرأة هى الأميرة شويكار .. ولمزيد من التفاصيل عن تلك الرواية نترك التاريخ يحدثنا عنها بالقول المدقق .

يقول راوى التاريخ تحت عنوان « أمير مفلس » : كان ذلك فى عام ١٨٩٥ حين انتقلت الأميرة « شويكار » من سراى الجزيرة إلى منطقة الزعفران حيث يوجد قصر زوجها الأمير أحمد فؤاد .. والأميرة « شويكار » هى حفيدة إبراهيم باشا بن محمد على .. ووالدتها كانت أميرة تركية عثمانية تنتمى بصلة ما للبيت العثمانى فى استانبول .. تدعى الأميرة « نجوان هانم » .. وكانت كثيراً ما تقيم هناك فى الآستانة .

وكان الأمير أحمد فؤاد وقتها فى السابعة والعشرين من عمره ، وهو أصغر أنجال « الخديوى إسماعيل » .. وكان معروفاً فى أوساط العائلة الملكية أن هذا الأمير شاب مفلس كثير الاقتراض وسكير ومقامر .. وهى شهرة تعدت الأوساط الملكية إلى رجل الشارع العادى ، لقد كان يركب الحانطور ولا يدفع الأجرة .. ويطرق منازل أصدقائه ليلاً ليطلب الطعام !! . وكان هذا كله طبيعياً ، لأنه ابن الخديوى إسماعيل .. الذى اشتهر وأولاده وأحفاده بحب

الأموال ، واقتناء المساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية ، حتى أحفاده وأولاده بعد رحيله قد اشتهروا باغتصاب الأوقاف الخيرية والأهلية .. بل إنهم لم يتعففوا حتى عن السرقات الصغيرة[1] ، والسبب فى ذلك معروف .. فقد انتقلت أملاك إسماعيل إلى ملكية الدولة بموجب قانون التصفية الذى صدر قبل عزله عن عرش مصر ، وذلك تسديداً للديون الشخصية ، التى كان قد اقترضها من الأجانب ؛ وبهذا لم يترك لأولاده ثروات موروثة تكفيهم للحفاظ على هيبة الإمارة ، فأصبح الشاغل الأول لكل من يجلس على العرش من بعد إسماعيل هو استرداد الميراث الذى استولت عليه الدولة .

ويؤكد راوى التاريخ أنه لإثبات حاجة هؤلاء الأمراء إلى الأموال ورغبتهم فى استعادة الميراث الضائع فإن الأمير أحمد فؤاد ـ الذى لم يرث عن أبيه سوى ٨٠٠ فدان فقط ـ استطاع أن يصل بها بعد توليه الحكم إلى ٣٥ ألف فدان ، فضلاً عن ٤٥ ألف فدان من أراضى الأوقاف ، وثروة نقدية لا تقل عن ٤ ملايين من الجنيهات .

والغريب فى الأمر أنه ورغم هذه الأراضى الثمانمائة التى ورثها أحمد فؤاد عن أبيه فقد كان فى عداد الفقراء والمفلسين ، بالقياس إلى ما كان يملكه غيره من أمراء الأسرة الحاكمة ! . ولعل ذلك كان الدافع الحقيقى الذى جعله يسعى لاصطياد قلب الأميرة « شويكار » حفيدة إبراهيم باشا الذى لم تصادر أمواله .

وخلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة الزوجية .. صح ما توقعه كل من حوله ، وتأكد لهم أن هذه الزيجة كانت من وجهة نظر أحمد فؤاد مجرد صفقة مالية ، وقد استطاع ذلك الأمير المفلس أن يحصل على توكيل من

---

(١) حكايات من دفتر الوطن ـ صلاح عيسى ـ جريدة الوفد فى ١٩٩١/٧/٤ .

وفى داخل هذا القصر .. أمر الأمير أحمد فؤاد بسجنها ، ووضع أمام أبواب هذا السجن حرّاساً شداداً .. كما منعها من الاتصال بأحد سواء داخل القصر أو خارجه .

ورغم هذا السجن وقسوة المعاملة بداخله تمكنت « شويكار » من تهريب رسائل إلى عمتها « عين الحياة » الزوجة السابقة للسلطان حسين كامل .. وقد أرفقت بواحدة من هذه الرسائل بلاغاً إلى حكمدار القاهرة الإنجليزى « هارفى باشا » .. قالت فيها : إنها سجينة فى قصر الزعفران ، وإن زوجها يعاملها بقسوة ويهددها مما يجعلها غير آمنة على حياتها ، وطلبت اتخاذ إجراءات صارمة ضد زوجها .

وبعد أربعة أيام سلمت العمة « عين الحياة » بلاغاً آخر من « شويكار » إلى الحكمدار الانجليزى بنفس المعنى السابق ؛ لذلك أخذ الحكمدار يدرس هذا الموقف الشائك مع النائب العام ووزير الحقانية . ولكنها للأسف تراجعت فى آخر لحظة بعد أن نجحت فى الحصول من الأمير أحمد فؤاد على تعهد بتركها تغادر قصر الزعفران إلى القاهرة فى أى وقت تشاء .

والغريب فى رواية التاريخ لقصة زواج الأمير أحمد فؤاد من شويكار أن العلاقة بين الزوجين قد انتهت بمأساة .. حيث لم تجد الأميرة شويكار من وسيلة تتخلص بها من هذه المعاملة السيئة .. وبالتالى الخروج من سجن زوجها الأمير أحمد فؤاد سوى أن تدفع أخيها الأمير سيف الدين لإطلاق الرصاص عليه ، وقتله ..

وفعلاً ، وكما تؤكد هذه الرواية أنه فى يوم السبت السابع من مايو عام ١٨٩٨ توجه الأمير سيف الدين إلى « الكلوب الخديوى » .. ذلك المكان الذى كان يرتاده الأمير أحمد فؤاد يومياً .. ومكانه الآن شارع رشدى القريب

من ميدان التحرير ، ومن باب « الكلوب » اتجه الأمير سيف الدين إلى صالون الدور الأول حيث كان يجلس أحمد فؤاد ، وفى سرعة البرق وَجَّهَ إليه سيف الدين فوهة مسدسه فأصابه بثلاث رصاصات استقرت واحدة فى فخذه ، والأخرى فى بطنه ، وطاشت الثالثة .. ورغم ذلك فقد فشل سيف الدين فى اغتيال زوج أخته الأمير فؤاد .. وكانت النتيجة .. هى محاكمة سيف الدين .. وطلاق أخته الأميرة « شـويكار » .

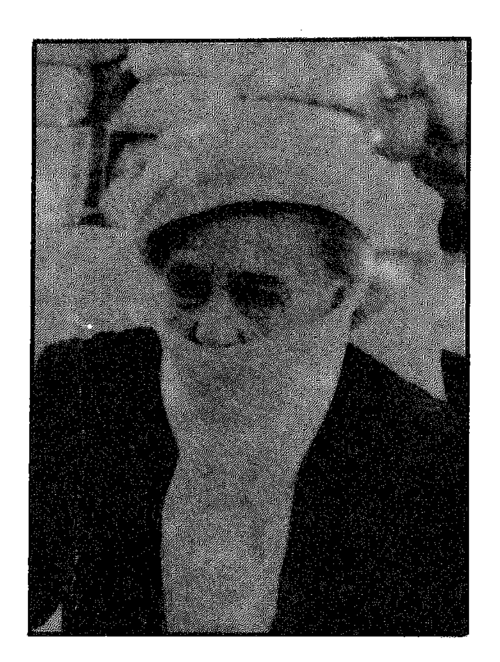
* * *

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا ـ ويرتبط بما سبق وذكرناه عن بداية انهيار حكم أسرة محمد على ، على يد النساء ـ هل اكتفت « شويكار » بهذا القدر من الأحداث التى ارتبطت بعلاقتها بزوجها السابق الأمير أحمد فؤاد ؟ ! . وأخذت فى الابتعاد عن الحياة الاجتماعية والعيش لحياتها مع غيرها من الأزواج ! .. أم ظلت الأحقاد الدفينة تجاه الأمير الذى عذبها تؤرق حياتها .. إنتظاراً للتعبير عنها فى الواقع ؟ ! .

وللإجابة على هذا السؤال كان علينا أن نرجع مرة أخرى إلى روايات التاريخ المقبولة ، والتى نقلت إلينا كيف عبرت الأميرة المعذبة « شويكار » عن حقدها المدفون فى صدورها تجاه ذلك الأمير حتى بعد رحيله ، وبطبيعة الحال . لم يكن أمامها على هذا الطريق سوى ابنه الملك فاروق .. الذى خصته بنصف ثرواتها قبل رحيلها .. فى مقابل انتقامها منه ، ومن زوجته الملكة فريدة ، ومن أمه الملكة نازلى .

ورواية التاريخ هذه المرة ، جاءت على لسان الملكة فريدة التى شهدت جزءاً من تاريخ انتقام « شويكار » من أسرة زوجها السابق ، لقد ذكرت فى أوراقها الخاصة بالحرف الواحد تحت عنوان « وكر الشيطان » : « فلم تنس الأميرة

ملحق صور الفصل الرابع



السلطانة ملك

أشهر صور السلطانة والأميرة والملكة



السلطانة ملك .. زوجة السلطان حسين كامل الثانية .. أثناء ركوبها الباخرة في إحدى رحلاتها الخارجية .



الأميرة « شويكار » زوجة الأمير فؤاد .



السلطانة « نازلى » .. تستعد لركوب عربتها الخاصة فى طريقها إلى سجن قصر القبة .

الفصل الخامس

سجينة في قصر القبة

نستطيع القـول بأنه ابتـداء من عـام ١٩١٩ ـ وبالضـبط من اليـوم الرابع والعشرين من مايو حين استقرت الآنسة نازلى فى قصر القبة عروساً جديداً للسلطان أحـمـد فـؤاد ـ تمكنت المرأة التى اندرجت تحت مـسـمى « الحـريم الشـعبى » من الاقـتراب كثيراً من « الحريم السلطانى » . أو بمعنى آخـر .. حدث نـوع من الالتقاء فى منتصف طريق الحرية بين النوعين من الحـريم .

ولتفسير ذلك نقول : إن الآنسة « نازلى عبد الرحيم صبرى » التى تحولت خلال عدة أشهر من مجرد فتاة كانت أمها تعمل وصيفة فى القصر الملكى وأبوها محافظاً لأحد الأقاليم بوسط الدلتا إلى سلطانة تجلس على عرش مصر بجوار زوجها .

هذه الفتاة جاءت من صفوف الحريم الشعبى ، وانضمت فى ذات الوقت إلى الحـريم السلطانى الذى بـدأ يندثر فعلاً ، رغم استـقـراره فى أذهان بعض أمـراء هـذا الزمان .. وليس معنى أنها كانت تندرج تحـت مسمى « الحـريم الشـعـبى » أنهـا قـدمت من باب الشـعـرية أو بولاق أو حـتى الزمـالك ، بل المـقـصـود هنا أنهـا كانت امرأة غير منتمية إلى الأسـرة الملكية ، ولم تمت بصلة لتلك الأسـرة من قريب أو بعيد .. لذلك فهى قد كسرت قاعدة الملوك الـذين لم يكونـوا يتزوجـون إلا من العـائلات والأسـر الملكية سـواء فى مصر أو فى خارجها .

ونقول : إنها قد كسرت قاعدة زواج الملوك المصريين .. لأنها فتحت الأبواب على مصراعيها لفتيات الشعب وأبناء « الحريم الشعبى » للدخول فى المعية الملكية أو السلطانية .. ليس كوصيفة أو كجارية كما كان يحدث منذ مائة عام مثلاً .. بل دخلت القصور الشاهقة واخترقت أبواب الحريم السلطانى كزوجة شرعية للملك .. بل وباعتراف القانون والدستور .. فقد لحق بها كل من الآنسة « صافيناز ذو الفقار » والآنسة « ناريمان صبرى » .. زوجتا الملك فاروق .. وهما زوجتان قد قدمتا أيضاً من خارج القصور الملكية .. أى من « الحريم الشعبى » ، ثم انضمتا بإرادتهما إلى « الحريم السلطانى » .

وحتى نكون منصفين فى القول نوضح أن اقتراب كلٍّ من « الحريم الشعبى » و « الحريم السلطانى » لدرجة الاختلاط ، وضياع الملامح الخاصة بكل منهما نتيجة هذا الاختلاط المندمج بقوة لم يكن بإرادة « نازلى » أو غيرها من بنات هذا الزمان ، ولكنه كان نتاج ذلك التطور المستمر فى أحوال المرأة والتى بدأت تتحسن بشكل كبير مع مطلع القرن العشرين ولولا هذه النداءات المتكررة التى أخذ يصدرها قاسم أمين ورفاقه من رواد حركة تحرير المرأة لظلت تلك المسكينة دهوراً طويلة تعيش خلف جدران النسيان سواء فى « الحريم الشعبى أو السلطانى » .

ودليلنا إلى ذلك أن المرأة المصرية بشكل عام قد خرجت بقوة فى هذه الفترة كى تشارك فى صنع تاريخ مصر .. سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى .

وبما أننا قد ذكرنا عام ١٩١٩ .. ذلك العام الذى تزوجت فيه « نازلى » واقتربت من عرش السلطان فلابد لنا وأن نذكر كذلك دور المرأة فى الثورة الشعبية الأولى التى قادها سعد زغلول ضد السلطان أحمد فؤاد الذى يرجع إليه الفضل فى رفع المرأة الشعبية إلى مصاف « الحريم السلطانى » .

ولن يكون لنا فى هذا الأمر حديث طويل ، فقد تناولناه بتفصيل كبير فى كتاب صدر لنا بعنوان « النساء ولعبة السياسة » ، ولكن كل ما فى الأمر أننا سوف ننوه عن أشهر السيدات اللائى اشتركن فى صنع هذه الثورة ، وفى إشعال وقودها فى طول مصر وعرضها ، فهناك السيدة « صفية زغلول » التى قادت جمع الثائرين بعد اعتقال زوجها ونفيه خارج مصر .. وهناك السيدة « هدى شعراوى » رائدة الحركة النسائية الشعبية ، وهناك السيدة « سيزا نبراوى » رائدة حركة تعليم المرأة ، وغيرهن كثيرات امتلأت صفحات التاريخ بأسمائهن كرائدات فى العمل الوطنى .

ولم يكن هذا الأمر قاصراً على فترة عام ١٩١٩ .. بل كان خروج امرأة « الحريم الشعبى » للمشاركة فى صنع هذا التاريخ المصرى الخالص .. سبّاقاً على خروج نظيرتها من « الحريم السلطانى » ، وقد سبق لنا وأوضحنا ذلك فى الفصول السابقة من هذه الأوراق .

وهناك نقطة رأينا ضرورة توضيحها قبل الانتقال للحديث عن رائدة « الحريم الشعبى والحريم السلطانى » الآنسة « نازلى عبد الرحيم » ثم السلطانة والملكة الأم « نازلى » ، وهى أنه رغم اختفاء صنف الحريم سواء من الحارات الشعبية أو من الشوارع أو داخل القصور إلا أن « سى السيد » قد بقى لسنوات طويلة ـ حتى بعد هذا التاريخ ـ قابعاً فى ذهن الرجال ، رغم استسلامهم لحركات التطور ولثورة النساء .

لقد ظل الرجال ينظرون إلى المرأة رغم هذا التطور على أنها ما زالت من « حريمه » الخاص داخل المنزل فقط ، أو خلف جدران القصور ، ومع ذلك فلم يكن لديه مانع أبداً من أن يصاحب غيرها من نساء الهوى أو بنات الليل وكانت امرأة ذلك الزمان مسئولة عن هذا الوضع وهذا السلوك ، ويبدو أنها لم

تكن ترغب فى الحصول على المزيد حفاظًا على كونها أُنثى ، وأيضاً كونها حريما .. فكان رد الفعل لديها بسيطاً للغاية ، ولم يؤثر فى تغيير نظرة ذلك الرجل الذى يقف خلف ظل « سى السيد » .

* * *

إننا ـ الآن ـ نقف بالقرب من قصر القبة ، ومن قبله كنا عند مشارف قصر عابدين نرصد تلك الاستعدادات التى كانت على أشدها من أجل استقبال « سلطانة » اليوم و « ملكة » الغد ، زوجة السلطان أحمد فؤاد « نازلى عبد الرحيم صبرى » .

وأثناء بحثنا عن وصف دقيق للاحتفالات التى صحبت حفل زفاف نازلى من السلطان ، فقد وجدنا هذا الوصف منشوراً فى مجلة آخر ساعة عام ١٩٣٧ .. بمناسبة زفاف الملك فاروق على زوجته الأولى « صافيناز » .

ذكرت المجلة تحت عنوان عقد قران جلالة الملكة « نازلى » عبارة قالت فيها بالنص : كتب هذا المقال أحد موظفى خاصة المغفور له الملك فؤاد وكان من الذين شاهدوا حفل عقد قران جلالته[1] ، وقد وصف لنا هذا الموظف هذا الحفل بكل دقة ، والسبب الرئيسى الذى ربما دعا المجلة إلى اللجوء لهذا الوصف ، هو أن حفل الزفاف تم عام ١٩١٩ وفى عنفوان أحداث الثورة المعروفة ، لذلك ربما لم ينشر عن هذا الحفل فى حينه الشئ المفصل أو الشئ الذى نفهم منه كيف كان حال هذا الحفل الملكى الكبير .. خاصة وأنه كان احتفالاً بالزواج الثانى للملك فؤاد .

أما عن تفاصيل هذا الوصف ، فسوف ننقله بكل حروفه وكلماته من المجلة المذكورة .. ومن بعده سيكون لنا التعليق .

---

(١) مجلة آخر ساعة المصورة العدد ١٦٠ الصادر عام ١٩٣٧ .

يقول شاهد حفل الزفاف الملكى فى هذا الوصف :

« كان المغفور له « عبد الرحيم باشا صبرى » مديراً للمنوفية من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩١٧ ، وفى تلك الأثناء توطدت العلاقة بين المغفور لهما جلالة الملك « فؤاد » و « عبد الرحيم باشا صبرى » ، ولما تولى الملك « فؤاد » سلطنة مصر عيَّنَ « عبد الرحيم صبرى » محافظًا للعاصمة ، وطلب المغفور له الملك فؤاد من عبد الرحيم باشا يد ابنته الكبرى الآنسة « نازلى » .

ومع أن الملك فؤاد كان سلطانًا على البلاد ؛ إلا أن المغفور له « عبد الرحيم باشا صبرى » لم يقبل أن يَبتَّ فى الموضوع إلا بعد استشارة كريمته وجعل لها الرأى الأول والأخير ، ولما عرض عليها ذلك الأمر قبلت الآنسة « نازلى » .

ومن المصادفات الظريفة على حد شاهد حفل القران أن الوزارة استقالت قبل عقد قران الملك « فؤاد » بثلاثة أيام ، وألف المغفور له « محمد سعيد باشا » الوزارة الجديدة ، واختار المرحوم « عبد الرحيم باشا صبرى » وزيراً للزراعة ، وقد يدهش القراء إذا علموا أنه رفض دخول الوزارة وقال : إنه يفضل منصب محافظ مصر على منصب الوزير ، وأنه لا يحب الاشتغال بالسياسة ، وأخيراً تدخَّل المغفور له الملك فؤاد وألحَّ على عبد الرحيم باشا حتى قَبِلَ دخول الوزارة .

وفى موضع آخر من شهادة موظف القصر الذى حضر حفل زفاف السلطان أحمد فؤاد على الآنسة « نازلى » قال يصف لنا هذا الحفل :

وفى صباح يوم السبت الرابع والعشرين من مايو ١٩١٩ كنت ترى أمام سراى البستان صفوفًا من السيارات والعربات .. فإذا سألت عن الخبر قيل لك هذا « فرح السلطان » ، وقد كان فرح السلطان بسيطًا للغاية .. فقد جلس المدعوون فى القاعة اليمنى بالسراى ، وكان يستقبلهم صاحب المعالى محمود باشا شكرى رئيس الديوان الملكى فى ذلك الحين .

وكان المنتظر أن الذى سوف يتولى صيغة (صياغة) العقد هو الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر خصوصاً ، وأنه قبل ذلك اليوم بعشرة أيام تقريباً ، تولى صيغة العقدين لسمو الأميرة فوقية ومعالى محمود فخرى باشا .. ولكن الشيخ أبا الفضل كان مصاباً ببرد شديد ، وأراد أن يخرج رغم ذلك لعقد القران فلما علم بذلك السلطان منعه من الحضور .

وباشر صيغة العقد مكانه صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد ناجى رئيس المحكمة العليا الشرعية فى ذلك الحين بحضور الشيخ أحمد هارون رئيس محكمة مصر الابتدائية فى ذلك الوقت .

ورفض المغفور له الملك أحمد فؤاد أن يعيِّن لنفسه وكيلاً .. بل أصر على قبول العقد لنفسه بنفسه إجلالاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، وكان الوكيل عن جلالة الملكة نازلى والدها .. كما كان شاهداً على العقد محمود باشا شكرى رئيس الديوان العالى السلطانى ، وسعيد باشا ذو الفقار كبير أُمناء الحضرة المعظمة السلطانية فى ذلك الحين .

وحضر هذا الحفل أصحاب السمو الأمير كمال الدين حسين[١] ، والأمير محمود حمدى ، والأمير حيدر حجازى ، والأمير يوسف كمال ، والأمير عمر طوسون ، والمغفور له محمد سعيد باشا رئيس مجلس الوزراء فى ذلك الوقت ويوسف وهبه باشا ، وتوفيق نسيم باشا ، وأحمد ذو الفقار باشا وجميع أعضاء الوزارة السعيدية . وحضره كذلك المغفور له أحمد مظلوم باشا بصفته رئيس الجمعية التشريفية ومعالى محمود فخرى باشا ، وكان الأمين الأول للحضرة السلطانية . وكان من بين الحاضرين حسين افندى صبرى وشريف افندى صبرى وكبار رجال الحاشية السلطانية .

---

(١) ابن السلطان حسين كامل .

وقدمت أكواب الشربات الأنيقة وعلب الملبس ، وتفضل المغفور له جلالة الملك وأهدى الشيخ محمد ناجى ساعة من الذهب المرصع بالماس ومبلغ مائتى جنيه ، وقدم كذلك للشيخ أحمد هارون هدية ثمينة ، ولم تقم حفلة زفاف أو مغنى .. بل اكتفى بسهرة خاصة حضرتها شقيقات جلالة الملكة .

وفى اليوم التالى أذاع ديوان كبير الأمناء بلاغاً رسميا جاء فيه : نظر حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد الأول سلطان مصر المعظم بعين الحكمة الغالية الدينية فى وجوب التمسك بما وصى به الدين الحنيف من أمر الزواج ، والاهتمام به عملاً بسُنَّة رسول الله عليه السلام فرأى وفقه الله وأسعد أيامه إنجاز ما عقد عليه عزمه الشريف نحو ذلك ، وتقدم عقد القران السلطانى السعيد بقصر البستان فى صبيحة يوم السبت المبارك الموافق الرابع والعشرين من شعبان سنة ١٣٣٧ ـ الرابع والعشرين من مايو ١٩١٩ على سليلة بيوتات المجد والشرف حضرة صاحبة العظمة السلطانة « نازلى » .

ويختتم شاهد هذا الزواج وصفه بقوله : .. وكانت أول برقية تهنئة من ملك تلقاها المغفور له الملك فؤاد ، هى من چورچ الخامس الملك والامبراطور ، وقد رد عليه المغفور له الملك فؤاد برسالة بعثها من القاهرة إلى لندن .

ومنذ هذه الليلة انتقلت « نازلى » من قصر البستان إلى قصر القبة .. ذلك القصر الذى خصصه السلطان فؤاد لإقامة السلطانة زوجته . ولن نغالى حين نقول : إن فؤاد أراد من وراء وضع زوجته فى هذا القصر الذى كان يقع فى أحد أطراف القاهرة آنذاك .. أن يبعدها تماماً عن حياته الخاصة الأخرى سواء السياسية أو الاجتماعية أو حياة اللهو وسهر الليل مع المحظيات ..

رغم أن « نازلى » كانت تعتبر أول امرأة فى العصر الحديث ، ثم الاعتراف بوجودها سلطانة وملكة فى دستور مصر الذى صدر عام ١٩٢٣ ، وهو أول دستور تشريعى فعلى يصدر لينظم شئون الحكم والسياسة ، لقد كانت فعلاً وقولاً وعملاً ملكة وسلطانة باعتراف الشعب والدستور .. ومع ذلك فقد تحولت إلى سجينة فى قصر القبة .. حيث قضت فيه سبعة عشر عاماً .. ولم تخرج منه إلا بعد رحيل زوجها فى السادس والعشرين من إبريل عام ١٩٣٦ .

ويقول الكاتب الصحفى الكبير محمد التابعى مؤكداً : « وبقيت نازلى سجينة القصر أو فى قفص من ذهب .. سبعة عشر عاماً هى الربيع وخير ما فى العمر وسنوات الصبا والشباب .. وأخيراً تحررت يوم مات « سجانها » الملك أحمد فؤاد ، وكان ربيع عمرها ولّى ومن بعده الصيف أو شك كذلك أو يكاد[١] .

معنى ذلك أن الآنسة نازلى عبد الرحيم صبرى لم تتمتع بحياتها مع ذلك السلطان الذى اتخذها زوجة ثانية له .. بل كانت هذه الزيجة وبالاً عليها .. مما جعلها على حد قول الكاتب الصحفى صبرى أبو المجد ضحية من ضحايا ذلك الملك الذى اختاره الإنجليز وقوات الاحتلال سلطاناً على مصر خلفاً لأخيه السلطان حسين كامل . فهى لم تكن أكثر من فتاة من بنات الشعب كان جمالها وبالاً عليها ، وقد وجدت نفسها وبدون أية مقدمات تساق إلى البلاط السلطانى[٢] .

* * *

وتلك كانت قصة زواج السلطان فؤاد من « نازلى عبد الرحيم صبرى » هذه القصة التى استمرت على مدى سبعة عشر عاماً وقضت منها سنوات

---

(١) من أسرار الساسة والسياسة ـ مصر ما قبل الثورة ـ محمد التابعى .
(٢) سنوات ما قبل الثورة ـ صبرى أبو المجد .

طويلة سجينة القفص الحريرى ، وأستار قصر القبة ، ولم تتنفس نسائم الحرية إلا بعد رحيل زوجها .. فخرجت إلى الحياة كى تبدأ من جديد .

ورغم أن العديد من المؤرخين يعتبرون ما حدث « لنازلى وفؤاد » هو بداية لمشوار طويل رُسمت أولى خطواته منذ ليلة الرابع والعشرين من مايو عام ١٩١٩ ، وانتهت فى ليلة السادس والعشرين من أبريل عام ١٩٣٦ ؛ إلا أننا نعتبر ذلك على خلاف ما تصوروه ، هى النهاية بعينها لأن البداية التى سوف نرويها ـ من أكثر من مصدر ـ توضح لنا كيف رُسمت خطوات هذا الطريق التى اختفت معامله إلى الأبد بعد رحيل ابنها الملك فاروق عن أرض مصر عام ١٩٥٢ ، هذا الرحيل الذى وضع نهاية لأسرة محمد على التى حكمت مصر لأكثر من مائة وسبعة وأربعين عاماً .

وأولى هذه المصادر الموثوقة التى تبصّرنا بالكيفية التى كانت عليها بداية تلك العلاقة ، هو ما جاء على لسان الكاتب الصحفى الكبير مصطفى أمين وما رواه لنا من خلال ما سطره فى أوراقه الصحفية حين قال : « قال سعد زغلول فى حزن لأفراد أُسرته : إن الكارثة التى حدثت هى أن الإنجليز رشحوا الأمير أحمد فؤاد سلطاناً على مصر » .

وبدا أثر النبأ الفاجع على وجه صفية زغلول ، ورتيبة زغلول ، وسعد زغلول إنهم يعرفون أن عميد أسرتهم يكره هذا الأمير ويزدريه ، وكثيراً ما روى لهم أنباء مواقفه المزرية وتصرفاته الشائنة » .

وفعلا ما كاد السلطان أحمد فؤاد يتولى عرش مصر حتى اصطدم بأسرة سعد زغلول فعندما تسلم خطاب سعد زغلول بك الذى يطلب فيه نقله من القصر إلى أى وظيفة أخرى خارج القصر هاج السلطان وماج .

وأرسل السلطان فؤاد إلى سعيد زغلول يبلغه أن يختار بين أن يبقى فى وظيفته فى القصر بمرتبه الحالى وقدره ٤٠ جنيهاً فى الشهر ، أو أن ينقله إلى وظيفة صغيرة بوزارة الحقانية بمرتب قدره خمسة وعشرين جنيهاً أقل من المرتب الذى كان يتقاضاه فى تلك الأيام .

وأُعجب سعد زغلول بموقف ابن أُخته وقال له : إننى سعيد بأن ابنى صفع السلطان على وجهه ، وشعر الشاب سعيد زغلول وهو يسمع إعجاب خاله بالموقف الذى وقفه فى مواجهة السلطان فؤاد ، وتمنّى أن يرى الفتاة التى أحبها لينقل إليها كلمات الإعجاب التى سمعها بأنه هو الذى صفع السلطان على وجهه ! .

فهل تدرون من تكون هذه الفتاة ، إنها الآنسة نازلى التى تزوجها فؤاد وأجلسها بجواره على عرش مصر !! .

ولكن كيف حدث ذلك .. وما هو الدافع الذى أدى بهذا التغيير الخطير إلى هز أركان العلاقة بين سعد زغلول ، والسلطان الإنجليزى الذى جلس على عرش مصر ، والذى قامت أثناء حكمه ثورة ١٩١٩ . هذا ما سوف نعرفه من تتبع دقيق لبقية ما حكاه الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى قال :

« .. وكان سعيد الصغير قد أحب الفتاة الصغيرة « نازلى » وملأت قلبه وفكره وحواسه .. وأحلامه .. فقد كانت طويلة القامة ، رشيقة القد ، بشرتها بيضاء كاللبن ، وشعرها الأسود الطويل ينسدل إلى ما تحت ظهرها ، عيناها سوداوان واسعتان ضاحكتان ، وكان وجهها مُشْرباً بالحمرة فى لون ورد الربيع .

لقد كان سعيد زغلول يشعر بأن شيئاً مجهولاً يجمعهما .. إنها كانت يتيمة مثله .. ماتت أُمها كما ماتت أمه ، وقالت أمها ــ وهى على فراش الموت لصفية زغلول : « أوصيك بنازلى .. اعتبريها ابنتك » .. وعاملتها صفية كأنها

ابنتها فعلاً .. كما تعامل سعيد كأنه ابنها .. وكانت صفية ترسل باستمرار العربة الحانطور إلى بيت « نازلى » فى الجيزة فتحضرها وتمضى اليوم كله مع رتيبة وسعيد ووهيبة ابنة شقيقة صفية » .

وفى موضع آخر من تلك الشهادة يقول مصطفى أمين :

« وكان سعيد يحدث « نازلى » عن كراهيته للعمل فى القصر ، وضيقه بالحياة فى داخل بدلة التشريفة ، وعن رغبته فى أن يترك العمل فى السراى وكانت نازلى تشجعه على أن يخطو هذه الخطوة وتشاركه إيمانه بالحرية وتتعجله أن يترك حياة العبيد داخل القصور ، وانتهز سعيد فرصة غفلة من شقيقته وزوجة خاله فعرض على « نازلى » الزواج فرحبت بالفكرة وشجعته على أن يتقدَّم لخطبتها .

وكان سعيد شابًا طويل القامة ، عريض المنكبين ، جميل الصورة ؛ ولهذا لم يكن غريباً أن تقع نازلى فى هواه ؛ لذلك فاتح سعيد شقيقته برغبته فى الزواج من نازلى ، وطلب إليها أن تتولى إبلاغ صفية زغلول هذه الرغبة لتستأذن سعد زغلول .. فقد كان سعيد لا يجرؤ على أن يتقدم بهذا الطلب مباشرة إلى خاله .. ورحَّبت رتيبة بأن يتزوج شقيقها من صديقتها « نازلى » .. ولكنها قالت : إنها تفضل أن تسأل صديقتها رأيها .. فما كان من « نازلى » وهى تعانق رتيبة أن قالت « موافقة جداً » .

وذهبت رتيبة إلى صفية زغلول وأبلغتها برغبة سعيد فى أن يتزوج نازلى .. فرحبت بهذا الزواج بشرط أن تسأل نازلى عن رأيها قبل أن أعرض الأمر على سعد زغلول ، واستدعت صفية زغلول نازلى إلى غرفة زينتها ، وأغلقت الباب عليهما ، وألقت محاضرة على أن كل فتاة يجب أن تتزوج .. ولكن المهمّ أن يكون الزوج متعلماً ومستقيماً .. وأن « سعيد » يريد أن يتزوجك .. فقالت نازلى : إننى لو تزوجته فسوف أكون أسعد فتاة فى العالم .

وذهبت صفية وأبلغت زوجها سعد زغلول برغبة سعيد فى أن يتزوج نازلى .. وقد حرصت على أن تتقدم إلى سعد بالفكرة على أنها اقتراح من عندها هى .. فوافق سعد زغلول ؛ لأن والد نازلى صديقه ، ولأن أمها كانت صديقة زوجته .. وطلب سعد من صفية أن تسأل الفتاة ـ أولاً ـ قبل أن يتقدم إلى أبيها ويطلب يدها لسعيد .

ومن بعدها ذهب سعد زغلول وقابل والد الفتاة وطلب يدها لسعيد زغلول .. فرحب الأب وقال : إنه سيسأل ابنته « نازلى » ويبلغه الرد .. وتأكد سعد زغلول من أن المسألة انتهت .. فقد كان يعرف من زوجته أن « نازلى » وافقت على هذا الزواج .

ثم انشغل سعد زغلول بوفاة السلطان حسين وبترشيح الأمير أحمد فؤاد سلطاناً على مصر .. ولما تولى هذه السلطنة كان أول قرار أصدره هو أن تتولى الدولة تسديد ديونه ، وبالفعل تولت الدولة تسديد ديون السلطان الجديد .

وذات يوم عرف سعد زغلول أن السلطان الجديد يريد أن يعين عدداً من كبار سيدات مصر وصيفات فى القصر .. وأنه اختار صفية زغلول لتكون وصيفة .. فثار الفلاح فى سعد زغلول وغضب أن يفكر السلطان العازب فى أن يجعل زوجة سعد زغلول وصيفة فى قصره .

وقال سعد زغلول لرسول السلطان وهو ينتفض غضباً :

ـ قل للسلطان .. إن سعد ينصحك أن تتزوج فوراً .

وخرج رسول السلطان فؤاد من عند سعد زغلول مباشرة وذهب إلى السلطان فى قصر عابدين ، وأبلغه غضب سعد زغلول .. وبأنه يرى أن يبادر السلطان بالزواج فوراً » .

ويواصل مصطفى أمين شهادته للتاريخ عن علاقة الملكة « نازلى » قبل زواجها من السلطان أحمد فؤاد بسعيد زغلول .. فيقول :

« .. وذات مساء دعا سعد زغلول صديقه عبد الرحيم صبرى باشا مدير المنوفية لمشاهدة إحدى الروايات فى مسرح « الأوبرا » ، وفى أثناء الاستراحة سأله سعد زغلول :

ـ إنك لم تبلغنى بعد بموافقتك على زواج نازلى من سعيد ..

فتلعثم عبد الرحيم صبرى باشا وأجاب إجابات مبهمة ، وفى اليوم التالى لهذه الدعوة فوجئ سعد زغلول بإعلان خطبة السلطان فؤاد للآنسة نازلى كريمة عبد الرحيم صبرى باشا .. نازلى التى خطبها لابن شقيقته .. والتى رحبت بهذا الزواج .

ونزل النبأ على سعيد زغلول نزول الصاعقة .. لقد قال له سعد زغلول يوم أن استقال من خدمة القصر ، إنه صفع السلطان .. ولكن لم تكد تمضى عدة أسابيع .. حتى تلقّى من السلطان صفعة هائلة .. وأخذ يتذكر ماضيه من فتاة أحلامه التى تركته إلى أحضان السلطان ، وتصور أن ما قالته قارئة الكف لنازلى فى بيت سعد زغلول وأمام عينيه من أنها ستكون ملكة فى يوم من الأيام .. قد تحقق فى الواقع .. ولم يصدق أنها قالت فى هذه الأثناء تعليقاً على هذه النبوءة « مستحيل أن أرضى أن أكون ملكة إلا إذا فقدت عقلى » !! .

« .. ومضت الأيام و « نازلى » لا تتصل ببيت سعد زغلول .. وكانت قبل ذلك تتصل بهذا البيت تليفونيا عدة مرات .. وشعر كل فرد فى هذه الأسرة بأنه مقهور مهزوم ومغلوب على أمره .. فقد أحس سعد زغلول أن كبرياءه جرح ؛ لأن السلطان خطف الفتاة التى اختارها زوجة لابنه بالتبنى .. كما أحست صفية زغلول بصدمة عنيفة .. كأنما اختطف السلطان ابنتها .

وصدق ما أُذيع وقتها بخصوص هذا الأمر .. فقد تم عقد زواج السلطان فؤاد من الآنسة نازلى عبد الرحيم صبرى .. ولم يذهب أحد من هذه الأسرة إلى بيت نازلي يهنئها بالخطبة أو بهذا الزواج » .

وبعد ذلك وكما يقول مصطفى أمين فى شهادته : ظهرت الحقيقة حقيقة ما عزم عليه السلطان فؤاد تجاه سعد زغلول .. فعندما ذهب مبعوث السلطان أمين يحيى باشا إليه فى قصر عابدين وأبلغه بأن سعد زغلول ينصحه بأن يتزوج فوراً ، اعتقد السلطان فؤاد أن بقاءه أعزب هو ثغرة يمكن أن ينفذ منها خصومه للطعن عليه مستغلين سمعته السيئة كزئر نساء .

لذلك أسرع السلطان فؤاد إلى « لادى جراهام » قرينة صديقه سير جراهام المستشار البريطانى لوزارة الداخلية ، وطلب إليها أن تبحث له فوراً عن عروس ، وقالت « لادى جرهام » إنها تعرف الآنسة نازلى عبد الرحيم صبرى ، وأطلعته على صورتها ، وقالت : إنها تخشى أن لا تقبل نازلى هذا الزواج ؛ لأنها أخبرتها بأن مخطوبة لسعيد ابن شقيقة سعد زغلول ؛ لذلك صمم السلطان على أن يرى الآنسة نازلى فاعتذرت له « لادى جراهام » أنه ليس من الممكن أن تجعله يلتقى بنازلى ؛ لأن تقاليد أسرتها تمنع هذا اللقاء ، ولكن من الممكن أن تدعو نازلى لتناول الشاى عندها ، وأن يختبئ السلطان خلف ستاره ويرى نازلى .

ووافق السلطان على الفكرة وذهبت « نازلى » فى الميعاد مع شقيقتها وتناولت الشاى .. ورآها السلطان من خلف الستار .

ولما عرف السلطان أن « نازلى » سوف تُخطب إلى سعيد زغلول التشريفاتى الذى رفض أن يبقى فى العمل فى قصره بعد تولِّيه العرش ، وفضل وظيفة صغيرة خارج القصر على وظيفة كبيرة فيه ازداد تمسكه بأن يتزوج نازلى ، كان فؤاد من أُسرة تعشق ما لا تمتلك ، وتزهد فيما تمتلك .. تتشبث بما فى أيدى الناس وتحتقر ما فى يدها ! .

وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ وهاجم الشعب السلطان ، فاتهموه فى أغانيهم وأناشيدهم وقالوا : إن نازلى كانت عشيقة السلطان قبل أن تتزوجه ، وإنها حملت منه ، وإنه اضطر إلى زواجها ليخفى جريمة واغتصابها وحملها ، وإن فاروق ابن زنى !! .

ونظم الشاعر « بيرم التونسى » زجلاً مشهوراً فى مجلته « المسلة » وصف فيه الزفاف الذى تم قبل الخطبة والحمل الذى وقع قبل الزواج بقوله : إن « الفرخة كانت مذبوحة » و « القرع كان سلطانى » .. ورددت الجماهير هذه الأزجال وقت الثورة .

وغضب السلطان فؤاد على الشاعر بيرم التونسى ونفاه إلى خارج مصر . وبقى منفيا حتى مات فؤاد ، حيث لم يعد إلى مصر إلا بعد وفاته بعامين » .

وفى دفاع الكاتب الصحفى مصطفى أمين عما تردد بشأن ولى العهد فاروق ابن فؤاد .. قال فى نفس هذه الشهادة : وللتاريخ لم يكن فاروق ابن زنى وأن كل ما هنا لك أنه ولد بعد الزفاف بسبعة أشهر وهو أمر يحدث كثيراً بسبب كبر حجم المولود ، ولكن للتاريخ أيضاً كانت « نازلى » مظلومة فى هذه التهمة .. رغم أنها قد رحبت بزواجها من السلطان فؤاد على الفور .. ولم تعترض كما يتصور سعد زغلول .. وقد عاش سعيد زغلول بعد ذلك بسنوات .. ثم مات بعدها بقليل .. مات حزيناً ومعذباً .. محسوراً ومهزوماً ، وكانت نازلى تقول : إننى أعرف أنه مات وهو يلعننى .. ولكن أحداً لم يسمع سعيد يلعنها .. فإن اللعنة لم تصبها إلا بعد وفاته بثلاثين عاماً .

* * *

وهناك روايات أخرى تؤكد صدق ما رواه « مصطفى أمين » فى هذه الشهادة التاريخية .. ولكن مع اختلاف التفاصيل ، وأيضاً ربما اختلاف الشخصيات .

ومن هذه الـروايات ما ذكره الكاتب الصحفى محمد التابعى حين قال : « ولقد تعددت الـروايات واخـتلفت عن زواج السـلطان أحمد فـؤاد من نازلى كريمة المرحوم عبد الرحيم باشا صبرى ، ولكن الذى سمعته من رواة ثقات من أقـاربهـا هـو أنهـا أرغـمت على هذا الزواج .. وأنهـا كـانت تحب شـاباً من أقـربائهـا ، واكتـفى بذكـر الحـروف الأولى من اسـمه وهى « ش . ش » .. لأنه لا يزال بيننا على قيد الحياة[1] .

كانت « نازلى » تحب قريبها الشاب .. وكان أملها فى الزواج منه كبيراً إلى أن خطبها السلطان أحمد فـؤاد من أبيها . وفى اليوم المحـدد لعقد القران هـربت « نازلى » فى الصباح الباكر من قصـر أبيها .. ولجـأت إلى حبيبها .. « ش . ش » .. وراح ذلك الفتى ينتقل وهى معه طول اليوم من دار صديق إلى صـديق .. خـوفـاً من مطـارديه . فـقـد انطلـق الأقـارب وسلطـات الـدولـة كلهـا تبحـث فى كل مكان عن خـطيبـة عظمـة السلطان .. وأخيـراً أدرك الفـتى ألا فـائدة .. ولعله ـ كـذلك ـ خـاف مما قد يصيبه من بطش السلطان فـأركبها عربة حنطور وأعادها إلى قصر أبيها فى المسـاء .

وعُقِدَ القران .. وأصبحت « نازلى » صاحبة عظمة السلطان .. سلطانة .. ولكنها حبيسـة القصر .. عليها فى كل ردهة وكل رواق وغرفة عيون وأرصاد لا تغادر القـصر إلا بإذن .. ولا تزور ولا تزار إلا بإذن ، فقـد كـان أحـمـد فـؤاد شديد الغيرة على زوجته « الشابة الجميلة »[2] .

أما ثالث هذه الروايات ما حكاه الكاتب الصحفى « صبرى أبو المجد » فى مقالاته التى كان ينشرها تحت عنوان « سنوات ما قبل الثورة » وما جاء على

---

(١) لاحظ هنا اخـتلاف اسم ذلك الشاب الذى قيل إن نازلى كانت تحبه قبل زواجـها من السلطان أحمد فـؤاد .

(٢) من أسرار الساسة والسياسة ـ محمد التابعى ـ مصدر سابق ص ٢٤ ، ٢٥ .

لسانه فى سطور قليلة .. حين قال : .. « وإذا كان الكاتب المنصف لا يستطيع أن يعفى نفسه من إبداء رأيه فى بعض الأحداث وفى بعض الناس إيمانا بفكرة معينة لا يؤمن بها فحسب ، وإنما يدافع عنها باستمرار .

وانطلاقاً من ذلك .. أقول : إننى أشعر بأن نازلى عبد الرحيم صبرى وخلال تلك الفترة التى بدأت بزواجها من أحمد فؤاد ، وانتهت بوفاته كانت تمثل ضحية من ضحايا الملك . ولعلها كما يقول بعض من عرفنها وقتئذ كانت تتمنى أن تُزف إلى الشاب الذى كانت تحبه ، وكان هو يحبها من أفراد أسرتها ، بدلاً من أن تُزف إلى السلطان أحمد فؤاد الذى لم يكن فى مصر من يحبه ، لقبوله السلطنة من يد ممثل الاحتلال البريطانى فى مصر[1] .

* * *

وبدون الدخول فى تفاصيل لمناقشة هذه الروايات.. سواء فيما يتعلق بما جاء بها من أسماء أشخاص أو أحداث بعينها . فقد عرفنا من تتبعها على الأقل أن السلطان أحمد فؤاد قد اقترن من زوجة كان من المفروض ألا تكون له .. وأن هناك العديد من الدوافع التى كانت وراء إقدامه هذه الخطوة ، خاصة وأنه كان متزوجاً من قبلها من إحدى أميرات البيت الملكى .. فكيف يرضى عنها بديلاً .. ويختار فتاة من عامة الشعب .. أو فتاة تنتمى إلى « الحريم الشعبى » .

فإذا ما اعتمدنا على رواية مصطفى أمين .. يمكن أن نقول : إن هذا الدافع كان دافعاً سياسيا فى المقام الأول .. إذ رأى السلطان أحمد فؤاد أنها فرصته لكى يضرب بها خصمه السياسى آنذاك وهو الزعيم سعد زغلول ، وهنا نكتشف أن السلطان أحمد فؤاد قد وجد دافعاً جديداً لهذا الزواج .. مثلما وجد

(*) مجلة المصور فى ١٩٨٠/٩/١٩ .

دافعه السابق للاقتران من الأميرة شويكار تلك السيدة الثرية والتى كانت أموالها فى مقدمة الأسباب التى أقنعت ذلك الأمير للاقتران بها .

فإذا ما سمحنا لأنفسنا ووفقا للرواية الأولى ـ التى تربط بين زواج فؤاد من الآنسة نازلى وبين خصومته السياسية مع سعد زغلول ـ أن نحدد هدف هذه الزيجة .. فهى زيجة سياسية فى المقام الأول مثلما كان زواجه من الأميرة شويكار . زواجاً مادياً أو اقتصادياً .

أما إذا ما نظرنا بعين الفاحص لما جاء فى رواية كل من التابعى وأبو المجد .. نكتشف أن الدافع الحقيقى كان فى الأساس دافعاً جنسياً ارتبط فى ذهن ذلك السلطان العجوز الذى كان يبلغ آنذاك واحداً وخمسين عاماً بالجمال والرشاقة .. بعدما قضى فى حياة « العزوبية » حوالى ثلاثين عاماً .. بدأت منذ انفصاله عن زوجته الأولى « شويكار » .

ولعلنا نؤيد الرأى الأخير .. لوجود العديد من الشواهد التى تثبت أن السلطان أحمد فؤاد كان يعشق ذلك النوع من الجمال الذى كان يمثله رأس امرأة ذكية وجسد فرعونى .. مثل نازلى .. خاصة وأنه قد قضى أكثر من عشر سنوات بعيداً عن مصر .. موظفاً دبلوماسياً أو سائحاً فى أوربا .

أما أولى هذه الشواهد والأدلة : أن الملكة نازلى أُصيبت بعد زواجها بمرض « تقيُّح اللثة » .. وباعتراف الدكتور « ستا نكيفتس » الروسى الأصل .. وهو طبيب الأسنان الخاص للملك فؤاد .. الذى أكد أن فى فم السلطانة نازلى كان يوجد تسعة أسنان « عايمة » أو « ملخلخة » بسبب هذا المرض ، وأن الملك فؤاد نفسه كان يعانى من مرض « تقيح اللثة » .. ويقول محمد التابعى أنه سألها ذات مرة عن أصل هذه العدوى .. فقال للملكة نازلى :

ـ هل جلالة الملك يقبِّلك فى فمك ؟ ! .

وضاقت عيناها قليلاً وقد بدا فيهما حقد وسخط .. وقالت :

ـ يقبلنى فى فمى ؟ ! .. إنه لا يكتفى بمجرد التقبيل !! .

وكانت عيناها وصوتها وقسمات وجهها تنطق بالاشمئزاز والكراهية .

وثانى هذه الأدلة : هو ما سبق وذكرناه فى رواية الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى تحدث عن تلك السيدة وما كانت تتصف به من جمال وأنوثة طاغية . أما ثالث هذه الأدلة : وأقواها هو ذلك السلوك الذى اتبعه السلطان فؤاد مع تلك الزوجة .. حين حولها ـ نظراً لغيرته عليها ـ إلى ـ سجينة فى قصر القبة لمدة سبعة عشر عاماً .

والحديث بالتفصيل عن هذا الدليل والبحث عن صحته سوف يجرنا بطبيعة الحال إلى محاولة الاقتراب من أسوار ذلك القصر كى نشاهد .. بل وربما لكى نسمع عن الطريقة التى كان يعامل بها السلطان فؤاد زوجته السلطانة خلف الجدران الحريرية ، وقد كانت فى ذلك الوقت تصغره بستة وثلاثين عاماً .

وكان دليلنا نحو أبواب قصر القبة الذى يتميز بأسواره العالية وبحراسته الشديدة تلك الكلمات التى سطرتها الصحفية ، والمؤلفة الأمريكية « جريس هوستون » التى استطاعت بعد جهد كبير أن تقابل الملكة نازلى .. وتحصل منها على أول حديث صحفى.. حكت فيه كيف كانت أحوالها داخل سجن قصر القبة ؟!. وكيف كان يعاملها السلطان أحمد فؤاد ؟! .

والطريف فى هذا الحديث أن الملكة نازلى قد أدلت به للصحفية الأمريكية فى عام ١٩٢٢ .. أى بعد رحلة زواج لم تتعدَّ الخمس سنوات ! . وقد أحدث هذا الحديث ضجة بعد نشره .. وكان من أخطر نتائجه أن « نازلى » لم تقابل أى صحفى بعد ذلك .. فكان أول وآخر حديث صحفى لها خلف جدران سجن قصر القبة .

ولعلنا ـ الآن ـ على موعد لمعرفة تفاصيل ما دار فى هذا الحديث .. وهو بحق ذات قيمة تاريخية خاصة لأنه ينقل لنا صورة صادقة عن كيف كانت السلطانة تعامل داخل سجنها الحريرى .. ولأهمية هذا الحديث فقد اكتشفنا أنه قد أُعيد نشره العديد من المرات بعد تاريخ عام ١٩٥٢ .

تقول الصحفية الأمريكية فى هذا الحوار التى أجرته من داخل قصر القبة مقر السجينة .. السلطانة « نازلى عبد الرحيم صبرى » :

« قرأت فى طفولتى قصة العصفور والقفص الذهبى ، ولكننى لم أر عصفوراً حقاً داخل قفص من ذهب ؛ إلا حينما قابلت « الملكة » نازلى ملكة مصر الجميلة .. والملكة « نازلى » نموذج حى لهذه الأسطورة .. بل هى مثال بارز لمأساة المرأة أو بالأحرى الملكة الشرقية فى عصرنا الحديث ، ولقد آمنت بعد أن عرفت قصتها بالمثل القائل « مصدوعة التى تحمل تاجاً » ، وقد تفضلت جلالتها فأذنت لى بأن أختلس نظرة على السجن الضخم الذى تقبع فيه وإلى العزلة الوثيرة التى تحيا فيها فى قصر القبة أو على الأصح مقاطعة القبة .. فهو أضخم قصر رأيته » .

وفى جانب آخر من مقدمة هذا الحوار الصحفى قالت الصحفية الأمريكية : « لقد خرجت من عند نازلى أو الملكة نازلى وأنا أؤمن بأن هذه الملكة الطموحة سيدة ذات روح متحررة .. وأنها ستنتهز أول فرصة سانحة لكى تحطم كل القيود التى تضعها التقاليد حول عنقها وتهرب من ذلك السجن الشامخ الذى تعيش فيه[1] ، ولقد نشأت الملكة نازلى ، وعاشت حتى زواجها فى بيئة عصرية متحررة ، وكانت أمها من صديقات صفية زغلول الحميمات ،

(١) ويبدو أن الملكة نازلى قد صرحت فى هذا الحوار بما كانت تنوى عمله بعد رحيل زوجها .. أو قد صدقت ما توصلت إليه الصحفية الأمريكية .. حيث خرجت الملكة نازلى إلى الحياة الاجتماعية والسياسية بكل ثقلها فور رحيل زوجها « السجان » عام ١٩٣٥ .

كما كانت من مؤيدات حركة المرأة الجديدة وزعيماتها . ولكنها ككل الزعيمات الوطنيات فى مصر نفضت يدها من « نازلى » وأمها بعد زواج « نازلى » .. وذلك لأنها كانت تؤمن بأن الملك فؤاد صنيعة البريطانيين وأنه لا يحب المصريين .

ولم تفقد الملكة « نازلى » أملها فى أن تحصل على حريتها .. وكما قالت لى .. « لا تريد أن تكون أقل استمتاعاً بالحرية من ابنة زوجها الأميرة فوقية ، فهى فى مثل سنها .. ولكنها تتمتع بحرية واسعة .. وتحضر الحفلات سافرة الوجه .. وذلك فى الوقت الذى لا تقابل الملكة نازلى أحداً إلا أقاربها وبعض صديقاتها ، وأقصى رحلة يسمح لها بها هى الرحلة من قصر عابدين فى القاهرة إلى قصر رأس التين فى الإسكندرية » .

كما تحكى الصحفية الأمريكية فى نفس المقدمة .. كيف عانت الأمرين فى بداية مشوارها نحو عقل وقلب الملكة نازلى .. وهى ما زالت على أبواب القصر . « لقد قيل لى فى السراى ـ حينما طلبت المقابلة ـ إن جلالتها تتمتع بحرية تامة وأنها تستقبل من تريد .. ولكن إحدى صديقاتها أكدت لى أنها لا تخرج من السراى مطلقاً ، وأنها أيضاً لا تقابل إلا عدداً معيناً من السيدات .. السيدات فقط لا الآنسات ، وأن هؤلاء يدرجن أسماؤهن فى كشف تعده كبيرة الوصيفات مدام « قطاوى » باشا ـ وتعرضه على الملك الذى يشطب منه كما يشاء ثم يعيده إليها .

ولقد تحققتُ بنفسي من هذا كله .. بل ووجدت أن مقابلة الملكة نازلى أصعب بكثير من مقابلة أى ملكة أخرى ، ووجدت أيضاً أننى لن أصل إليها إلا بالطريقة التى تصل بها إلى أى شئ آخر : « الواسطة » !! .

وقد توسطت لى « ليدى كونجريف » زوجة القائد العام البريطانى وأخبرتنى أن علىَّ أن أكتب اسمى ـ أولاً ـ فى الكتاب الملكى « سجل التشريفات » ، فيحدد لى موعد بعد ذلك » .

ورغم ذلك وكما تقول الصحفية الأمريكية : « ولم يتحدد الميعاد إلا بعد شهر من كتابة اسمى وبعد سعى متواصل من الدكتور « هاويل » الوزير الأمريكى المفوض فى القاهرة .. وفى اليوم المحدد توجهت إلى القصر أنا و « مسز هاويل » .. وبعد أن مررنا بكل البوّابات والطقوس الخاصة بجناح الملكة الذى وجدنا على بابه عشرة حراس عمالقة فى ثياب أنيقة مُدجحين بالسلاح .. لحراسة المدخل ، ثم فتح لنا الباب « أغا » طويل .. ثم أغلقه على الفور .. صعدنا السلم الفخم إلى غرفة استقبال الملكة .. وقد اجتزنا فى طريقنا بوابة أنيقة محلاة بنقوش الذهب والفضة ، ووقف عليها اثنان من الأغوات فى ثياب مزركشة تبعث على الهيبة والإعجاب .. ثم وجدنا أنفسنا فى غرفة واسعة بها ما يقرب من عشر وصيفات بدين فى جمالهن وأناقتهن وسحرهن كالحوريات ، ومن هذه الغرفة دلفنا إلى غرفة أخرى كان بها سيدة واحدة مهيبة الطلعة ، تبدو بشعرها البلاتينى وثوبها الباريسى الأنيق مثلاً للجاذبية والأناقة والسحر الفرنسى .. وكانت هذه « مدام چوزيف أصلان قطاوى » باشا كبيرة الوصيفات التى أخذت فى رقة ولياقة أخاذة تفهمنا طقوس ومراسيم مقابلة ملكات الشرق » .

وحتى هذه اللحظة .. لم تتمكن الصحفية الأمريكية من مقابلة جلالة الملكة نازلى .. وكل ما روته حتى الآن هو وصف لرحلة العجائب داخل قصر القبة . وتحت عنوان فرعى فى نفس الحوار الصحفى .. تقول كلماته : فى « حضرة الملكة » ذكرت الصحفية الأمريكية : وسارت مدام قطاوى وسرنا وراءها إلى الملكة .. وكانت جلالتها واقفة فى غرفة واسعة تحت صورة ضخمة لحميها الخديوى إسماعيل .. وقد ارتدت ثوباً من القطيفة الخضراء الغامقة من صنع باريس .. وغطت أصابعها بمجموعة من الخواتم الماسية البراقة .. وتدلى من أُذنيها قرط به ماسة فى حجم البندقة .. كما كان شعرها وفق الموضة

الباريسية .. وكان لون بشرتها أبيض ناعماً .. وشفتاها رقيقتين .. وعيناها مكحلتين على الطريقة الشرقية التى تضفى على عيون المصريات سحراً .

ولم تكد عينى تقع على هذا الجمال الساحر الخلاب حتى أُخذت ، لم ولم أملك إلا أن أقول : « إننى أدرك الآن يا صاحبة الجلالة .. لماذا يصر الملك على أن يحجبك عن لقاء الناس والصحفيين .. وضحكت جلالتها ضحكة عالية مرحة رفعت على الفور الكلفة بيننا ، وقالت فى أسلوب طبيعى رقيق : آه يا سيدتى .. ولكن يجب ألا تقولى هذا للملك .. بل يجب أن تؤكدى له أننى أستطيع الخروج ومقابلة الناس فى أمان .. فهو غيور .. غيور جداً .. جداً . وضحكت وقلت لها : إنه على حق .. وعلى كلٍ فإن الرجال جميعاً فى هذا سواء .. واستطردت جلالتها تقول : لا ليس إلى هذا الحد .. وبهذه المناسبة أخبرينى هل اخترعوا حقاً فى أمريكا تليفوناً يرى فيه المتكلمون بعضهم !! (١) . وقلت لها لا أدرى !! .. ولكن لماذا ؟ .

واستغرقت جلالتها فى الضحك ثم قالت : جاءنى الملك منذ بضعة أيام قلقاً مهموماً وقال لى : لقد اخترعوا فى أمريكا تليفوناً يرى فيه المتكلمون بعضهم وأنه سيعمم فى العالم قريباً .. وهذه المسألة تشغله إذ لا يدرى هل يسمح بإدخاله فى القصر أم يرفع التليفونات كلها من هنا .. تصورى .. إنه غيور إلى درجة لا تطاق .

ولم يكن فى حديث الملكة أية مرارة أو ألم بل كانت فى مرحها .. حسناء فى الثانية والعشرين من عمرها .. قبلت مصيرها وأصبحت تجد متعة فى وجودها وسط أولادها وجواهرها ولكن .

---

(١) تقصد التليفزيون .

وقلت لها : كان يجب أن تتفقا قبل الزواج على حدود الغيرة ، وقيودها كما نفعل عندنا فى أمريكا .

وضحكت جلالتها وقالت : يبدو يا سيدتى أنك ما زلت تجهلين تقاليد الشرق .. لقد قيل لى وأنا فى الثامنة عشر من عمرى إن علىّ أن أستعد لأتزوج السلطان .. ولما عارضت .. وكان العريس يكبرنى بسنوات عديدة تعجبوا وقيل لى كيف ترفض بنت الشعب يد السلطان ؟! .

وأخذت جلالة الملكة نازلى تضحك فى صفاء بينما سبحت أفكر فيما أعرفه من قصة هذا الزواج ، وكيف قضت ثلاثة أسابيع فى البكاء والصراخ قائلة إنها لا تريد أن تعيش إلى جوار رجل لا يعيش فى قلب أحد من رعاياه .. ثم كيف تغلب نظام الأسرة التركى .. ووجدت هى أن زواجها أصبح أمراً لا مفر منه وكيف ظلت تقاوم حتى آخر لحظة .. حتى لقد أُقيم الزواج بلا احتفال ولا صخب كما هى العادة ، ولم يشهده سوى أسرة العروسين من الرجال وسيدتان فقط إحداهما مدام « قطاوى » ، وطبعاً لم يفرح أو يخفق قلب أحد فى مصر لزواج الملك المتعجرف الذى كان يعيش فى خوف دائم من شعب بلاده .

وتواصل الصحفية « جريس هوستون » حديثها عن الملكة « نازلى » من خلال سطور ما كتبته خلال حوارها المشار إليه فتقول : .. وأخذت أجول ببصرى فى صورة حميها الخديوى إسماعيل المعلّقة فوق رأسها .. وفى زهريات الورد البديع .. حيث كانت جلالتها معروفة بغرامها بالورود الذى كانت تفضله بلون واحد .. وقلت لجلالتها بعد لحظات صمت : إننى أرى الحرية قادمة إلى نساء مصر .. فردت على الفور : إن الحرية قادمةلا شك فيها ولكنها قادمة ببطء .

وسألت جلالتها : أظنك على علم بحركة المرأة الجديدة وكفاحها .. فما رأيك فيها فقالت : إننى أعرف طبعاً شيئاً مما يفعلن .. وأنا شديدة الإعجاب بهن ، وإن كنت لن أجنى شيئاً من ثمار كفاحهن وحركتهن ولكن ستتمتع بها فوزية .

وفى ختام هذا الحديث الهام .. ذكرت الصحفية الأمريكية أنها سألت جلالة الملكة نازلى عن كيف تقضى وقتها .. وما هى أهم هواياتها المفضلة !! . فقالت الملكة : إنها تحب السفر .. وقد طلبت من الملك مراراً أن يصحبها معه فى أسفاره فلم يوافق لغيرته الشديدة عليها كما يقول .. وإنها لم تسافر إلى أوربا إلا عندما كانت فى الثالثة عشرة من عمرها ..كما أنها تحلم بزيارة أمريكا .

وفى تعليق الملكة على هذه الغيرة ، ذكرت الصحفية الأمريكية أن نازلى علقت بقولها : إن الملك غيور غيور جدا .. إن هذا حمق وغباء فظيع .وذكرت هذه الصحفية أيضاً : أردت أن أدير دفة الحديث إلى موضوع آخر فقلت لها : وما هى الهواية الثانية ..فأجابت : إنها القراءة ..وأنا أقر أكثيرا ، وإن كان من الصعب أن أحصل على كتاب جيد .

وسألتها هل أبعث إليها بكتاب أمريكى جديد عن المرأة .. أجابت أننى أجد صعوبة بالذات فى الحصول على كتاب إنجليزى جيد ، ولما سألتها عن الطريق الذى أعيش إليها بالكتاب قالت : أرسليه إلى مدام قطاوى طبعاً .. ليمر على رقابة الملك قبل أن يصل إلى يدى .

وبعدها دخل الخدم يحملون القهوة والفطائر .. وحينما انتهينا من تناولهما .. وقفت الملكة إشارة بنهاية الزيارة .. ووقفنا وسلمنا مودعين .

ولم تكن الصحفية الأمريكية « جريس هوستون » أول من زار مصر خلال تلك الفترة وكتب عن السلطان أحمد فؤاد .. ذلك الملك الذى كان يعيش فى القرون الوسطى ، ويعامل زوجته كمملوكة .. بل زار مصر العديد من الصحفيين والصحفيات الأجانب الذين كتبوا عن السلطان فؤاد وزوجته .. وقد وصفوا معاملة السلطان لزوجته على أنها سجينة عاشت لديه رهينة فى إحدى القصور .

وكان من بين ما كتبه هؤلاء عن الملكة « نازلى » كما يقول الكاتب الصحفى صبرى أبو المجد : إنها لا تستطيع أن تقابل والدها أو شقيقتها إلا بإذن من أحمد فؤاد ، وكثيراً ما كان يتأخر الحصول على هذا الإذن شهوراً طويلة ؛ بل إن الملكة لم تكن تستطيع أن تزور بيت والدها أو بيت أحد من قريباتها إلا بإذن خاص من الملك .. على أن تتم الزيارة فى ظل حراسة مشددة لا تستطيع « نازلى » أن تروى فى وجود هذه الحراسة أى شيء عما تلاقيه من ظلم وعنت وإرهاب .. وحدث أن زارت مصر سيدة بريطانية مرموقة تخدم فى البلاط الملكى البريطانى .. وسمعت الكثير عما تعانيه ملكة مصر .. فرغبت فى التعرف عليها ، ولم يستطع الملك أن يرفض طلب هذه السيدة البريطانية « لادى سان جريف » .

وتملكت نازلى السعادة عندما عرفت بنبأ هذه الزيارة .. ووجدت فيها فرصة ترجو فيها السيدة البريطانية أن تنقل إلى ملكة بريطانيا إليزابيث زوجة الملك چورج الخامس بأن تتوسط وزوجها الملك چورج لدى الملك أحمد فؤاد لكى يخفف عنها بعض القيود المفروضة عليها .

وفوجئت الملكة نازلى أثناء لقائها « بلادى سان جريف » بإصرار مدام قطاوى باشا وصيفتها على البقاء مهما . بل إن نظرات مدام قطاوى لنازلى

كانت جـامدة للغاية ، وكأنها تحذرها من أية كلمة ستقولها للضيفة .. وانتهت المقـابلة دون أن تتـمكن « نازلى » من أن تصـارح « لادى سـان جـريف » بمتاعبها وآلامهـا .

ولقد ظلت خلال السبعة عشر عاماً التى قضتها « نازلى » خلف جدران سجن قصر القبة ومن قبله سجن قصر عابدين .. أميرة لهذا السلطان الغيور .. فلم تتمكن إلا مرة واحدة من السفر إلى الخارج أو للعلاج !!! .

* * *

وقبل الإفـراج عن المـلكة نازلى .. من سـجـن قصر القبـة قبيل رحـيل زوجـها عام ١٩٣٥ .. ساءت العلاقة بين الزوجين إلى درجة لم تعد تُطاق .. خاصة فى السنة الأخيرة التى عاشها الملك فؤاد مريضاً وطريح الفراش .. وكانت الغيرة وجنون حب النساء هما السـبب الرئيسى وراء ازدياد سوء هذه المعاملة .. رغم أن الملك وكـمـا سبق وأوضحنا لم يكن يسمح حتى لنسمات الهـواء أن تدخل إلى مليكته السجينة « السلطانة نازلى » .. وملكة مصـر وفقاً لنصوص الـدسـتـور ؛ لـذلك كان علينا وقبل أن نترك هذه الأوراق ونغادرها لحـديث آخـر .. أن نعرف كيف كانت هذه العلاقة .. وإلى أى مدى قد وصلت ؟. خاصة وأن الملك فؤاد .. كان مشهوراً بحبه لتعذيب زوجاته .. وقد مر بنا من قبل كيف كان يعامل الأميرة « شويكار » زوجته الأولى .

* * *

لقد بعث مراسل جريدة « التايمز » البريطانية تقريراً إلى جريدته قبل وفات الملك فـؤاد بأشهـر قليلة .. قال فيـه : إنه عرف أن الملك فؤاد ملك مصـر .. طـريح الفـراش الآن .. وهنـاك شـائعات تقول : إن طبيباً ألمانياً اسمه الدكتور « فون ترجمـان » قد استُدعى على عجل للكشف على صحة الملك .. كمـا

عرف ـ كذلك ـ بأن مرض الملك فؤاد يرجع إلى وجود سائل مائى فى رئته .. وأن طبيباً إيطالياً يثق فيه الملك قد نصح المسئولين بضرورة عدم مباشرة الملك لأعبائه .. وأن نصيحة هذا الطبيب قد جعلت الملك فؤاد يفكر جدياً فى تشكيل مجلس للوصاية على العرش لممارسة سلطاته .

أما عما كان يتردد فى تلك الأيام عن العلاقة بين الملك المريض وزوجته الملكة « نازلى » .. فإن حكايات كثيرة كانت تتردد فى مختلف المنتديات عن تدهور تلك العلاقة ، ومما كانوا يقولونه أن الملكة كانت فى تلك الأيام فى عنفوان الشباب .. فهى لم تكن قد جاوزت الأربعين من عمرها .. أما هو فكان قد جاوز الستين بعدة سنوات .. حيث بلغ عمره وقت رحيله سبعة وستين عاماً .

ومن فرط الغيرة التى سيطرت على عقل وقلب ذلك الملك المريض أن أصدر أوامره للحراس داخل سجن زوجته .. وإلى رجال حاشيته بأن يدير كل واحد منهم رأسه فى اتجاه الحائط إذا ما صادفته الملكة فى إحدى طرقات القصر ، وكان الويل لمن يضبط منهم وهو يحاول أن يتطلع بنظراته ناحيتها .

وفى هذه الفترة أيضاً تردد أن الملكة « نازلى » أثارت غيرة الملك المريض فأمر بحبسها لمدة شهر كامل داخل غرفة نومها[1] .

إذن لم يكن غريباً على تلك المرأة أن تعتبر يوم مولدها الجديد .. كان يوم رحيل ذلك الملك المجنون .. ففى الوقت الذى كانت تجرى فيه الاستعدادات لإغلاق باب المدفن الملكى بالإمام الشافعى على الملك العجوز فؤاد .. كانت الملكة « نازلى » تستعد للخروج من ذلك السجن ، وكان لهذا الخروج قصة أغرب من الخيال يعرفها كل أبناء هذا الجيل .. وتولى بعض كبار

---

(١) مجلة آخر ساعة ـ ١٩٧٤/٧/٢٤ .

الصحفيين تسجيل هذه القصة فى بعض أوراقهم الخاصة ، لقد انطلقت الملكة نازلى بعد هذا الخروج .. بشراهة ونهم تنهل من عيون الحياة وتطفئ نار الظمأ التى أحرقت أحشاءها طوال هذه السنوات السبعة عشر ، وكثر الهمس .. وذُكرتْ أسماء بعض الضباط المكلفين بالحرس وموظفى القصر .. ثم تركزت الشائعات حول اسمين اثنين فقط : وهما « أحمد حسنين » باشا زوج الأميرة لطيفة ابنة الأميرة شويكار زوجة الملك فؤاد السابقة ، والياور البكباشى يومئذ « عمر فتحى »[1] .

ولكن لعبة الملكة المُفرج عنها حديثاً من سجن قصر القبة لم تطل .. لأن أحد الرجلين وهو عمر فتحى لم تكن له مطامع .. ولأنه طول خدمته بالقصر كان حريصاً دائماً على أن يكون ملتزماً وأن يؤدى واجبات منصبه فقط .. ومن ثم فقد انسحب باختياره تاركاً الميدان لأحمد حسنين وحده . ولقد قيل وتردد فى أثناء فترة حكم الملك فاروق .. أن أحمد حسنين الذى تم اختياره رئيساً لديوان الملك فاروق قد تزوج بأمر ملكى من الملكة نازلى الأم بعد قصة حب عنيفة .. تحدثت عنها كل الصحف المصرية والأجنبية آنذاك .

ولم تقتصر الملكة نازلى بعد خروجها من سجن قصر القبة على العيش فى قلب حياة اللهو والعشق والفساد علانية ومن خلف الكواليس .. بل امتدت شهيتها فى الإقبال على الحياة أيضاً إلى ميدان السياسة .. حيث وقفت بجوار ابنها الملك الشاب الذى لم يكن سنه يسمح فى ذلك الوقت بتولِّى العرش خليفة لأبيه الملك فؤاد .. ولولا حنكة هذه الملكة ودرايتها بخفايا لعبة كواليس السياسة لتمكن الأمير محمد على ابن الخديوى توفيق من الفوز بعرش مصر بدلاً من ابنها فاروق .

---

(١) من أسرار الساسة والسياسة ـ مصدر سابق .

ولقـد ظلت الملكة نازلى التى فـازت بلقب « الملكة الأم » بعـد تعـديل الدسـتور كى ينص على هـذا اللقب .. محتـفظة بكل جمـالهـا وحقـوقـهـا ومـزايـاه إلى أن رحلت الملكيـة عن مـصـر ، حـتى وهى تعـيش فى الولايات المتحـدة الأمريكية .

وقـد تردّد فى بعض الصحـف الأجنبية أنها قـد ارتدّت عن دين الإسلام وإن كان كاتب هذه السطور يشكك فى مثل هذا القول ، وربما يكون السبب هو ارتباطها بزوج ابنتها رجل الاقتصاد « يوسف غالى » الذى أصبح بعد رحيل زوجته مديراً لأعمال الملكة نازلى فى خارج مصر .

* * *

ملحق صور الفصل الخامس



الملكـــة نـازلى

أشـهـر صـور للملكة نـازلى

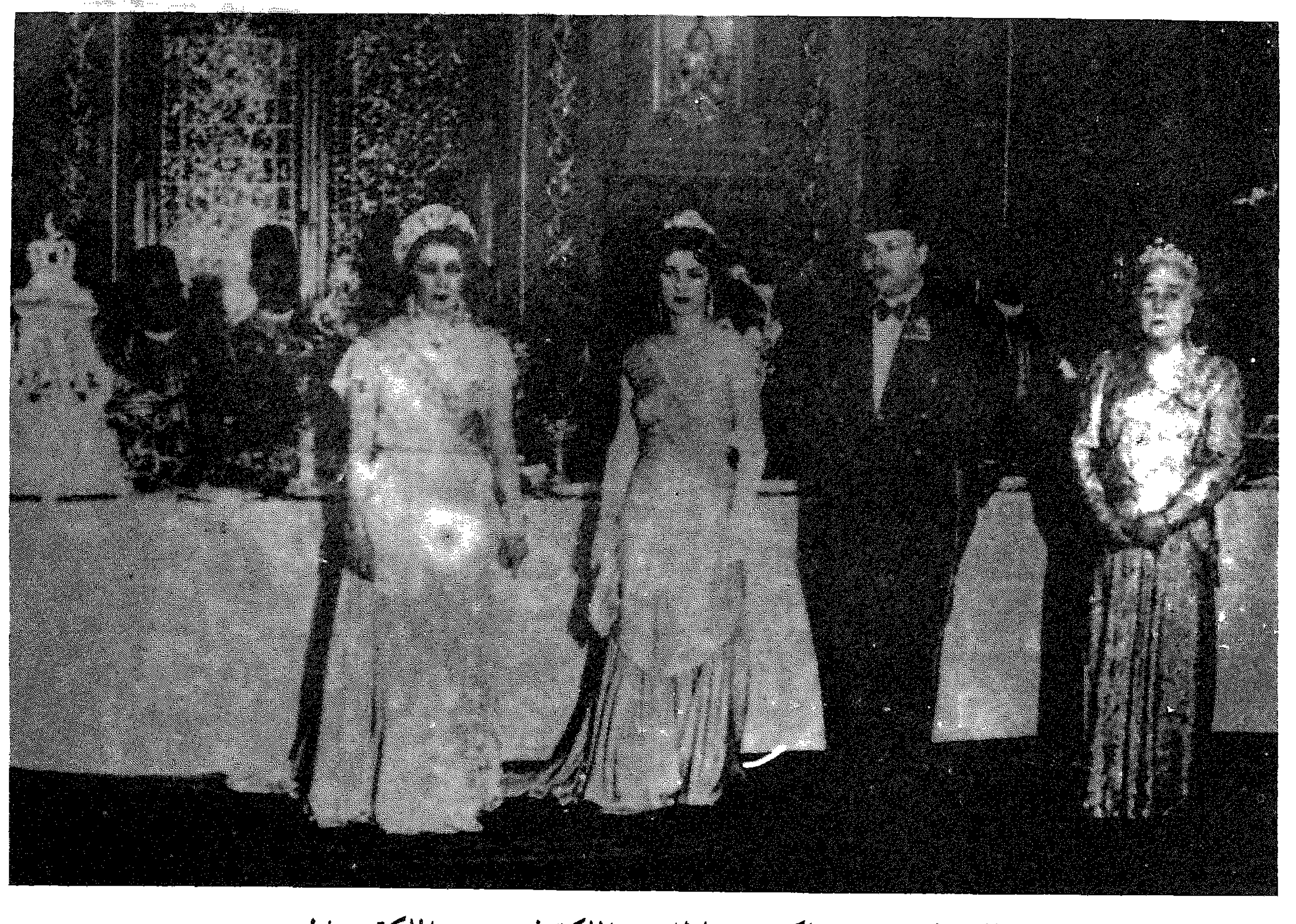


الملكة « نازلى » فى كامل الأبهة الملكية .. التاج والقــلادة والقرط ..
هذه الصورة تم التقاطها فى عهد ابنها فاروق .



الملكة نازلى فى صورة عائلية مع أبنائها فاروق وفوزية وفايزة ولم تكن فايقة ولا فتحية قد ولدتا بعد !! .

لقد أنجبت نازلى من الملك فؤاد .. أربعة بنات .. وولى العهد ! .



الملك فاروق بين ملكتين وسلطانة .. الملكة فريدة .. والملكة « نازلى »
والسلطانة ملك وذلك عقب حفل الزفاف الملكى !! .

الفصل السادس

أم البنات التي فشلت في إنجاب ولي العهد

نحن الآن على مشارف أظلم مكان مرت به الملكية فى مصر .. ولعلنا بتدقيق النظر ، والحرص على الرؤية بعين رجل يلتزم بحياد الراوى .. سوف نتمكن من تحديد طريق السير عبر هذا النفق المظلم الذى بدأ الحفر فيه كى يبتلع ملكية « محمد على » منذ عام ١٩٣٦ .. وبالضبط فى يوم الثامن والعشرين من أبريل حين تولى الملك الطفل فاروق أريكة الحكم وعرش مصر وهو لم يبلغ سن الثامنة عشرة من عمره !! . ولقد استمر الحفر قائماً على أشده رغم البطئ الظاهر فيه مدة ستة عشر عاماً .. حتى توقف ضرب آخر معاول الهدم والحفر داخل هذا النفق فى صباح يوم السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ .

وبتولى الملك فاروق عرش مصر .. يكون قد أكمل الحلقة الرابعة من حلقات حكم أسرة محمد على التى بدأت عام ١٨٠٥ بحكم « الولاة » ثم أعقبها حكم « الخديوى » و « السلاطين » وأخيراً « الملوك » .

ولما كنا نتحدث عن « الحريم السلطانى » داخل هذه القصور الملكية .. فكان علينا أيضاً أن نستكمل الحديث عنه فى حياة آخر ملوك مصر فى العصر الحديث .. وأيضاً آخر أحفاد محمد على الذى كان عصره بداية لوضع أولى مسمار فى نعش ذلك النظام الاجتماعى الذى كان ينظر إلى المرأة على أنها مجرد أنثى .. ومتاع .. فقط .

وإذا كان عصر محمد على بداية دق هذه المسامير فى نعش حرية المرأة .. فإنه بوصول حفيده الصغير فاروق إلى الحكم .. كانت الحرية قد اكتملت من كافة جوانبها .. وبات نعش المرأة الجارية والمحظية محطماً .. بل لم يعد له وجود فى الحياة .. وتحول هذا النعش إلى رمز لماضٍ أصبح يُنظر إليه على أنه الشر كله .. مع أن حقائق التاريخ أثبتت غير ذلك .

لقد واصل الملك فاروق مسيرة أبيه فى طريق الاقتراب من « الحريم الشعبى » ونقل بعض أعضاء هذا النوع من الحريم إلى داخل القصور الحريرية .. بحيث بات الفرق بين النوعين السابق ذكرهما عديماً .. بل تحول كل منهما إلى شىء واحد .. وباتت المرأة هى التى تحدد هذا الشىء .. وليس الملك أو السلطان .. ولقد رأينا من قبل كيف جاءت الملكة نازلى من أحضان « الحريم الشعبى » .. ثم ما لبثت أن تحولت إلى أحد أفراد « الحريم السلطانى » الخاص بتلبية مزاج الملك .. وقد تم ذلك رغماً عنها ؛ لذلك فقد استسلمت للعيش فى هذا الحريم على أمل أن تخرج منه كى تعود إلى « الحريم الشعبى » الذى جاءت منه . وبالفعل تمكنت من الخروج من « الحريم السلطانى » .. وساعدها الحظ بعد أن ظلت سجينة إحدى غرفه الحديدية ـ مدة سبعة عشر عاماً ـ فى أن تخرج منه كى تعود إلى الشارع وإلى ساحة حريم الشعب .

ولعل حبها الشديد لما كانت تنتمى إليه من صنف « الحريم الشعبى » هو الذى جعلها تختار لابنها الملك الشاب « فاروق » .. زوجة من هذا الحريم . ولقد ضربت بعرض الحائط كل المحاولات التى كانت تتم فى السر والعلن من أجل أن يتزوج فاروق من أميرة .

بل إن فاروق ولى العهد الذى أصبح ملكاً لمصر بعد رحيل والده .. قد تزوج من امرأة أخرى من صنف الحريم الشعبى .. حتى بعد أن طلق زوجته

الأولى « فريدة » .. وبذلك واصل مسيرة اتجاه « الحريم الشعبى » ناحية القصور الملكية .

والغريب فى هذا الأمر .. أن فتاة الحريم الشعبى .. الملكة ناريمان .. آخر ملكات أسرة محمد علي .. قد جعلها القدر خير شاهد على انهيار تلك الملكية التى دامت أكثر من مائة وأربعين عاما .. وكأنما كان هذا القدر متربصا وراء جدران ذلك الصنف من الحريم .. حتى جاءت الصرخة التى أذنت برحيل تلك الملكية إلى آخر العمر .

* * *

لقد تزوج الملك فاروق من امرأتين .. تماما مثلما فعل أبوه السلطان أحمد فؤاد ، وعمه السلطان حسين كامل .. وابن عمه الخديوى عباس حلمى الثانى .. والزوجة الأولى كانت هى الآنسة صافيناز ذو الفقار التى صارت فيما بعد «الملكة فريدة » أما الزوجة الثانية فهى الملكة « ناريمان صادق » .

وإذا ما حاولنا أن نربط بين زواج الملك فاروق ، وبين غيره من الملوك الذين سبقوه ..خاصة أبيه فؤاد وعمه حسين كامل لاكتشفنا بعض الفروق الواجب التحدُّث عنها .

والحديث عن هذه الفروق سوف يوضح لنا موقع هذا الزواج من أصناف الحريم الشعبى أو السلطانى .

فبالنسبة لعمه السلطان حسين كامل ..فقد التزم بخط سير من سبقوه من الأسرة المالكة فى ضرورة الاقتران من الأميرات .. وقد كان له ما أراد .. حيث تزوج فعلاً من أميرتين ، تحولت إحداهما بعد توليه عرش مصر إلى « سلطانة مصر » .

وأما بالنسبة لما فعله أبوه الملك فؤاد .. فقد ظل هو الآخر محافظاً على التقاليد الملكية حيناً من الدهر .. حين تزوج الأميرة شويكار سليلة بيت محمد على باشا .. ولكنه لم يستطع الاستمرار فى المحافظة على تلك التقاليد .. فقد تزوج من فتاة من عامة الشعب ، وهى الآنسة « نازلى عبد الرحيم صبرى » . ولقد سبق لنا وأشرنا إلى أن هذه الخطوة كانت بداية التقاء الصنفين من الحريم .. « الشعبى والسلطانى » .. بل والبداية الحقيقية لانهيار الملكية المصرية ورحيلها إلى الأبد .

وما نريد أن نوضحه بخصوص هذه النتيجة .. هو أن امرأة « الحريم الشعبى » لم تكن السبب فى رحيل هذه الملكية .. بل بالعكس .. ربما لو أخذ الملوك بأفكار هذا الصنف من الحريم لاستمرت الملكية فى مصر سنوات أخرى ، ولعلها إرادة الله الذى جعل من ظهر المرأة السبب المباشر والظاهر الذى عجل برحيل هذه الملكية عام ١٩٥٢ .. وكأنما أراد الله بهذا الرحيل الذى شهدته امرأة من « الحريم الشعبى » أن يعوض تلك المرأة التى أُهدرت كرامتها على مدى دهر كامل من الزمان خلف جدران القصور العالية .

* * *

وأخيرا حين يأتى الحديث عن زوجات الملك فاروق .. نجده قد ضرب بكل تقاليد الأسرة الملكية عرض الحائط .. وأقبل بكل كيانه على صنف « الحريم الشعبى » .. سواء بالشكل الرسمى أو غير الرسمى . وإذا كان الزواج الأول من تدبير أمه « الملكة نازلى » للحفاظ على خط سير صنف « الحريم الشعبى » الذى جاءت منه .. فإنه الملك فاروق الذى عشق هذا الصنف من الحريم .. قد قرر بإرادته أن يتزوج من امرأة أخرى من هذا الصنف . وبذلك يعتبر أول ملك مصرى لا يلتزم بقاعدة زواج الملوك المصريين من أميرات ينتمين إلى الأسرة الملكية .

ولسوف نلاحظ مدى سيطرة « الحريم الشعبى » على مجريات الحياة داخل القصور الملكية خاصة فى فترة حكم الملك فاروق . ليس على نطاق الملكات فقط .. بل وأيضاً شمل الوصيفات .. مما يجعلنا نقول إن عصر حكم فاروق كان أزهى عصور المرأة المصرية على طريق الانطلاق إلى خارج أجنحة الحريم بشقيه « السلطانى والشعبى » .

وحين ننتقل من الإيجاز إلى التفصيل فى حدثينا عن زوجات الملك فاروق .. سيراً على نهج ما خططناه عبر هذه الأوراق .. نقول : إنه نظراً لأهمية دور كل زوجة من زوجات فاروق .. فقد خصصنا لكل منهما فصلاً بكامل أوراقه .. مع ضرورة التنويه عن شيء مهم للغاية .. وهو أن ما سوف نرويه عن كل ملكة على حدة .. لن يكون على سبيل الحكايات المسلية .. بل سنحاول أن يكون درساً شيقاً فى التاريخ السرى لحياة القصور أثناء وجود هاتين المرأتين بجوار الملك فاروق .

والدافع الحقيقى نحو ذلك هو استكمال حلقات ذلك الحريم السلطانى .. الذى بدا الاهتمام به فى الأحاديث وفى الدراسات على استحياء وكأنما هو منطقة محرمة ، وإن كان قد ارتبط فعلاً بهذا المفهوم أيام حكم الوالى والخديوى . ثم سرعان ما أخذت تلك المنطقة المحظور الاقتراب منها تشهد بعض التجاوزات .. حتى جاء عليها وقت أصبحت منطقة مباحة الحديث عنها وبالتالى وجب علينا أن نخضعها للدروس والبحث فى آن واحد .

ولقد خصصنا هذا الفصل للحديث عن زوجة الملك فاروق الأولى الملكة فريدة ثانى امرأة من صنف الحريم الشعبى تضع فوق رأسها تاج الحكم .. ويعترف بوجودها القانون والدستور .

ثم يليه الفصل القادم عن الزوجة الثانية .. والعشيقة الأولى ناهد رشاد .. باعتبارها كانت أقرب سيدة متزوجة إلى قلب وعقل وعرش الملك فاروق .

* * *

* الزوجة الأولى :

في نوفمبر عام ١٩٣٦ أصبح معروفاً أن فاروق يحب « صافيناز » ذو الفقار التى كانت مشهورة باسم « فافيت » . وكانت الملكة نازلى أم الملك قد تأكدت من ذلك .. والملكة الأم كانت امرأة فى الأربعين من عمرها ما زالت تحتفظ بمظهرها الجميل . وقد تحررت مؤخراً بوفاة الملك فؤاد ، تتمتع بطاقة كبيرة .. وهى تستعد لبدء أول أدوارها السياسية ، وتوجيه ابنها . وكانت الخطوة هى أن تجعل فاروق الذى ما زال فى طور المراهقة نقيا .. يستقر ويتزوج فى أمان من فتاة مطيعة ومؤدبة فتاة من العامة كما كانت هى ذاتها .

وكانت هناك كثيرات من الفتيات الأميرات الممتلئات حيوية يتمنين الفوز بفاروق . ولكن الأميرات على أية حال كُنّ رغم حسن منظرهن أوتوقراطيات ذوات أطوار غريبة ، ولا يحتمل قبل كل شىء أن يقبلن الخضوع لسلطان الملكة نازلى(١) .

تلك كانت البداية .. كأول خطوة على طريق زواج طويل استمر لأكثر من عشر سنوات .. ولولا فشل الملكة الأولى لمصر .. فى إنجاب ولى العهد ، لاستمرت بجانب زوجها فاروق حتى الرحيل الأخير عام ١٩٥٢ .. لأنها كانت الوحيدة التى شهدت رحيل مطلقها .. بعد وفاته فى روما عام ١٩٦٥ .. بل ورافقت جثمانه حتى مثواه الأخير بجوار والده فى مدافن الإمام الشافعى .

(*) الملك الذى غرر به الجميع ـ مصدر سابق .

لقد اشتهرت الملكة فريدة بأنها أم البنات سواء فى الأوساط الشعبية أو الرسمية ، كما كانت تتمتع بحب كبير من جانب رعاياها حتى رحيلها هى وبناتها خارج القصر الملكى .

وفى بحثنا الدؤوب عن بداية التحاق الآنسة صافيناز باعتبارها من صنف الحريم الشعبى إلى قصر هذا الملك الشاب .. وفقاً لشريعة الإسلام .. وجدنا أن خير تعبير عن تلك البداية هو ما ذكرته الملكة فريدة نفسها فى أوراقها الخاصة حين قالت :

« لقد اختارنى فاروق من بين أجمل الفتيات .. فقد ذهبت مع والدتى إلى القصر ، لكى تلتقى بصديقتها الملكة نازلى .. حيث كانت والدتى وصيفتها ، وألتقى أنا بصديقتى « فوزية » شقيقة فاروق حيث دعتنى فوزية لزيارتهم فى هذا اليوم . وذهبت إلى القصر فوجدت عدداً من الفتيات الأخريات فى مثل سنى ، ولم أكن أعرف وقتها أن الملكة نازلى وشقيقات الملك الأميرات يبحثن عن عروس لفاروق .

وأمام حمام السباحة أخذنا نضحك ونمرح ونسبح سعيدات بالجو الملكى . وفجأة ظهر فاروق وصاحت الفتيات « الملك ـ الملك » واتجهن حيث يقف فاروق إلا أنا فقد وقفت فى مكانى ، بل وابتعدت عن المكان الذى يقف فيه « فاروق » ووقفت وحدى بعيداً بالقرب من والدتى .. ووجدت فاروق يترك جميع الفتيات ويتقدم حيث تجلس والدتى وسألها عمن أكون ؟ . فقالت : إنها ابنتى « صافيناز » .

ونظر إلىّ حيث أقف وحيّانى بإيماءة من رأسه ثم انصرف .. تلك اللحظة كانت هى أول مرة أرى فيها فاروق ، ولم أكن أدرى لحظتها أن القدر قد اختارنى لأكون زوجة لفاروق وسأصبح ملكة مصر .. وقتها كانت سنى

خمس عشر سنة !! . كنت صغيرة وما زلت طالبة فى المدرسة ولم أفكر فى الزواج .. « بل لم يخطر على بالى موضوع الزواج هذا » .

وقبل الاسترسال فى ذكر المزيد مما ذكرته الملكة فريدة فى أوراقها الخاصة عن قصة زواجها من الملك الشاب فاروق .. كان علينا فى بداية الأمر أن نسوق بعض المعلومات عن تلك الزوجة .. وكان علينا من أجل تأصيل هذه المعلومات أن نلجأ لأكثر من مصدر .. حتى نتيقّن مما نكتبه .

وتقول أصدق هذه المصادر : إنه فى اليوم الخامس من شهر سبتمبر عام ١٩٢١ ، وفى قصر محمد سعيد والد الفنان محمد يوسف بمنطقة جناكليس بالإسكندرية .. رُزِقَت السيدة زينب ذو الفقار حرم يوسف ذو الفقار بطفلة جميلة هى أول ما رزق الله هذين الزوجين .. فأطلقا عليها اسماً تركياً جميلاً كما كانت عادة الأسرة العريقة .. وهى : « صافى ناز » ـ أى الدلال المحصن .

ويرجع نسب الملكة فريدة إلى أُصول تركية ـ فقد جاء جدها لوالدها إلى مصر من تركيا وعمره سبع سنوات .. رباه محمد على وأدخله الجيش .. فأظهر مواهبه العسكرية خلال فتوحات إبراهيم باشا .. وتولى قيادة الجيش المصرى عام ١٨٥٤ لمساعدة تركيا فى الحرب الروسية التركية وقد سُمىَ بذى الفقار نسبة إلى سيفه[1] .

ويبدو أن هذه الخلفية التاريخية العريقة للآنسة « صافيناز » .. كانت الدافع الحقيقى لاختيارها زوجة لفاروق من جانب أمه الملكة نازلى .. رغم أنها كانت من صنف « الحريم الشعبى » ! . هذه الخلفية التاريخية كانت قريبة الشبه إلى حد بعيد بالخلفية التاريخية للملكة نازلى .. التى كان أهم أجدادها

---

(١) الملكة فريدة ـ لوتس عبد الكريم .

هو محمد شريف باشا ، الذى كان من أبرز الشخصيات على حد قول عادل ثابت فى تاريخ مصر المعاصر .. وكان شريف باشا هو ابن محمد شريف افندى « قاضى عسكر » العثمانى لمصر فى المراحل الأولى لتولى محمد على السلطنة فى بداية القرن التاسع عشر ، وعند عودة الأب إلى تركيا ترك ابنه شريف وراءه فى مصر لمواصلة تعليمه ، وكان شريف معاصراً وزميل دراسة لإسماعيل باشا الذى أصبح فيما بعد خديوى مصر .

لقد رأت الملكة نازلى فى « صافيناز » زوجة ابنها الوحيد .. نفسها من حيث الأصل والموقع والانتماء إلى صنف « الحريم الشعبى » .. بجانب ذلك رأت فيها الطفلة المطيعة التى سوف تتقبل سيطرة الملكة الأم التى خرجت لتوّها من سجن قصر القبة كى تعاود نشاطها وحيويتها المفقودة من جديد .

وتتوالى الصفات المشتركة بين الملكة الأم وبين الملكة فريدة ؛ فقد كان جد صافيناز « على ذو الفقار » محافظاً للقاهرة ، وأنجب ثلاثة أولاد وبنتين منهم والد الملكة فريدة الذى تدرج فى مناصب القضاء حتى اختير مستشاراً فى محكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية .

أما والدتها فهى السيدة زينب ذو الفقار كريمة محمد سعيد باشا الذى تولى رئاسة الوزارة فى مصر العديد من المرات .. وكانت آخر مرة له هو اشتراكه فى وزارة سعد زغلول .

وللملكة فريدة أخوان هما سعيد وشريف ذو الفقار .

تلك كانت الصورة العامة للخلفية التاريخية للملكة فريدة .. أما ما أذاعه القصر الملكى عن هذه الصورة وتلك الصفات فكان شيئاً آخر .. حيث قالت نشرة القصر الملكى التى قدمت صافيناز للشعب : وقد جبلت جلالة الملكة منذ حداثتها على الميل إلى البساطة التامة فى ثيابها وزينتها .. فلم تكن

ترتدى إلا ما هو أقرب إلى الحشمة بعيداً عن الكلفة .. ولهذا فإن معظم فساتينها طويلة الأكمام تغطى الصدر حتى الرقبة .. وفضلاً عن ذلك فهى لا تميل إلى استعمال المساحيق وأدوات الزينة .. وكان مأثوراً عن جلالتها فى عهد التلمذة أنها مُقلّة فى اختيار الصديقات ، لا تميل إلى الاختلاط كثيراً .

وقد تلقت « صافيناز » ذو الفقار دروسها فى مدرسة « نوتردام دسيون » بالإسكندرية ، كما انتظمت فى سلك التعليم ثمانى سنوات فأتقنت اللغتين الفرنسية والإنجليزية .

وكان لابد من إعداد الملكة الجديدة إعداداً ملكياً شكلاً وموضوعاً .. لذلك تقرر سفرها ووالدتها مع الملك فاروق فى رحلة استغرقت حوالى أربعة أشهر .. استمرت من السابع والعشرين من فبراير عام ١٩٣٧ إلى الخامس والعشرين من يوليو من نفس العام .. وقد أطلقت الآنسة صافيناز على هذه الرحلة اسم « رحلة الحب الملكية » ، إذ تعرفت خلالها أكثر على الملك الشاب وعرفت طباعه كما أحبت الملك حباً جماً .. وكانت على حد قولها هى من أجمل فترات حياتها : « فقد كان قلبى يخفق بحب فاروق .. وقد كان لطيفاً وودوداً وعشت حوالى مائة وعشرين يوماً طائرة على جناح الحب .. كنت صغيرة .. فتاة تحمل كتبها على صدرها فى مدرسة « نوتردام دسيون » بالإسكندرية » .

ولسوف يلاحظ القارئ كم تغيرت هذه الصورة كثيراً حينما فشلت الملكة فريدة فى إنجاب ولى العهد .. بعد ما رزقها الله بثلاث بنات .. هذا الفشل كان بداية الطريق نحو أُفول نجمها داخل القصور الملكية وبالتالى ضياع حلم حياتها فى الاستمرار ملكة لمصر .

ولم يكن الحب الذى عاشته صافيناز حباً خيالياً من جانب واحد .. بل شاركها فيه الملك الشاب .. ودليل ذلك .. تلك الرواية التى تبين لنا مبادرة

فاروق التلقائية من أجل لقاء حبيبة قلبه التى كانت تعيش آنذاك بمدينة الإسكندرية حيث كان يوجد قصر والدها .

وتقول هذه الرواية : .. وذات مساء من شهر أغسطس عام ١٩٣٧ ـ وكان الملك فاروق فى مصيفه بالإسكندرية ـ قصد بسيارته الخاصة سراى يوسف ذو الفقار ، وحدث ذلك فجأة ودون إخطار سابق .. فلم يجد بالمنزل إلا ربة البيت الآنسة صافيناز ذات الخمسة عشر ربيعاً .. لأن والدها كان قد سافر إلى بور سعيد ليبحر منها إلى لبنان .. وكانت السيدة والدتها قد ذهبت إلى سراى شريف صبرى باشا لتقضى سهرتها مع أسرته ، وما أن استقر المقام بالملك حتى راح يسأل صافيناز إن كانت تقبله زوجاً لها .. وكانت مفاجأة سارة لم تملك الفتاة إزاءها إلا أن تحنى رأسها وتتمتم فى صوت حبسه الخجل « هذا شرف عظيم يا مولاى » .. عندئذ صحبها الملك فى سيارته إلى سراى خالها حيث أفضى إلى والدتها بما كان بينه وبين « صافيناز » ، فطفرت من عينيها دمعة الفرح وقالت : « تلك نعمة من الله وشرف كبير »[1] .

وقصد الثلاثة بعد ذلك إلى سراى المنتزة حيث زُفَّ نبأ خطبته إلى والدته نازلى .. وقدم لها خطيبته .. ولم تكن تلك الخطوبة مفاجأة .. فقد كان الملك يعرف « صافيناز » من زمن .

وتتويجاً لهذا الحب بين الطفلين الصغيرين فاروق ملك مصر وصافيناز الملكة .. تم الزفاف الملكى فى العشرين من يناير عام ١٩٣٨ .. وكانت مناسبة كشف فيها الشعب المصرى عما كان يكنه لهذين الشابين ، وقد ذكرت الملكة فريدة تفاصيل تلك الليلة فى أوراقها الخاصة حين قالت بالحرف الواحد .. « وفى يوم الخميس العشرين يناير عام ١٩٣٨ تم عقد القران

---

(١) الملكة فريدة ـ مصدر سابق .

بقصر القبة وارتديت فى تلك الليلة فستاناً صُنع خصيصاً فى باريس .. ولقد كنت سعيدة سعادة غامرة ومصر كلها كانت تحتفل بزواجى وأفراد الشعب فى كل مكان مبتهجين وفرحين .

لقد كان زواجنا عيداً لكل فرد من أفراد الشعب كما أن المساجد والكنائس والشوارع والميادين كانت تسبح فى الأضواء .. هذا اليوم وما تلاه من ليال أخرى كانت أشبه بالأحلام ، ولا أعتقد أن هناك زواجاً كان بمثل هذه الفخامة .. لقد استمرت الاحتفالات الرسمية ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ، وقد شارك فيها الجيش الذى خرج إلى الشوارع والميادين معبراً عن حبه وولائه للملك الشاب » .

* * *

تلك كانت أولى خطوات « صافيناز » داخل القصور الملكية ، وكان عليها قبل تنفيذ ما نصت عليه بروتوكولات القصر .. أن تتقبل ما أشار إليه الملك فاروق حين أصر على تغيير اسم « صافيناز » إلى اسم عربى ، ولما كانت الأسرة الملكية تتفاءل بأن تبدأ أسماء أفرادها بحرف « الفاء » فقد استقر الرأى على اختيار اسم « فريدة » لأنه اسم شعبى كما أشاع ذلك القصر فى حينه .

وهنا يبدو أن الاتجاه كان قوياً نحو الزحف ناحية « الحريم الشعبى » .. رغم اقتراب الملكة الصغيرة من أبواب « الحريم السلطانى » كما سوف نرى بعد قليل . فلم يقتصر الأمر على مجرد اختيار فتاة من الشعب زوجة للملك ، بل تعدى ذلك الأمر إلى اختيار اسم لها عربى اللفظ وشعبى القول .. وهذا المعنى لم يكن من عندنا .. بل كان ذلك هو ما أعلنه القصر الملكى عام ١٩٣٨ .

ولعلنا نتساءل عن ماهية وتفاصيل الخطوة الثانية فى حياة هذه الملكة الشابة .. قبل أن تدخل فى دوامة الصراع مع النفس ومع الحاشية ، والملكة فريدة نفسها قد ذكرت لنا التفاصيل فى أوراقها الخاصة حين قالت : .. « بعد هذه الاحتفالات الأسطورية .. وبعد أن عبر الشعب بكافة طوائفه وأفراده عن فرحته وسعادته .. قال لى فاروق هامساً ، ونحن جلوس فى شرفة قصر عابدين : سآخذك وسأهرب بعيداً عن كل هذه المسيرات والحشود والعيون .. قلت له : إلى أين ؟! . قال سوف نهرب إلى مكان جميل .. إلى « أنشاص » .. حيث يوجد « كوخ الحب الملكى » الهدوء والجمال والخضرة والماء .. وضحك وقال والوجه الحسن ، وأضاف فاروق : إننى لم أتزوج هذه الجماهير الشعبية .. أريدك وحدك[1] .

وفعلاً فى مساء يوم الاثنين الرابع والعشرين من يناير تركنا العاصمة بكل أفراحها وحشودها وجماهيرها وقصدنا أنا وفاروق إلى أنشاص ، ولكن عند وصولنا إلى أنشاص هالنى أنى وجدت قصراً كبيراً تحيطه الأشجار والأزهار والمساحات الخضراء الواسعة . وأحسست ساعتها أن هذه هى الجنة .. وفعلاً فإن قصر أنشاص والمزارع المحيطة به هى جنة الله فى الأرض .

وفى جنة أنشاص .. قضيت أنا وفاروق أربعة عشر يوماً كانت أحلى أيام عمرنا كلها مدة زواجنا التى بلغت إحدى عشر عاماً[2] .

وبعد عودتنا إلى العاصمة .. لم أكن أدرى أن هناك حروباً ستُعلَن ضدى .. وكانت فى انتظارى فى القاهرة .. وبدأت أواجه تلك الحروب وتنكشف لى أسرار حياة الملوك ، وغيرة الملكة نازلى الأم التى استكثرت حب فاروق لى .. كما تكشف لى مفاسد الحاشية ، ورغبتهم فى إفساد فاروق » .

---

(١) فريدة ملكة مصر تروى أسرار الحب والحكم ـ فاروق هاشم ص ٣٧ ـ.

(٢) المصدر السابق .

وحين ندقق النظر والإمعان فيما روته الملكة فريدة فى أوراقها الخاصة .. نجد أن هذه الزوجة لم تعان من مضايقات زوجها بقدر ما عانت من مضايقات القصر ومن كان فيه من النساء .

لذلك يمكن أن نعتبر تلك المضايقات كانت بداية تحرش « الحريم الشعبى » بالحريم الشعبى الذى ما يزال يقف على أعتاب القصر .. وهنا تلاحظ الفارق فى المعنى والمغزى خلافاً لما كان يجرى خلف تلك الأسوار العالية .. حين كانت الكلمة العليا للرجل صاحب هذا الكم الهائل من « الحريم السلطانى » والذى كان مثار حديثنا منذ بداية هذه الرحلة عبر أوراق هذا الكتاب .

ولعلنا نؤكد حقيقة فى غاية الأهمية ـ قبل أن نسوق مكائد الحريم ضد الحريم خلف أسوار القصور ـ وهى أنه لولا فشل الملكة فريدة فى إنجاب ولى العهد .. لظلت ملازمة لزوجها فاروق رغم هذه المضايقات أو الحرب المعلنة من الحاشية وبكل ما كان لديهم من دهاء .

وحين ننّحى الحديث عن هذه الحرب المعلنة بتفاصيلها ضد الملكة فريدة إلى حين .. ونفرد لحديث المكائد النسائية .. نكتشف أن تلك الزوجة قد لاقت أكثر صنوف العذاب قهراً وظلماً وتنكيلاً من صنف « الحريم الشعبى » الذى جاءت منه والذى احتل مكان الصدارة داخل « حريم السلطان » .. ونستطيع أن نحصر هؤلاء النسوة فى ثلاثٍ هُنّ : « الملكة نازلى » .. أم فاروق .. وزوجة أبيه المطلقة الأميرة « شويكار » ، والوصيفة الجميلة والمدلّلة .. « ناهد رشاد » .

ونظراً لاستسلام فريدة وعجزها عن مقاومة مكائد رائدات « الحريم الشعبى » داخل القصور الملكية .. فقد أعطت الفرصة لفاروق كى يواصل

جـولاته الماجنـة داخل حياة اللهـو ، والسهـر ولعب القـمار .. بالإضـافة إلى عجـزها عن الوفـاء بما كانت تحلـم به مبكراً الملكة الأم .. وهـو إنجـاب ولى العهـد خـوفـاً من التهـديد الكامن والمتمثل فى مطالبة الأمير « محمـد على توفيق » ولى العهد ـ الذى كان قـد بلـغ العقد السبعين من عمره ـ بحقه فى وراثة العـرش .

وحين ننتقل من الإيجاز إلى التفصيل عن تلك المكائد النسائية التى عانت منها الملكة فريدة الأمرّين .. نبدأ بالحديث عن الملكة نازلى .

ويصف لنا عـادل ثابت ـ كـشاهد على مـا كـان بين الملكتين المصـريتين نازلى وزوجة ابنها فريدة ـ هذه المكائد بقوله : كانت الصراعات ضد فاروق قد بدأت بهـمة .. إذ أنه بالإضـافة إلى المسرح السيـاسى والمضطرب باستـمـرار .. كانت هنـاك معركة كبرى تجـرى وراء الكواليس ويتم إعـدادهـا أكثر قرباً من بيتـه . وكـان ذلك نزاعاً من نوع مـعـروف جـيـداً فى العـالـم ، وهـو النزاع المنبثق من مشـاعر الحمـاة تجـاه زوجـة ابنهـا فى مقـابل مشـاعر الزوجـة تجـاه حماتها .

وبتفـاصيل أكثر عن هذه المواجهـة المبكرة بين الملكة الأم والملكة زوجة الابن .. ذكـر عـادل ثابت أن الملكة نازلى كـانت امـرأة طمـوحاً قـوية الإرادة وقـد اختـارت الزوجة لابنهـا ، وأشـرفت على الزواج . وفى الواقع أنهـا أدارت المسألـة برمتهـا حيث كانت مديرة المسرح وراء الكواليس ، وليس هناك أحـد قد بلغ هـذا النوع من المراكز يحتـمل أن يكون مستـعداً للتخلى عنه لصـالح شخص كـانـوا يعتبرونه دائمـاً شخصية أدنى ! ، أو شيئاً يشبه الـدمية التى يمكن تحريكها .

ولكن الملكة نازلى سرعـان ما أدركت بعد زواج ابنهـا .. أن فريدة الشابة ليست تلك البنت الصغيرة التابعة ، والتى هى على استعداد لأن تتبع طريق

حماتها ، وتقبل أن تحجب شخصيتها .. على العكس .. فإن فريدة اتجهت للقيام بدور الملكة ، وهنا كانت تكمن بذور النـزاع .

ولم تكن الملكة « نازلى » بطبيعة الحال مستعدة للسكوت على ذلك ، ولما كانت لديها كل أنواع الحيل تحت تصرفها ، فقد استطاعت أن تحدث موقفاً غريباً للغاية فى مصر آنذاك ، إن الدستور المصرى لم يكن يتضمن أى نص يتعلق بالملكة الأم ، وكانت الملكة الأم يُنظر إليها باعتبارها ملكة سابقة والملكات اللواتى حكمن مصر فى ظل ملوك أقوياء ، كُنَّ يشعرن بالسعادة باتخاذ مقعد خلفى ، والعيش فى قصر مريح بقية حياتهن ، ولكن ذلك لن يكون أسلوب الملكة نازلى .. وهكذا فإنها بجذب الخيوط المناسبة ، استطاعت أن تعدل الدستور المصرى بحيث سجلت فيه وجود ملكة ثانية لمصر ، وهى الملكة الأم التى احتفظت بكل الامتيازات الملكية ، وبدا أنها قد احتلَّت مركزاً مسيطراً داخل الأسرة المالكة .

وكان على فاروق على حد تعبير عادل ثابت أن يتحمل ثقل وطأة تلك المشكلات ، وكانت المواجهة بين الملكتين تحمل تضمنات سياسية .. فقد كانت الملكة نازلى باعتبارها الأكثر علماً واطلاعاً وحكمة بين الاثنتين ، تؤيد سياسة تقارب بين زعامة الوفديين الوطنية والملك .. كما كانت نازلى تعرف تماماً عدم خبرة فاروق .. كما كانت على دراية كاملة بمكائد دار المندوب السامى البريطانى التى كانت تهدف إلى الإبقاء على التباعد بين الملك وزعامة حزب الوفد .

أما الملكة فريدة .. فكانت على العكس .. فهى ابنة شقيقة رئيس الوزراء المهندس حسين سرى باشا الذى كانت سياسته تنسجم بشكل ملحوظ مع سياسات البريطانيين ، وقد بلغت محاولات الملكة نازلى للعب بالسياسة نهايتها

عندما أحبت حسنين باشا صديق البريطانيين .. كما انطلقت فى علاقة غرامية مع أكثر الوزراء موالاة للبريطانيين .

* * *

أما عن مكائد الأميرة شويكار مطلّقة « أبو الملك فاروق » السلطان أحمد فؤاد سواء ضد فاروق نفسه أو ضد أهل بيته ، أو ضد زوجته الملكة فريدة فحدث ولا حرج . وقد مر علينا من قبل كيف جاهدت هذه المرأة من أجل تحطيم الملك الشاب انتقاما من أمه التى نجحت فى إنجاب ولى العهد ، وأبيه الذى طلقها وسرق أموالها وتسبب فى سجن أخيها ، بل ووضعه فى مستشفى للأمراض العقلية .

ولا يتبقّى لنا من حديث هذه المكائد النسائية التى واجهتها الملكة السابقة فريدة بعد مرور أقل من عام على زواجها من فاروق .. سوى إلقاء بعض الأضواء على مكائد زعيمة وصيفات القصر الملكى ، وعشيقة الملك .. ناهد رشاد ، ولن نذهب بعيداً عما ذكرته فريدة عن هذه المرأة .. فقد قالت عنها بالحرف الواحد .. « لقد شاءت الأقدار أن تظهر فى حياة الملك امرأة أُخرى استولت على قلبه .. تلك المرأة هى « ناهد رشاد » حرم الدكتور يوسف رشاد طبيب الملك الخاص .

وبدأت قصة الملك فاروق مع « ناهد رشاد » عندما وقع حادث تصادم مع سيارة الملك عند قرية القصاصين . وكانت ناهد رشاد تحضر لزيارة زوجها الطبيب الذى كان يلازم فاروق أثناء رعايته ، وقد فُتن بها لدرجة الجنون ؛ ولذلك ألحقها بالقصر وصيفة للأميرة فوزية ، كما اختار لها فاروق مكاناً للنوم قريباً منه .. وأصبحت الملكة غير المتوّجة نظراً لتأثيرها الطاغى على الملك . فقد كانت بارعة الجمال ، ممشوقة القوام ، طويلة الشعر ، جريئة ومتغطرسة ، فقربها

فـاروق إليه .. بل وأصبحت تلازمه فى كل سهراته وتحركاته ، ولقد وصل الأمـر بالملك أن استأجر لها شقـة بالجيـزة ، وأخـذ يقضى أغلب الليالى معها لدرجـة أنه بلغ من الهيـام بها فى فتـرة من الفترات أنه لم يكن يستطيع فراقهـا .. بل إن الملك وضع لها صـورة عـارية وبالحجـم الطبيعـى فى قصـر « أنشـاص » ، وقد ظلت هـذه الصورة معلقة على جـدار إحـدى الحجرات حتى قيـام ثـورة يوليـو » .

* * *

وبخلاف هذه المكائد التى عصفت بحياة الملكة فريدة خلف القصور .. كانت هناك مكائد ، ولكن من نوع آخر وبتدبير آخرين ، والحقيقة أنه رغم ضخامة ما عانته فريدة من حاشية الملك بسبب فشلها فى إنجاب ولى العهد .. فقـد كان ذلك أهـون عليها ممـا عـانته من مكائد نسـاء « الحـريم الشعبى » و « الحـريم السلطانى » فى آن واحـد .. لأن فـريدة كـانت تقـاتل فى ثلاث جبهات فى وقت واحد ، وكان زوجها هو أرض هذه المعركة ، وقد خذلها هو الآخر سواء باستسلامه لإرادة أمه أو بارتمائه فى أحضان وكـر الشيطان التى كانت تديره الأميرة « شويكار » ، أو بعشقه المجنون لوصيفة القصر ناهد رشاد .

وما نستطيع أن نقوله عن مكائد حاشية الملك .. إنها كانت بسبب واحد بل وكانت تصب فى اتجاه واحد أيضاً ، وهو فشل الملكة فريدة فى إنجاب ولى العهد ، مما فتح عليها باب جـهنم ، وأخـرج ألسنة كل المحيطين بفاروق من أجـل أن يعجـل بالتخلص من فـريدة ، والفـوز بغيرها حفـاظاً على ميـراث العـرش الملكى .

فـفى عـام ١٩٣٨ جـاءت أول مـولـودة لفـاروق من فـريـدة .. وقـد أسْمَوْها « فريال » تيمناً باسم والدة الملك فؤاد ، وكانت فرحة الأم الكبيرة ..

ولكن كل من كانوا فى القصر قد حولوا هذه الفرحة إلى دموع .. فقد عرف الجميع ومن يومها أن نقطة الضعف فى فاروق هى النساء والفتيات .. حيث بدأوا لحظتها بالعزف على هذا الوتر الحساس .

ولم يمر ميلاد « فريال » بسلام .. بل حملوا فريدة أمها مسئولية عدم إنجاب « ولى العهد » ، وعلى حد قول الملكة فريدة فى أورقها الخاصة : « عقب كل ولادة كانت الملكة نازلى تقول لى أمام الأميرات والوصيفات بالقصر : أنا جبت لفؤاد ولى العهد ، لمّا نشوف إمتى حتجيبى لفاروق ولى العهد !! » .

لقد ماتت فرحة قدوم الأميرة الجديدة فى قلب أمها .. وأحسّت بالحزن .. فقد كان كل من يأتى لزيارتها من حاشية الملك وأقاربه يطالبونها بولى العهد ، ومن كان منهم أكثر أدباً يقول لها : « إن شاء الله المرة الجاية تجيبى لنا « ولى العهد » .

ومن هنا كانت كل ولادة جديدة تحمل لفريدة همّا وغمّا كبيراً ، و بالتالى كانت تموت الفرحة فى مهدها خوفاً من عدم إنجابها ولداً ، لقد كان ينتابها على حد قولها : « إحساس بأننى أصعد إلى حبل المشنقة » وازدادت مشاكل الملكة مع الولادة الثانية .. ففى اليوم السابع من شهر أبريل عام ١٩٤٠ جاءت طفلتها الثانية « فوزية » ، وقد شعرت الملكة وقتها بإحساس كبير بالذنب حيث كان يتوقع كل من حولها بأن المولود القادم هو « ولى العهد » .

وقبل أن تولد الأميرة الثالثة « فادية » عام ١٩٤٣ كان كل ما بين الملكة فريدة وبين زوجها فاروق قد انقطع ، وتحول الزوجان إلى التعامل من خلال

الأسماء فقط .. خاصة بعد أن يأس كل من فى القصر من قدوم ولى العهد المنتظر .. حتى وصل الأمر بالملكة فريدة إلى أن تحاول التخلص من حملها الثانى .

لقد بدأت الخلافات تتسع بين الملكة وبين الملك فاروق ، وأصبحت لا تراه إلا قليلاً .. كما أصبح هو لايراها إلا فى مناسبات قليلة مثل عيد ميلاد البنات .. كما بدأ كل منهما يتجاهل الآخر وبالتالى ازدادت المسافات بينهما .. فاتجهت فريدة إلى رعاية بناتها الثلاثة فى حين أصبح فاروق فى أغلب أوقاته غائباً، ولقد أُصيبت فريدة بحالة نفسية سيئة أثرت على حياتها الخاصة .. إذ تحولت إلى سجينة بإرادتها فلا تغادر القصر ولا ترى الأصدقاء أو الأقارب ، وبالتالى انقطعت عن الحياة الاجتماعية .

وكأنما حاول الملك فاروق هو الآخر أن يعاقب زوجته على عدم إنجابها ولى العهد فانطلق كحصان جامح بكل قوته ناحية أوكار الفساد ، وبالتالى بدأ أصدقاء السوء فى تغذية نار هذه الخلافات ، ونشطت حاشية الشر فى إحضار كل ما يراه الملك صائباً .. مادام يوفر له المتعة ، ويحقق له مبدأ النسيان .

وقد اعترفت فريدة بذلك فى أوراقها الخاصة فى أكثر من موضع فقالت على سبيل المثال : .. « وأدركت كل سيدة وفتاة نقطة الضعف فى زوجى وهى النساء ، وكانت عقدته أيضاً ، والحقيقة أن فاروق لم يحاول أن يقاوم هذا العبث وغرامه بالنساء .. بل كان شغوفاً بالعبث اللا أخلاقى وتلك كانت المأساة » .

* * *

ومن بين النساء الشهيرات اللاتى وقع فاروق فى غرامهن وهو بجوار زوجته الملكة فريدة . الفنانة المشهورة آنذاك « كاميليا » والتى كان اسمها

الحقيقى « ليليان كوهين » التى تعرف عليها فاروق لأول مرة فى أحد كازينوهات شارع الهرم .. عندئذ أرسل وراءها « كريم ثابت » كى يدعوها للقاء الملك فى جناحه الخاص بقصر عابدين ، ومن يومها أُعجب بها فاروق رغم أنها كانت فتاة يهودية ، ولم يكن يهتم بما يُقال عن هذه العلاقة التى هزت صورته كثيراً فى عيون المصريين ، وكثيراً ما كان يصحبها فى رحلاته الخارجية التى يقوم بها دائماً تحت اسم مستعار .

والغريب فى هذه القصة ، وكما يقول الراوى : إن الملك فاروق كان قد اشترى لكاميليا « ڤيلا » فى جبال « رودس » ، وفى آخر مرة تم ترتيب لقاء آخر لهما فى أوربا ، ووصل الملك فاروق فعلاً إلى فرنسا ، ولكن القدر لم يسعدهما فقد تحطمت الطائرة التى كانت بها كاميليا ، وبالتالى احترقت الطائرة .

وهناك امرأة أخرى كان فاروق على علاقة بها وكان كثيراً ما يأتى بها إلى مخدع الملكة فريدة كى يقضى معها أوقات المتعة أمام عينيها ، وكانت اسمها « ليلى شرين » التى ضبطتها الملكة فريدة تتجول بعد منتصف الليل فى الدور ، وفى نفس جناحها الخاص ، فأمرت وصيفتها بالإمساك بها ، وقد اعترفت « ليلى شرين » التركية الأصل بأنها ترددت على مخدع فاروق عدة مرات ، وأنها زوجة لرجل مصرى ، وهى تحترف الرقص وتهوى التمثيل ، والغريب أنه قد تم عمل تحقيق رسمى مع تلك السيدة داخل قسم عابدين ، ومنذ ذلك اليوم بدأت فريدة تُصر على الطلاق من الملك لسوء سلوكه ولسهره المستمر خارج القصر ، والملك يمضى فى تنفيذ مخططات الفساد رغم هذا التهديد مما زاد من عزلة فريدة داخل القصر الملكى انتظاراً لحصولها على ورقة الطلاق .

ورداً على فضيحة فاروق مع « ليلى شرين » .. أراد الملك أن ينتقم من زوجته التى كشفت سر هذه العلاقة .. بل وأوصلتها إلى تحقيقات البوليس ، وفى هذا الجو المشحون بالتوتر بين الزوجين .. استغل فاروق زيارة فريدة المستمرة للأميرة سميحة حسن زوجة الأمير وحيد سرى .. وبدأ يرسل وراءها الأتباع والحراس لمراقبتها ، وعلى الزغم من ثقة فاروق فى أخلاق زوجته ؛ إلا أنه قد اختلق قصة من خياله وخيال من حوله من حاشيته السوء من الإيطاليين وادعى وجود علاقة عاطفية بين فريدة وبين وحيد سرى .

ونظراً لما كان بين الملكة فريدة وبين غالبية أعضاء حاشية الملك من الإيطاليين فقد سعوا لترويج هذه القصة ، واخترعوا الحكايات حولها وأرسلوا الأعوان والخدم وراء الملكة ليتجسسوا عليها عسى أن يعثروا على دليل واحد يُدين فريدة .

وبدأت الملكة فريدة تشعر بالشقاء يزحف ناحيتها بقوة حيث لم تستطع الحصول على الطلاق من فاروق .. كما أنها أصبحت عاجزة ـ فى نفس الوقت ـ عن الوقوف أمام رغباته المجنونة المنحرفة .

وقد حاول فاروق مراراً تهدئة العلاقة بينه وبين زوجته فريدة ، فأهداها قطعة أرض مساحتها ألفين فدان .. عُرفت باسم تفتيش « الفريدية » فى محافظة الشرقية ، كما أهداها باسمها قصر « الطاهرة » بالزيتون ذلك القصر الذى كان يملكه ابن عمه الأمير « محمد طاهر » ، والذى تنازل عنه لفاروق مقابل ٤٠ ألف جنيه .

وقد أطلق الملك على القصر اسم « الطاهرة » .. وكتبه باسم فريدة .. حيث أكّد بعض المؤرخين أن فاروق قد قدم هذا القصر على سبيل الإهداء لزوجته كى تتغاضى عن علاقاته الفاسدة مع خدمه الإيطاليين .

وتعترف الملكة فريدة فى أوراقها الخاصة بموقفها فى هذه الفترة حين قالت : « .. وأمام حالة الفساد التى كان يعيشها الملك كان قرارى بالمصارحة بكل أبعادها ، وأنه لا مفر من التصريح بكل تلك السخافات .. كانت تلك المصارحة على ما أذكر فى عام ١٩٤٥ .. فى هذا العام تكوّن لدى الكثير وعرفت الكثير مما كان خافياً ، وأصبحت عملية التلميح والرجاء والغضب لا تجدى مع فاروق ، وهذا ليس معناه أن هذه أول مرة أصارح فاروق .. بل إنى كنت دائماً لا أسكت عن خطأ ، وأنبهه مرة باللين ومرات بالغضب ، وفاروق بالمناسبة كان عنيداً جداً » .

وأمام إصرار الزوجة العنيدة على الطلاق .. اختار فاروق وقتاً معيناً وتوقيتاً كان يعتقد أنه الصحيح من وجهة نظره .. لقد كان فاروق حريصاً على أن يتم ويتزامل الطلاق فى نفس الوقت الذى تم فيه طلاق أخته الأميرة فوزية من شاه إيران ، وذلك خوفاً من ردود الفعل الغاضبة عند الجماهير التى كانت تحب الملكة فريدة .

وبالفعل تم لفاروق ما أراد من اختيار التوقيت المناسب ، وفى يوم التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٤٨ تم الطلاق ، وقد صدر بلاغ رسمى من الديوان الملكى بهذه المناسبة تناول أخبار طلاق فريدة من فاروق وفوزية من شاه إيران .

وقد انتقلت فريدة بعد الطلاق إلى بيت والدها ، واصطحبت معها ابنتها الصغيرة الأميرة فادية لحضانتها ، واشترط فاروق فى ذلك الوقت أن تعود ابنته فى حالة زواج فريدة.

وبذلك خرجت فريدة من قصر حريم السلطان كى تعود إلى أحضان الحريم الشعبى .. بعد ما قضت بداخله أحدعشر عاما . بل نستطيع أن نقول

كذلك : إن الملكة فريدة بعد أن استردت اسمها الحقيقى قد رفضت الاستسلام لقوانين ذلك الصنف من الحريم ، وهو « الحريم الشعبى » ، ويؤكد لنا ذلك ما اعترفت به فريدة للمستشار فاروق هاشم من أنه ، وبعد طلاقها من فاروق وإقامتها فى قصرها الذى أهداه لها الملك فاروق فى منطقة الأهرام بالجيزة ، وفى وسط هذا الجو المشحون بمختلف الأحاسيس والمشاعر كان يتقدم إليها الكثيرون يطلبون يدها للزواج ، ولكنها كانت ترفضهم واحدا بعد الآخر .

وظلت فريدة عند كلمتها فى عدم الاستسلام مرة أخرى لجنون الرجال حتى ولو لم يكونوا أمراء أو ملوكا رغبة منها فى الابتعاد عن « الحريم السلطانى » .. وأيضا «الحريم الشعبى» ،وقد فضلت الفن والرسم على ظل الرجل حتى آخر يوم من عمرها ، فقد رحلت عن عالمنا فى فجر يوم السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٨٨ .

* * *

ملحق صور الفصل السادس



الملكة فريدة زوجة فاروق

أشهر صور للملكة فريدة



الملك فـاروق والملكة فـريدة بعد عـدة أشهـر من الزفاف .



الملكة فريدة .. زوجة فاروق الأول .. وحرس شرف قبل ركوبها عربتها الملكية .. ومن خلفها تظهر السلطانة ملك !! .



الملكة فريدة وبناتها الثلاث .. فادية وفريال وفوزية .. لقد كُن أحد أسباب رحيلها من القصر لأنها فشلت فى إنجاب ولى العهد !! .

الفصل
السابع

آخـــر امـــرأة فى الحـــريم الملكى

المتأمل جيداً لكلمات عنوان هذا الفصل يكتشف أن الملكية المصرية فى العصر الحديث ، كانت قد بدأت تحمل عصاها استعداداً لغروب طويل والعيش فى ظلمات التاريخ وأركانه الباردة إلى حد التجمد ، وأن أول الشاهدين على هذا الغروب كانت امرأة بدرجة ملكة ! .

وقد يتصور البعض أن هـذه الملكية التى أسسـها محمد على باشا منذ عـام ١٨٠٥ قد شهدت هذا الغروب بين ليلة وضحـاها ، أو أن أوامر الرحيل قد صدرت لها على حين غرة ، أو جاءت مفاجأة للملك وللشعب المصرى فى آن واحـد ، ولكنه وبعيداً عن التصورات السياسية السـابق مناقشتها فى أوراق أخـرى صـدرت عن أسباب انهيـار الملكيـة المصرية .. نجد أن ما رويناه عبر هـذه الأوراق عن « حـريم السلطان » قـد أوضح لنا مراحـل هـذا الانهيـار ، بل وتنبأ صنف الحـريم بشقيـه « الشعبى والسلطانى » بسـرعة هـذا الأفول .. بل لن نغالى حين نقـول : إن هـذا الصنف من الحـريم قد شـارك بقـوة فى الإسراع نحـو الهـاوية ، واقتلاع جـذور الملكية أمام أعين فـاروق وحـاشيته بل وبتوقيعه .

ولو حاولنا الرجوع إلى الوراء سنوات بعيـدة كى نتحقق من تأثير ذلك الصنف من الحريم على أساسات الملكية فى مصر ، وحتى نكون منصفين فى القول .. يتضح أن نفوذ الحريم قد بدأ يطفو على السطح ويهز أركان القصور الملكية بالضبط منذ أيام السلطان حسين الذى كـان يمثل الحلقة الثـالثة فى

سلسلة حكام أبناء محمد على وأحفاده ، حيث بدأت تتبلور فى عهده رسالة المرأة ويتضح دورها أكثر فى المجتمع وفى داخل القصور الملكية ، وفى عهده أيضاً شاهدنا الزوجة تجلس بجواره وفوق رأسها التاج السلطانى .. بل وعاصرنا هذه الزوجة ، وهى تنزل إلى الشارع وتشارك فى المناسبات تحت مظلة اللقب السلطانى .. أو السلطانة التى ظلت محتفظة بكل امتيازاتها الاجتماعية والمالية حتى يوم وفاتها .

ثم يأتى العصر الذى تلى رحيل السلطان حسين كامل ، ويفوز بالعرش أخوه الصغير أحمد فؤاد ، ذلك السلطان الذى أثرت أخلاقياته على كل مجريات الأمور فى مصر .. فقد عُرف بأنه سكّير ومقامر محترف وأيضاً عاشق للنساء ، ورويداً رويداً شاهدنا فوق هذه الأوراق أحداثاً أكدت نمو نفوذ المرأة داخل القصور الملكية وخارجها ، ولعل أهمها فى تصورنا هو دخول صنف « الحريم الشعبى » إلى تلك القصور .

ولتوضيح هذه النقطة ، وبيان علاقتها بأُفول نجم الملكية فى مصر نقول : لقد ساعدت المرأة القادمة من « الحريم الشعبى » على سرعة زوال ملكية « محمد على » ، وهذا ليس معناه أن المرأة من هذا الصنف كانت وبالاً على تلك الملكية ونزير شؤم عليها .. بل بالعكس .. كانت امرأة « الحريم الشعبى » هى ناقوس الخطر الذى يدق بعنف ويهز أركان تلك الملكية على أمل الإصلاح وتغيير الأحوال فى مجالات الحياة المختلفة ، ذلك لأن تلك المرأة كانت أكثر تعبيراً عن متطلبات الشعب كله الذى ظل يأن تحت وطأة هؤلاء الحكام سنوات طويلة ويعيش فى ظلم واستبداد إلا قليلاً من الإصلاحات .

وهذا التوضيح يُعَدُّ غاية فى الأهمية .. لأنه يفرق بين ما كانت عليه امرأة « الحريم السلطانى » من استسلام لنزوات هذا الحاكم أو ذاك بصرف النظر

عن وضعها أو مشاكلها ، المهم لديها كان نفسها وفقط .. من أجل البحث عن موضع قدم داخل جناح الملك ، وكان سبيلها إلى ذلك العديد من الوسائل ، كما مر علينا من قبل ، ولكن حين جاءت المرأة الشعبية ودخلت القصور .. نقلت ما فى داخل صدرها من هموم الناس إلى عقول هؤلاء الحكام ، ولما أغلقوا آذانهم عن سماع صوت العقل الصادر من المرأة شريكة حياتهم ضاعوا وضاعت من بعدهم الملكية وإلى الأبد .

ولعل ما يوضح صدق ما ذكرناه آنفاً .. أن « الملكة ناريمان » .. آخر زوجات الملك فاروق ، وآخر ملكات مصر فى العصر الحديث كانت هى الشاهد الأول على رحيل تلك الملكية .. ليس فور توقيع الملك زوجها على وثيقة التنازل .. بل لقد صاحبت تلك الملكية إلى عرض البحر حتى غرقت فيه ناحية المياه الإقليمية لإيطاليا ، حاملة فوق كتفها ذلك الوليد الذى ضحى من أجله فاروق بالشىء الكثير ، وهو « ولى العهد » الذى ما يزال يعيش إلى الآن فى المنفى بإرادته تحت اسم الأمير « أحمد فؤاد » .

ولقد لعب الحظ دوره مع هذه المرأة حتى تشاهد وتعاصر وتصاحب الرحيل الأخير ؛ لأنها لم تستمر ملكة والتاج فوق رأسها سوى ثلاثة عشر شهراً فقط ! . وصحيح أنه لم يسقط من فوق رأسها رغماً عنها .. بل ظلت محتفظة بذلك التاج وهى تركب اليخت « المحروسة » حتى ميناء نابولى فى إيطاليا ، وإن سقط عنها رسمياً بعدما تغيرت الأحوال ليس بفاروق وحده .. بل وبمصر كلها .

وأقول هنا : إن القدر قد تدخل فى حياة الملكة الثانية « ناريمان » .. لأن الملكة الأولى فريدة قد قضت مع فاروق أحد عشر عاماً ، ومع ذلك لم تشاهد تلك اللحظات إلا مثل أى مواطن عادى ، بل ربما كانت فى هذه الآونة خارج

مصر في رحلة ترويح ونسيان لما اقترفه الملك زوجها السابق في حقها وفي حق أولاده وشعبه .

* * *

* * الزوجة الثانية :

كان لابد لنا من العيش لحظات مع الكلمات السابقة قبل الغوص في أعماق حكاية الزوجة الثانية لفاروق وآخر ملكات مصر الحديثة ، ونود أن نوضح نقطة أخرى تتعلق بهذا الزواج .. بل وترتبط به ارتباطاً وثيقاً ، وهي أن « فاروق » لم يطلّق زوجته الأولى حباً في الثانية أو كُرهاً في نفسه .. بل كانت هناك عدة دوافع ناقشناها في حينها ؛ لذلك نجده قد بقي لأكثر من ثلاث سنوات ونصف ملكاً أعزب .. وحتى عثوره على الزوجة الثانية قد تم بالصدفة ، بل هناك أقاويل تعبر ـ كما سوف نرى ـ عن سفه وصبيانية هذا التصرف من جانب فاروق ملك مصر والسودان ، الذي خطف تلك الفتاة من خطيبها ، بل ويصر على أن تكون هي الزوجة الثانية رغم أنه قد أصبح أضحوكة هذا الشعب تماماً ، مثلما فعل والده من قبل مع زوجته الثانية الآنسة « نازلي » ، وأم ذلك الملك الصبياني .

وحين نعود أدراجنا من حيث بدأنا تحت العنوان الفرعي « الزوجة الثانية » ، ونقلب في الأوراق الرسمية وغير الرسمية عن أصل هذه الفتاة نكتشف وجود معلومات غزيرة ومتنوعة .. نوردها تباعاً .

ففي السادس من مايو عام ١٩٥١ عرفت مصر كلها أن الآنسة « ناريمان صادق » أصبحت الزوجة الثانية للملك فاروق ، وأنها جلست على عرش مصر بجواره بعد أن وضعت التاج الملكي فوق رأسها خلفاً للملكة فريدة .

وكان قد تم اللقاء بين الزوجين قبل هذا التاريخ بأشهر قليلة .. كما أعلنت ذلك المصادر الرسمية ، وأن « فاروق » تقدم لخطوبة ناريمان فى الأسبوع الأول من شهر فبراير من نفس العام وقد أذاعت نشرة الأخبار نبأ هذه الخطبة من راديو القاهرة .

وكعادتنا فى تقديم معلومات موثوق بها عن « الحريم السلطانى » .. نقدم كذلك لقطات سريعة وغير مصورة عن الخلفية العائلية للزوجة الثانية ، وهى تؤكد صدق ما وصلنا إليه حين ذكرنا أن صنف « الحريم الشعبى » قد اخترق بقوة الأسوار العالية للقصور الملكية .. ليس فقط .. بل إن امرأة تنتمى إلى هذا الصنف كانت الشاهد الأول على رحيل تلك الملكية .

لقد نشرت مجلة المصور موضوعاً عن الخلفية العائلية لأسرة الملكة ناريمان ، وذلك بمناسبة إعلان نبأ الخطوبة السعيدة . جاء فيه أن « ناريمان صادق » من عائلة مصرية ، وولدت فى الواحد والثلاثين من أكتوبر عام ١٩٣٣ .. أى أنها كانت أصغر سنا من زوجها الملك فاروق بثلاثة عشر عاماً وذلك لأنه من مواليد عام ١٩٢٠ .. وبحسبة بسيطة نكتشف أن ناريمان حين تزوجها فاروق كانت تبلغ ثمانية عشر عاماً .. أما هو فقد كان عمره آنذاك واحد وثلاثين ! .

وحين ولدت الطفلة ناريمان اختار لها والدها هذا الاسم وهو ينتمى إلى اللغة التركية ، ومعناه « اللطيفة الخفيفة الروح » وكانت تدعى بين أفراد عائلتها وبين زميلاتها باسم « نورا » .

ووالد ناريمان هو المرحوم حسين فهمى صادق نجل المرحوم على بك صادق ، وكان من أعيان مصر ، وهو أيضاً ابن المرحوم الفريق محمد صادق باشا ، وكان آخر منصب تولاه والد ناريمان قبل رحيله .. أن عين سكرتيراً عاما لوزارة المواصلات .

وكان محمد صادق باشا جدّ الملكة ناريمان عضواً بارزاً فى البعثة العسكرية المصرية التى سافرت إلى باريس عام ١٨٤٤ ، وبعد عودته عُين أستاذاً للرسم الهندسى بالمدرسة الحربية بالقلعة تحت رئاسة رفاعة الطهطاوى .. وكان ذلك فى عهد الخديوى محمد سعيد باشا ، وقد توفى جدّ الملكة ناريمان عام ١٩٠٢ .

أما والدة ناريمان فهى السيدة « أصيلة هانم » كريمة المرحوم كامل محمود .. من أعيان مدينة المنيا ، وهو ابن المرحوم محمود بك إبراهيم مدير الأوقاف الأهلية السابق . كما أن للملكة ناريمان عمين شقيقين هما : محمد بك صادق الوزير المفوض بهولندا ، والثانى هو مصطفى كمال صادق قائد الأسراب الملكية .

وتقول نفس المعلومات التى أوردتها « مجلة المصور » : إن الملكة ناريمان كانت الابنة الوحيدة لأسرة حسين فهمى صادق ، وفى طفولتها التحقت بمدرسة مصر الجديدة الابتدائية للبنات ، ثم مدرسة مصر الجديدة الثانوية التى مكثت بها أربع سنوات .

وحين أعلن فاروق عن نيته فى خطبة ناريمان .. كان عليها أن تتعلم عادات وتقاليد الأسرة الملكية باعتبارها من صنف « الحريم الشعبى » .. وكان أنسب مكان تتعلم فيه هذه العادات بعض بلدان أوربا تماماً مثلما حدث للملكة السابقة فريدة ؛ لذلك تقرر سفر ناريمان إلى خارج مصر بمصاحبة عمها قائد الأسراب مصطفى كامل ستة أشهر ، زارت خلالها إيطاليا وسويسرا وفرنسا .

والجديد هنا بالنسبة لهذه الرحلة .. أن فاروق لم يصاحب ناريمان مثلما فعل مع زوجته السابقة . بل تركها مع عائلها الأول عمها ، بعد رحيل والدها

قبل إعلان الخطوبة بأشهر قليلة ، وقد تردد فى ذلك الوقت أن إعلان نبأ الخطوبة .. كان السبب الرئيسى وراء إصابة والد ناريمان بأزمة قلبية أودت بحياته .

ومن خلال بحثنا فى أوراق الكتب والوثائق الرسمية اكتشفنا أن ملكة مصر الأخيرة « ناريمان » كان لها مع فاروق عدة حكايات ومواقف سواء قبل خطبته منها أو بعد الزواج أو بعد رحيله من مصر ! . هذه الحكايات استوقفتنا كثيراً .. ورأينا من الواجب العلمى الذى تقتضيه أمانة التاريخ أن نرويها قبل أن نعيش لحظات قد تطول أو تقصر مع ناريمان داخل « حريم السلطان » الملكى .

الحكاية الأولى :

وترتبط بوالد الآنسة ناريمان الذى مات بعد أن وصلته أنباء عن رغبة الملك فاروق فى الاقتران بابنته الوحيدة ! . والغريب ـ وكما سوف نعرف ـ أن هذا الوالد المسكين لم يمت من الفرحة أو الضحك كعادة عدد كبير من المصريين ، بل مات من الهم والغم والنكد والضيق .. وهل يمكن لرجل أن يموت من الخوف على ابنته حين يتقدم من زواجها ملك ؟ .

هذا ما سوف نسعى لمعرفة تفاصيله عن قرب .

لقد لعبت الأقدار دورها المثير فى حياة تلك الفتاة .. وهذه الأقدار كما أكدت بنفسها عدة مرات قد ظلمتها إلى أقصى درجة حينما تزوجت من الملك فاروق حيث أرغمت على الزواج منه رغم اعترافها بأن لقب « الملكة » كان يجذبها للزواج من فاروق .

لقد طلب فاروق أن يتزوج من ناريمان فى الوقت الذى كانت فيه مخطوبة للدكتور « زكى هاشم » .. بل ولم يكن قد بقى على زفافهما سوى

أيام قليلة .. حيث كانت الاستعدادات على أشدها لعقد هذا الزفاف . بل أكثر من ذلك فإن بطاقات الدعوة للحفل المحدد الموعد كانت قد وزعت ، ولكن وبناء على أوامر الملك أُلغيت كل هـذه الاستعدادات .. وعلى إثر ذلك أُصيب والـدها بأزمة قلبية أدت إلى وفاته ، ويقول سمير فـراج فى كتابه عن «ناريمـان» : حـينمـا طلب الملك فـاروق يد ناريمان زوجـة له بعـد القـصـة المعروفة ـ والتى لعب أبرز أدوارهـا الجواهرجى المشهـور أحمد نجيب ـ كان الأب حسين صادق يرفض هذا الطلب ، وقد استفاد من قصة الملكة فريدة حين رفض والـدها القـاضى يوسـف بك ذو الفـقـار أن يزوجـهـا الملك ، ومـاعـانتـه الملكة رغم ذلك من هموم الحـياة داخـل القـصور الملكية فى فترة زواج فاشلة انتهت بالطلاق[1] .

ولقـد أصـر والد ناريمان على رفض طلب فـاروق ، وقـد همس بعض المحيطين به بأن « فاروق » ربما يقـتل والد ناريمان عقـاباً له على هذا الرفض ؛ لذلك لم يكن أمام ذلك الأب سـوى الهروب ومعه ابنته ، واتجه تفكير الرجل إلى إعداد خطة لتنفيذ الهروب مع ابنته ولكن بطاقات الدعوة والاستعداد لإتمام حفل الزفاف من جـانب أسـرة خطيب ابنته جعله يتراجع ، ولم يكن أمامه من مفر سـوى مواجـهة ذلك الخـطيب بهـذه المشكله لذلك تم استدعاء الدكتور « زكى هـاشم » وأسـرته وإبلاغه برغبـة فـاروق فى الفـوز بناريمان بدلا منه ، وبالتالى لم يكن أمام الدكتور « زكى هاشم » سـوى الاستسلام للأمر الواقـع والانسحاب فى هـدوء ، فكيف يواجه ملك البلاد .. ؟! .

لقـد كـان الموقف فى غاية الصـعوبة على والد ناريمان إلى حد البكاء .. فقـد كـان يخشى على ابنته من هذا الزواج الذى تصوره فاشلاً قبل أن يبدأ ؛ لذلك فكر الوالد من جديد فى الهرب مع ابنته ، ولكنهم حذروه من إتمام تلك

(١) ناريمان ـ آخر ملكات مصر ـ سمير فراج .

الخطوة ، لأن الملك قد نشر عيونه وجواسيسه فى كل مكان ! .. فى ذلك الوقت كان إبراهيم الدسوقى أباظة أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين من أقرب أصدقاء والد ناريمان .. فذهب إليه من أجل المشورة ، وما كان من الصديق إلا أن نصح الأب برفض هذه الفكرة وعدم الاستسلام لرغبة الملك .

وضاقت الدنيا أمام الأب .. ماذا يفعل ، وكيف ينقذ ابنته من هذا الزواج ؟ ومرت شهور والملك لم يعلن موقفه رسميا من هذه الخطوبة ، وقد عاش الأب أسوأ أيام حياته فاضطربت صحته ، وساءت نفسه حتى أُصيب بأزمة قلبية أودت بحياته[1] .

وبعد مرور أيام قليلة .. ظهر الملك بين المواسين فى منزل الفقيد ، وكانت تلك هى الزيارة الأولى للملك لبيت أسرة زوجته ناريمان ! . ومن بعدها عرف الشعب المصرى كله أن « فاروق » قد قرر الارتباط بفتاة جديدة .. تقدم لخطبتها بعد رحيل والدها ! .

الحكاية الثانية :

على أن أغرب ما ارتبط بقصة زواج فاروق من زوجته الثانية هو حادث السطو المخيف الذى ارتكبه فاروق فى حق ناريمان ، وفى حق نفسه ؛ إذ استباح لنفسه أن يغتصب حق الآخرين فى الحياة ، وهو للأسف كان من المفروض أن يحافظ على تلك الحقوق ، وبذلك يكرر الابن ما فعله الأب حين أقدم على فسخ خطوبة ناريمان من خطيبها السابق الدكتور زكى هاشم .. كما فعل أبوه حين اغتصب حق زوجته الثانية « الملكة نازلى » فى العيش مع من كانت تحبه قبل أن يظهر هو فى حياتها ! .

---

(١) ناريمان ـ آخر ملكات مصر ـ مصدر سابق .

وحادث السطو على ناريمان ، والفوز بها بدلاً من خطيبها السابق .. تمت على يد الجواهرجى المشهور آنذاك والمدعو « أحمد نجيب » الذى تحوّل إلى همزة الوصل بين أسرة ناريمان وبين الملك فاروق بعد رحيل والدها .

لقد بدأ مصطفى صادق عم ناريمان الاهتمام بموضوع إتمام زواج ابنة أخيه من فاروق بعد رحيل أخيه .. وقصة ذلك الوسيط أو الرجل الذى قام بدور « الخاطبة » تعود إلى ما قبل إتمام الخطوبة بعدة أشهر حين كان الملك فاروق فى زيارة لمحل أحمد نجيب الجواهرجى ، وشاهد ناريمان بالصدفة وبدون ترتيب مسبق هى وخطيبها الدكتور زكى هاشم أثناء اختيارهما لشبكة العروس .

وهناك آراء عديد ترى أنه كان هناك اتفاق مسبق بين ذلك الجواهرجى وبين الملك فاروق ، حيث كان يبلغ قصر عابدين بأخبار الفتيات الجميلات اللائى يزرن محل المجوهرات ، وكان الملك يأتى على الفور بعد إبلاغه بالرسالة .

وفعلاً حين جاءت ناريمان إلى الجواهرجى لإتمام مراسم خطوبتها بعد انتقاء « الشبكة » .. دق جرس التليفون فى القصر ، وبعد دقائق حضر الملك وحين رآها أعلن ـ فوراً ـ أنه سوف يتزوجها على الرغم من علمه المسبق بأنها مخطوبة .

وبالفعل كان للملك ما أراد ، فقد أصدر أوامره بإلغاء كل استعدادات الأسرتين لإتمام حفل الخطوبة والزفاف ، ومن بعدها كان فاروق دائم الاتصال بناريمان يومياً فى منزلها ، ولكن على إثر وفاة والدها الذى كان المعترض الوحيد على إجراء هذا الزواج ؛ توقفت اتصالات الملك بالآنسة الصغيرة ؛ لذلك ذهب عم ناريمان إلى الجواهرجى أحمد نجيب وأخبره بتخوفه من ذلك الموقف المفاجئ للملك ؛ إلا أن أحمد نجيب طمأنه وأخبره بأن المسألة مسألة وقت فقط .

ومن يومها وعلى حد قول الصحفى « سمير فراج » .. عاد الملك يراسل الفتاة الصغيرة ، ويكتب لها الخطابات المعسولة والعاطفية باللغة الفرنسية . والمثير أن ذلك الجواهرجى كان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فيما يخص حياة ناريمان .. بل كان كثيراً ما يتدخل فى الرد على خطاباتها للملك !! .

لقد اعتمدت أسرة ناريمان وبناء على تعليمات فاروق على أن يتولى أحمد نجيب الجواهرجى بنفسه كتابة رسائل ناريمان التى ترد بها على رسائل الملك الملتهبة بالمشاعر والحب ، وذلك حتى أتقنت اللغة الفرنسية ، وبالتالى لم تعد تسمح لأحد بأن يطلع على ما تكتبه بنفسها إلى فاروق ، بل أكثر من ذلك سمح الجواهرجى أحمد نجيب لنفسه أن يصاحب ملكة مصر المقبلة فى رحتلها الخارجية من أجل أن تتعلم أصول الحياة داخل القصور ، بل كان ينزل معها ومع عمها الذى صاحبها هذه الرحلة فى نفس الفندق الذى كانت تقيم به .

الحكاية الثالثة :

والآن وبعد أن فاز الملك بصيده الثمين .. حين نجح فى تعطيل مسيرة زواج ناريمان من خطيبها السابق .. يتوقف الزمن لحظات عند الحكاية الثالثة .. والتى ارتبطت بقصة هذه الملكة التى عاشت أياماً مرعبة بين الرغبة فى الفوز بالعرش وبين الشك فى عدم الفوز به .

ولقد اكتشفنا أن لهذه الحكاية وجهين أحدهما مستتر والآخر ظاهر للعيان ، وكان للمؤرخين وللرواة مواقف متنوعة ومتعددة تأرجحت ما بين التطرف والاعتدال .

أما الوجه الظاهر فى الحكاية الثالثة .. فيروى لنا جانباً منها الكاتب الصحفى « سمير فراج » حين يقول : أصدر الملك فاروق تعليمات عاجلة

بعودة ناريمان من أوربا ، والاكتفاء بتلك الفترة الزمنية التى زادت عن نصف عام قضتها فى خارج مصر ، وقد وصلت برقية عاجلة تفيد ذلك ، وأعدت على الفور الباخرة « إكسكا ، ليبار » لتبحر بالجميع « ناريمان ، وعمها مصطفى صادق والسفير المصرى فى باريس وزوجته » ، واتضح أنه كان يوجد على ظهر هذه الباخرة بعض أفراد من الأسرة المالكة ، ولكنهم لم يعرفوا أن الباخرة كانت تحمل زوجة الملك فاروق القادمة ! .

وقد تأكد عم « ناريمان » من أن موعد جلوس ابنة أخيه على عرش مصر بجوار فاروق قادم خلال أيام معدودة .. حين شاهد تلك الاستعدادات الكبيرة التى تمت إقامتها داخل ميناء الإسكندرية لاستقبال « جلالة الملكة » خطيبة الملك فاروق ، لقد أعدت الخاصة الملكية لنشًا فاخراً كى تستقله ناريمان وعمها ، وكانت التعليمات ، أن تذهب إلى قصر رأس التين لتأخذ بعض الراحة .. ثم تتوجه بعد ذلك إلى القاهرة بواسطة السيارات الملكية . وكانت المفاجأة حين اتضح أن الملك فاروق كان على رأس مستقبليها ! .

وبعد رجوعها من رحلتها الملكية .. طال انتظار أسرة ناريمان الإعلان الرسمى عن خطوبة ابنتهم للملك ، مما أدى إلى توتر أعصاب والدتها السيدة أصيلة ، الأمر الذى جعلها ترفض طلب فاروق فى أن يخرج مع ناريمان ، واشترطت أولاً إعلان خطوبته رسميا .

ومرت الأيام بطيئة ومملة ، ومشروع الخطوبة متوقف إلى حين .. على الرغم من أن غالبية الشعب كان يعرف بأمر هذه الخطوبة ، ويبدو أن الملك « فاروق » كان يقضى الأيام السابقة فى إقناع عشيقته ناهد رشاد فى أن تقبل الأمر الواقع بعد ما كانت تعتقد فى نفسها أنها الملكة القادمة .

وهذا هو الجانب الخفى فى مشروع خطوبة ناريمان لفاروق .. ذلك الجانب الذى ظل فى طى الكتمان طيلة ثلاثين عاماً .. حتى جاء مرتضى

المراغى آخر وزير للداخلية وللحربية فى العهد الملكى وكشف عنه النقاب فى أوراقه الخاصة ومذكراته عن الملك فاروق .

ولعلنا نقتطف بعض اللقطات مما ذكره مرتضى المراغى عن علاقة ناهد رشاد بالملك فاروق ، وكيف زُفَّ إليها نبأ خطبته .. بعد عملية تسويف طويلة خوفًا من الاصطدام بها .

يقول مرتضى المراغى : .. « وخرجت من جناحه وهى تقول لنفسها : هل هو حلم ؟! . وذهبت إلى غرفة نومها وأغلقت الباب ونظرت إلى المرآة .. وقالت : هذه ملكة مصر المقبلة ! . لقد بشَّرها الملك حين أخبرها بأنه يريد أن يتزوج فعلاً ، وحين أرادت أن تتأكد من صفة الزوجة القادمة تساءلت فى دلال وأُنوثة : ومن تكون هى تلك السعيدة يا مولاى !؟ قال فاروق ، وهو ينظر إليها بشراهة : المشكلة أنها متزوجة .. وحين أعتزم زواجها سوف أطلقها من زوجها » .

« ولمزيد من الحصول على معلومات تساءلت أكثر : وهل أعرف من هذه السيدة ؟! . قال الملك : أنت يا ناهد !! . وليكن حديثى معك عن هذا الأمر سراً حتى أقرره فى حينه » .

ويواصل مرتضى المراغى شهادته للتاريخ عن ذات الموضوع حين قال : « .. ومضى عام على هذه الواقعة ، وناهد رشاد تنتقل كالفراشة بين زهور أحلامها حتى استدعاها الملك من منزلها فى يوم مطير على عجلٍ .. وفى تلك الليلة تزينت ناهد كما لم تتزين من قبل .. إنه يومها المرتقب .. فربما جاء الميعاد وسيزف إليها الملك نبأ زواجه منها ! .

ودخلت ناهد على الملك فى جناحه الخاص .. جلست تراقبه ، ومرت دقائق وفاروق ساكت يدخن سيجاره .. ثم أدخل يده فى جيبه وأخرج مظروفًا أبيض به صورة لفتاة صغيرة السن .

وعلى الفور تساءلت ناهد : من هذه الفتاة يا مولاى ؟! .

قال الملك : وهل تعجبك ؟! . إنها زوجتى المقبلة ! .

توقّفت حواس ناهد ، ومضت فترة لَمَح خلالها الملك مدى الألم الذى تعانيه ، ولكن بقلبه الصخرى كان أشبه بقائد كتيبة يطلب من جنوده اقتحام حقل ألغام .

أفاقت ناهد من ألمها على صوت الملك يقول : إن السيارة تنتظرك لتقلك إلى منزلها ، ولتبدئى على الفور ما أمرتك به . إن اسمها ناريمان .. ناريمان صادق[١] .

وبالفعل استمرت ناهد رشاد بجوار زوجة فاروق الثانية ـ الملكة ناريمان ـ ولكنها لم تستسلم .. فقد قبلت الوضع الجديد على مضض ، ورحبت رغم مرضها وآلامها النفسية والجسدية بأن تكون وصيفة للملكة الجديدة .. على أمل أن تجد الفرصة السانحة من أجل الانتقام من الملك .. بل ومن الملكية بأثرها ، وقد كان لها ما أرادت حين ساعدت بعض ضباط الجيش المنتمين إلى تنظيم الضباط الأحرار فى الفوز برأس فاروق والإطاحة بالملكية فى عام ١٩٥٢[٢] .

الحكاية الرابعة :

سوف يلاحظ القارئ العزيز .. حين نتحدث عن حكاية ناريمان فى الحلقة الرابعة من حلقات حكاياتها مع فاروق .. أننا قد اقتربنا من نهاية رحيل الملكية ، وبالتالى خروج آخر امرأة كانت حبيسة القصر الملكى فى حريم السلطان ، ونالت حريتها .. ليس بالرحيل من مصر مع وليدها « ولى العهد » ..

---

(١) شاهد على حكم فاروق وسنوات ما قبل الثورة ـ مرتضى المراغى .

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع ـ راجع كتاب المؤلف بعنوان « ناهد والملك فاروق » .

بل بنجاحـها فى الحصـول على طلاقها من الملك السـابق ، وبذلك تكـون أول ملكة مصرية قـديماً وحـديثاً .. تنول هـذه الرغـبة ، وتفوز بطلاقها من أحـد الملوك .

ولقد قصدنا ذلك بالفعل ـ ولكننا سـوف نعود أدراجنا من جديد مع نهاية هذه الحكاية .. كى نقف على أبواب قصر الحريم ، ونشاهد كيف كان وضع الملكة ناريمان داخل ذلك القصـر ؟! .. وكيف كـانت تعيش مع هذا الزوج التعس رغم أنها كانت صاحبة الفضل عليه فى إنجاب ولى عهده ، الذى رحل وهو رضيع عن أرض مصر ولم يتمكن من تحقيق حلم أبيه الذى عاش من أجله طويلاً هو وأسرته جميعاً .

أما عن تفاصيل الحكاية الرابعة .. والخاصة بطلاق ناريمان من فاروق .. فكان لها بدايات مضحكة ، ونهايات مبكية .. ولنحاول أن نستمع إلى بعض تفاصيلها دون تعليق من جانبنا .

ففى صباح اليوم السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، وبعد توقيع فاروق على وثيقة التنازل عن عرشه ، واضعاً بذلك نهاية غير متوقعة لملكية أسـرة محـمد على التى استمرت لأكثر من مائة عـام أقول : بعد حصول الضباط الأحـرار على هـذا التنازل .. تم إعداد يخت « المحروسة » كى يحمل « فاروق » وأسرته إلى خارج مصر ، وكان على رأس هذه الأسرة الملكة ناريمان التى كان عليها أن تبدأ مرحلة جديدة من حياتها منذ تلك اللحظة .. فقد كانت ملكة لمصر ثم أصبحت بعد تلك اللحظة زوجة لرجل كان ملكاً .

وداخل اليخت الملكى الذى تحرك متجهاً إلى إيطاليا تحول فاروق فجأة إلى عائل أسـرة مثالى .. حيث اتجه إلى مكان الملكة ناريمان زوجته وابنهما الوليد « ولى العهد » .. والأميرات شقيقاته وأولاده من الملكة السابقة فريدة . لقد كان

فاروق رغم هذا الموقف العصيب فى غاية الحنان والعطف وهو يداعب الجميع فى مودة بالغة لم يألفها مَنْ حوله من قبل .

وقبل أن يغادر اليخت « المحروسة » المياه الإقليمية المصرية ـ سمع فاروق صوت بكاء من حجرة زوجته .. إنه صوت ناريمان ، وعلى الفور نهض للوقوف بجانبها فى هذه المحنة ولم يتركها إلا بعد ما هدأت ، ومن ثم خرج من غرفتها وهو لا يزال بثياب البحرية التى نزل بها من قصر رأس التين .

وقد أخذ الملك فاروق يراقب أفراد أسرته المرافقين له فى رحلة المنفى ولم يدخل غرفته إلا بعد أن هدأ كل شىء فوق اليخت ، وبالتالى تقبل الجميع الوضع الجديد فى انتظار رسو اليخت تجاه ميناء نابولى بناء على تعليمات جديدة أصدرها فاروق للكابتن علوبة قائد المحروسة ، وفى مدينة نابولى أقام فاروق وأسرته فى « ڤيلا » خاصة ، وكان فى كل مساء يتوجه إلى روما بسيارته حيث كان يتناول العشاء فى كازينو « كافيه دى بارى » ، ثم يتردد على عديد من الملاهى الليلية والنوادى .

وبعد فترة وجيزة قصد فاروق مدينة روما العاصمة حيث اشترى قصراً أقام فيه هو وأسرته « الملكة ناريمان وابنه الأمير أحمد فؤاد وأولاده البنات من زوجته الثانية فريدة » . ويبدو أن انتقال فاروق لمدينة روما كان البداية الحقيقية لنزاع طويل نشب بينه وبين ناريمان انتهى بالطلاق فى المحكمة .

لقد غرق فاروق حتى أُذنيه فى علاقات جديدة مع نساء مدينة روما .. كما تحول إلى أشهر مقامر فى المدينة .. ولقد تسببت هذه العلاقات النسائية فى زيادة النزاع بينه وبين زوجته ، خاصة بعد أن أخذت الصحف الأوروبية تلاحق تصرفات الملك وتكتب عن مغامراته فى عالم النساء ، كما بدأت نفس الصحف تروى حكايات طويلة عن مشاجرات متتالية بين فاروق وبين ناريمان

الزوجة ، وقد وصفت الصحف هذه الخلافات بأنها استمرار للخلافات التى بدأت فى القصر الملكى .. كما أن « فاروق » قد نسى وهو فى إيطاليا أنه لم يعد ملكًا ولا يستطيع أن يصرف ؛ لأن خزانة مصر لم تعد تحت تصرفه ، كما أن ناريمان كانت دائمـًا تطلب منه أن يحافظ على البقية الباقية من الأموال التى هربها معه ، وإن لم يكن من أجلها فعلى الأقل من أجل ابنهما الوليد أحمد فؤاد .

وكما اتهم فاروق أمه ذات يوم بأنها كانت وراء الحملات الصحفية التى كانت تُشَن ضده فى الخارج ، اتهم « أصيلة هانم » والدة زوجته بأنها وراء كل تلك الحملات الصحفية التى تُشَن ضده فى ذلك الوقت بإيطاليا .

وعلى الجانب الآخر .. كانت ناريمان تعتقد أن زوجها الملك السابق لن ينسى موقفها الإنسانى الذى وقفته معه ، وهو يغادر مصر على الرغم من المشاحنات المستمرة بينهما ؛ ولذلك فقد ظنت ناريمان أنها باختيارها السفر مع زوجها الملك المطرود سوف تضع « فاروق » أمام مسئولياته كزوجٍ وأبٍ وإنسانٍ ، وأنه سيحفظ لها ذلك من باب مبادلته لها الوفاء بالوفاء ولكنه كان جاحدًا[1] .

ولم يكن فاروق يرى أن ما فعلته ناريمان هو من باب التضحية .. بل كان ينظر إلى ذلك الفعل على أنه شىء عادى للغاية ، وأنه أبسط ما يجب أن تفعله أية زوجة صدر أمر بإبعاد زوجها من البلاد .

ومن هنا بدأت سلسلة من المتاعب والخلافات ومعهما بدأت الزوجة تعود إلى ترديد طلبها السابق بالحصول على الطلاق ، ولما شعرت بالضيق فى وحدتها فى بلاد أوربا .. أرسلت فى طلب والدتها « أصيلة هانم » وبالفعل توجهت

---

(١) ناريمان آخر ملكات مصر ـ المصدر السابق

إلى روما فى نهاية عام ١٩٥٣ ، بعـد أن تقدمت بطلب للسفر إلى ابنتهـا إلى محمد نجيب الذى كان يومها رئيساً لمجلس قيـادة الثـورة .

وهناك لمست الأم ما كانت تعانيه ناريمان من مشاعر الغربة والضيق خاصة عندمـا حكت لهـا بأن فـاروق لم يكن فـقط يتـركـهـا ويذهب إلى الحـانات وكازينوهات القمار .. بل كثيراً ما كان يسخر منها كزوجة أمام الناس ، وقد صفعهـا على خدها فى إحدى هذه المرات ، حينما كـانت تجلس بجواره فى إحـدى كـازينوهات رومـا عندمـا اعـتـرضت على سلوكـه الشـائن مع إحـدى السيدات التى رقص معها وهو سكران .

وعلى الفور توجهت والدة ناريمان لمقابلة الملك السابق فاروق .. وطلبت منه أن يطلق ابنتها فوراً .

ويقـول شـاهد عيـان : أن النقـاش الذى دار بين والدة الملكة وزوجـهـا قـد احتدم كثيراً ، ومع ذلك لم تحصل ناريمان على وثيقة الطلاق إلا بعد أشهر .. حين استـسلم فـاروق فى النهـاية لهـذا الطلب بشرط أن تتنازل له عن حـضـانة ابنهـما الصغير أحمد فؤاد .. وبالفعل تم الطلاق بين فاروق وناريمان فى الشهر الثانى من عـام ١٩٥٤ .. هذا الطلاق الذى شـهـدته إحدى محـاكـم الأحـوال الشخصية مثله مثل أية قضية من هذا النوع .

لقد نظرت محكمة الأحوال الشخصية بمصر الجديدة قضية طلاق ناريمان من زوجها السابق فاروق فى اليوم الثالث من شهر فبراير عام ١٩٥٤ ، وكـانت والدة ناريمان قـد رفعت قـضـيـتين ضـد فـاروق أمـام نفس المحكـمـة : الدعـوى الأولى كانت تحت رقم ٩٥٢ لسنة ١٩٥٣ تطلب فيها تطليق ابنتها من زوجها السابق لوقوع الضرر عليها ، ومنع تعرضه لها فى أمور زوجية لأسباب الضرر السـابق ذكرها فى عريضة الدعوى .. أما القضية الثانية بخصوص طلبها فرض

خمسة آلاف جنيه شهرياً لنفقتها بأنواعها على فاروق ابتداء من الثانى عشر من مارس ١٩٥٣ .. مع إلزامه فى القضيتين بالمصاريف ومقابل أتعاب المحاماة .

وأمام القاضى الشيخ أحمد مراد قاضى المحكمة الشرعية بمصر الجديدة .. تم نظر القضيتين .. وتم الحكم فيهما حسماً للنزاع فى هذه الخصومة .. فقد جنح الطرف الثالث وهو الملك السابق فاروق للسلم كما قالت المحكمة ، حيث انتهى فيما يتعلق بالقضية الأولى بقبوله تطليق زوجته السيدة ناريمان الطرف الأول منه طلقة بائنة للأسباب المذكورة فى صحيفة الدعوى من تلك القضية ، التى حُدد لنظرها جلسة يوم الثلاثاء الموافق الثانى من فبراير عام ١٩٥٤ .

أما فيما يتعلق بالقضية الثانية والخاصة بالنفقة فقالت المحكمة إنه نظراً لما تعرض له الطرف الثالث وهو الملك فاروق من مصادرة أمواله وممتلكاته فقد رأى الطرف الأول زوجته ـ السيدة ناريمان ـ التنازل عنها ، وبالتالى شطب دعواها الثانية بالنفقة والمرفوعة برقم ٩٥٣ المشار إليها .

والغريب أن ناريمان لم تحصل على هذا الطلاق إلا بعد إبرام اتفاق بين الملك وبينها تم صياغته فى مدينة روما ثم تُرْجِمَ إلى اللغة العربية وتلاه محامى فاروق فى المحكمة ، وقد نص الاتفاق على ثلاثة بنود هى :

*** موافقة فاروق على تطليق ناريمان طلقة بائنة .**

*** يتعهد الطرف الأول وهى ناريمان بطلب شطب قضية النفقة .**

*** يتنازل الطرف الأول والثانى (ناريمان وأمها) عن الحق فى حضانة الصغير .**

وبالبحث فى أروقة وأرشيف المحاكم اتضح أن هذه القضية قد استغرق تداولها داخل محكمة مصر الجديدة الشرعية على مدى ثلاث جلسات بدأت من الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٣ وانتهت فى فبراير عام ١٩٥٤ .

* * *

وإذا كانت النهاية كما عشناها قد تمت على يد القاضى الشرعى بمصر الجديدة ، فإن البداية كانت قد بدأت أيضاً فى مصر الجديدة .. وما نقصده بالنهاية هنا ليست نهاية فاروق أو ناريمان .. بل نهاية حكاية زواجهما الذى دام لأكثر من أربعة عشر شهراً ، وشهد العديد من المواقف التى لم يشهدها زواج فاروق من زوجته الأولى فريدة .

والبداية التى نقصدها .. كانت وصول ناريمان إلى قصر عابدين وجلوسها على العرش بجوار فاروق .. فقد كانت من قبل تعيش هى الأخرى فى حى مصر الجديدة الذى لم يكن يبعد سوى مسافة بسيطة عن حى حدائق القبة الذى شهد معظم أحداث تلك النهاية داخل قصره الكبير .

وكما عشنا لحظات هذه النهاية التى رسمت أولى خطواتها على اليخت « المحروسة » واكتملت تلك الخطوات فى مدينة روما أولاً ثم فى مدينة القاهرة .. فكان علينا أن نعيش كذلك نفس هذه البداية حيث تحولت من بعدها ناريمان صادق إلى ملكة مصر الثانية وزوجة فاروق ملك مصر والسودان .

ولقد نقلت لنا وقائع تلك البداية عدة صحف وعدة مجلات ، اخترنا منها ذلك الوصف الذى شاهده أحد الصحفيين الكبار بدار الهلال الصحفية ، وكتبه فى مجلة المصور الصادرة فى اليوم السابع من مايو عام ١٩٥١ .

يقول شاهد العيان : فى منتصف الساعة السادسة من مساء يوم الأحد الموافق السادس من مايو عام ١٩٥١ .. يوم القران الملكى السعيد وقف جلالة

الملك عند مدخل الحرملك بقصر عابدين ، وحوله وصيفات الشرف اللواتى وقع عليهن الاختيار لحمل ذيل ثوب صاحبة الجلالة الملكة .. حتى إذا ما وصلت العربة الملكية التى تقل جلالة الملكة ناريمان وبصحبتها سمو الأميرة فوزية ، تفضل جلالته واصطحبها إلى الصالون الكبير حيث جلسا يحفُّ بهما أعضاء البيت العلوى الكريم .

وبخلاف هذا الوصف الذى نقله إلينا أحد الصحفيين نسوق وصفا آخر ذكرته الملكة السابقة ناريمان عن تلك الليلة .. حين قالت : لقد بدا كل شىء وكأنه حلم مستحيل الوقوع .. نعم لقد بدا لى مستحيلاً أن يصبح مسكنى هنا فى قصر عابدين الرائع الذى طالما شاهدته من بعيد وأنا طفلة عندما كنت أمرُّ عليه ، ويدى فى يد والدى سائرين على الأقدام ، لقد كانت أمامى أسابيع وأشهر وسنوات أتفرغ فيهم لمشاهدته من الداخل والتنزه بين جدرانه ، وتحسس أعمدته الرائعة .

وعندما وصلت وأنا متعلقة فى ذراع زوجى فاروق إلى آخر درجات سلم القصر شاهدت صفوف حرس الشرف ، وكذلك شاهدت « السلطانة ملك » زوجة سلطان مصر السابق حسين كامل تقف إلى جانب هذه الصفوف ، كما رأيت كريمتى فاروق اللتين أعرفهما جيداً وهما فريال وفوزية ، لقد كانتا تنظران إلىَّ بعيونهما العسلية وأنا أصعد آخر درجات السلم وإلى جانبهما وقفت شقيقات الملك الجميلات كعرائس الصور . وقتها كانت أول مرة فى حياتى أتلقى التحية الملكية ، وهى تؤدى بالانحناء ، ثم بلمس القلب فالشفتين ، فرموش العين باليد .

ووراء أعضاء الأسرة المالكة وضيوف الشرف كان يقف كبار رؤساء البعثات الدبلوماسية الأجنبية فى أرديتهم المزركشة ووقتها سمعت اسمى ولقبى الملكى يتردد بعشرات اللغات .

وعلى الرغم من أننى كنت أعتبر زوجة لفاروق منذ عقد القران ، فإننى لم أشعر أننى زوجته حقاً إلا عندما قابلنى وقدم ذراعه لى ، ودخلنا إلى صالة الاحتفالات الكبرى بقصر عابدين التى كان لها باب واحد رئيسى للدخول ، ولذا فقد كان علىّ أن أقطع الصالة طولاً ، وهى مسافة تبلغ ثمانين متراً حتى أصلَ إلى المقعد الكبير الذى تجلس عليه الملكة بجوار الملك ، وكان مقعدى كبيراً وعميقاً .. ومكسواً بحرير « جوبلان » الذى لا يُقدَّر بثمن . وعلى جانبى صالة الاحتفالات صُفت المقاعد للرجال إلى جانب السيدات .

وجلستُ على المقعد الكبير الذى صُنِعَ على هيئة كرسى العرش ، وجلس زوجى فاروق إلى جانبى ، وأحسست بأن لدىَّ القوة الكافية لمشاركته حياته وتبعاته .

وتواصل ناريمان ذكرياتها عن ليلة العمر ، وليلة زفافها على فاروق فتقول : لم ينم المصريون ليلة عيد الزفاف وظلوا يحتفلون بالعيد فى الشوارع ويشاهدون الصواريخ ، بينما زُينت المبانى الكبرى والمحلات بأضواء النيون وبالأنوار الكاشفة .

أما فى القصر فقد استمرت حفلة الاستقبال الكبرى حتى الساعة الرابعة صباحاً ، وانتقل المدعوون إلى مسرح القصر الذى لا تزال فيه مقصورة محجوبة للسيدات وكأنما هى ذكرى الأيام الغابرة التى لم يكن يسمح فيها باختلاط الجنسين ، وشاهد المدعوون رقصات عربية ، كما قامت فرقة من الراقصات الأسبانيات بتقديم برنامج رائع ، وهى فرقة رقصت فى جميع القصور الملكية فى العالم .

وعندما انتهى الحفل رافقنى الملك زوجى إلى جناح الملكة فى القصر ، وعندما دخلت مخدعى ، وجدت أن الخدم قد أحضروا ملابسى وحاجاتى

الشخصية من منزلنا فى مصر الجديدة ، أما فاروق فكان بفيض رقة وعذوبة ، وعندما قادنى إلى حجرتى قبّلنى فى جبهتى وسألنى : هل سررت بكل شىء يا عزيزتى ، فقلت : نعم ، لقد سررت كثيراً ، وكم وددت لو أن المرحوم والدى كان معنا ، وقال : « كم كنت أود ـ أنا كذلك ـ أن يكون والدى معنا » . واختتم فاروق لقاء هذه الليلة معى بقوله : غداً عندما نكون قد نمنا كفايتنا يا عزيزتى ، علينا أن نزور قبر والدك وقبر والدى .

* * *

وبقى لنا عبر هذه الرحلة الطويلة التى استغرقت تفاصيلها كل هذه الأوراق أن ندق أبواب ذلك القصر الملكى الكبير ، ونستأذن فى الدخول كى نصاحب آخر امرأة فى هذا القصر وهى تحكى لنا كيف كانت تعيش وتحكم بعيداً عن شبح الماضى الذى عاشته غيرها من أبناء جنسها ، حين كانوا لا يرون النور إلا من فتحات صغيرة فى أبواب صلبة يقف خلفها حراس أشداء ، وها هى مثلهم الآن .. داخل نفس هذا القصر الذى شهد أعنف أحداث « الحريم السلطانى » ، وإن كانت تختلف عنهنّ كثيراً فى أنها قد جاءت إليهنّ من « الحريم الشعبى » . وبالتالى رفضت الاستسلام لتقاليد ذلك الحريم .

لقد خصصت الملكة ناريمان فصلاً كاملاً فى مذكراتها التى كتبها الصحفى الإنجليزى « نورمان برايس » ـ والذى صاغ من قبل مذكرات الملك فاروق ـ عن بعض لياليها التى قضتها داخل قصر عابدين وقصر القبة كملكة لمصر ، وزوجة لفاروق ، ولسوف ننتقى منها بعض المواقف والصور التى تقرب إلى الأذهان ، كيف كانت تعيش هذه الملكة التى قدمت من « الحريم الشعبى » وكيف كان يعاملها زوجها الملك السابق فاروق .

ولعلنا قبل استعراض هذه الصور ، وهذه المواقف نشير إلى أن ناريمان هى الملكة المصرية الثانية التى تمكنت من كتابة مذكراتها عن حياة القصور .. حيث سبقتها إلى ذلك زوجة الخديو عباس حلمى الثانى ، وإن كانت والدة ناريمان « السيدة أصيلة » قد كذبت صدق هذه المذكرات !! .

وقالت الملكة ناريمان فى هذه المذكرات : « لم نسافر فى رحلة شهر العسل توا كما يفعل أغلب الأزواج الشباب لأنه كانت لدى فاروق أعمال هامة من أعمال الدولة اضطرته إلى البقاء فى القاهرة فترة من الوقت .. وقد قال لى : سأعد لك يا عزيزتى شهر عسل لن تنسيه مدى الحياة ، ولكن علينا أن ننتظر شهراً على الأقل فى القاهرة ، إذ لا شك سأظل مربوطاً إلى التليفون مع القاهرة إذا قمنا برحلة شهر العسل الآن .

وأقول : الحق أنه ما كان يرضينى أن يقوم برحلة شهر العسل توا وأن يظل فاروق مشغولاً بالاتصال بالقاهرة خلال الرحلة ، ولهذا فقد كنت على استعداد للانتظار قليلاً .

وكانت القصور الملكية حتى ذلك الحين أماكن لا نعرفها ، فظللت أياماً أكتشف جنباتها ، وبعد أيام قلائل من الزفاف انتقلنا من قصر عابدين إلى قصر القبة وأعتقد أن فى قصر القبة نحو ثلاثمائة صالة وحجرة ، كما أن طول ممراته ومماشيه المغطاة بالسجاجيد الخضراء يبلغ عدة كيلو مترات .

وبعد انتهاء حفلات الزفاف .. كان يبدو على زوجى السرور لتوقف المدافع عن ضجتها ولانطفاء الأنوار التى كانت تسبح فيها القاهرة .. ولعودة الحياة الطبيعية إلى مصر .

وفى المساء كان فاروق يرافقنى فى حجرتى وقد بدت أمارات الإجهاد واضحة على وجهه .. كما ارتسمت تجاعيد التعب حول فمه بعد يوم طويل قضاه فى العمل مع مستشاريه داخل القصر .

وكانت عادتنا أن نتناول طعام العشاء وحيدين وبدون ضيوف على مائدتنا ، وبعد العشاء كان فاروق يخلع بدلته العسكرية أو الحلة الرمادية الرسمية ويجلس بجانبى وهو يرتدى « الروب دى شامبر » .. أما أنا فكنت أتسلى بمشاهدته وهو يكسر الجوز بالضغط عليه بين إبهامه وسبابته .. وكان يفعل ذلك بسهولة كما لو كان يضغط على برتقالة ، وما كنا نتحدث فى أى أمر جدى ؛ لأن أعمال اليوم الطويلة كانت كافية .. ولهذا فقد كنا نجلس معاً لنضحك ولنطلق أنفسنا على سجيّتها ، كما كنا نستمع إلى الراديو أو ندير بعض الإسطوانات . وأحياناً كان فاروق يجلس صامتاً ويتأمل وجهى فى شغف وهو يشد أنفاساً من سيجاره فى سرور ورضاد .

وكان يكفى فاروق أقل القليل من النوم كى يستعيد نشاطه ، وفى بعض الليالى كنت فى الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل أراه فى أوج حيويته وهو يتمنى لى ليلة سعيدة ويضعنى فى فراشى ، كما كان لا يظهر بالقصر طوال النهار ، ولهذا كان يستيقظ مبكراً قبلى بكثير ودون اعتبار للساعة التى يكون قد قام فيها ، أما أنا فتعودت على الاستيقاظ المتأخر وكنت أحياناً أفتح عينى لأجده يتناول طعام الغداء ، ولقد أمر فاروق فى الشهر الأول لزواجنا بألا أتولى واجباتى ومهامى الرسمية حتى أعتاد حياتى الجديدة .

وكما كانت بى حاجة إلى أن أشترى حاجاتى بنفسى .. إذ كانت وصيفات الشرف يقمن بإحضار لوازمى .. وكان عندى عدد كافٍ من الملابس الداخلية والخارجية .

ومما لفت نظرى فى هدايا الزفاف التى بدأت أستعرضها .. تلك الهدية التى أرسلها إلينا « ستالين » وهى مجموعة من الفراء النادر ، وقد أرسل « ستالين » هدية بواسطة المفوضية الروسية بالقاهرة ولم يكن زوجى

فاروق فى يوم من الأيام صديقاً لستالين . ولم يكن صديقاً للمفوضية الروسية وكم طلب من الإنجليز ألا يفرضوا عليه استقبال الدبلوماسيين الروس فى مصر .

وكانت وصيفة غرفتى واسمها « ڤيوليت » جوهرة غالية .. وقد جاءت معى عندما اصطحبت زوجى إلى منفاه وتركت زوجها بالقاهرة ، لقد كانت وصيفتى « ڤيوليت » تلميذة فى المدرسة مع فريدة وصيفة بيچوم أغا خان .

وفى حياتى الجدية كملكة مصر ظلت علاقتى بعائلتى كما هى ، فقد كانت والدتى تأتى كل عصر تقريباً لتتناول معى الشاى فى القصر ، أو كنت من حين لآخر أزور عائلتى فى مصر الجديدة .

وكان واجبى الوحيد حينذاك بالإضافة إلى تطبُّعى بحياتى الجديدة فى القصر ـ هو إعداد قائمة الطعام اليومى لزوجى ولم يكن هذا واجباً سهلاً ؛ لأنه كان علىَّ أن أتذكر دائماً الأصناف التى يحبها أو التى لا يحبها ، ولست أذكر أن زوجى فاروق قد رفض أى طبق اخترته له وقدمته فى قائمة الطعام[1] .

* * *

(١) جريدة المصرى بتاريخ ١١/٢٦/ ١٩٥٢ .

ملحق صور الفصل السابع



الملكـــــة ناريمـــــــان

أشهر صور لناريمان زوجة الملك فاروق



الملكة ناريمان فى ثوب الزفاف الملكى



الملكة ناريمان وهى تستعد للخروج من قصر عابدين مع بداية احتفالات الزفاف وبجوارها الأميرة فوزية وخلفها وصيفتها الخاصة ناهد رشاد



الملك فاروق فى صورة نادرة مع زوجته الثانية الملكة ناريمان وهى تحمل ولى العهد داخل القصر الملكى .. قبل خلعه بأيام .



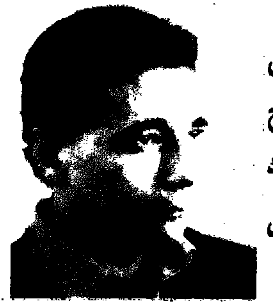
الملك فـاروق يمشى فى شـوارع رومـا وبجـواره زوجـتـه الملكة ناريمان .. وخلفهـمـا الـوصيفه تحمل ابنهما الـوليد ـ الأميـر أحمد فـؤاد والصـورة بعد طرده من مصر .

وزارة العدل
محكمة مصر الجديدة الشرعية
رول جلسة ٢٨ ديسمبر ١٩٥٣

رول الجلسات التى عقدت بمحكمة مصر الجديدة الشرعية عام ١٩٥٣ .. ويبدو فيها نظر قضية ناريمان وزوجها فاروق . انظر جيداً لرقمى ٨ و ٩ داخل هذا الرول .

محتويات الفهرس

حريم ملوك مصر



نستطيع القول بأن الكاتب الصحفى « حنفى المحلاوى » تمكن بحرفية الأديب وذكاء المؤرخ من الاقتراب ، بل والعيش داخل كل قصور حريم ملوك مصر على مدى أكثر من مائة وأربعين عاماً .. هى كل عمر الملكيّة فى مصر ..

ولقد صور لنا الكاتب بإسلوبه الرشيق المتميز .. ما كانت عليه هذه القصور .. عابدين والقبة والجزيرة وحلوان والبستان والزعفران .. وأين كان موقع زوجة الوالى أو الخديوى أو السلطان أو الملك خلف هذه الجدران الحريرية !! .

وقد اكتشف خلال رحلته الطويلة داخل هذه القصور أن عدد الزيجات الشرعية لهؤلاء الحكام بلغ اكثر من ستين امرأة بخلاف آلاف الجوارى والمحظيات . والجديد فى هذه الأوراق أن الكاتب الصحفى الأديب « حنفى المحلاوى » يعتبر أول كاتب ومؤرخ مصرى أو أجنبى تمكن من العثور على أسماء هؤلاء الزوجات ، سواء من الوثائق الرسمية أو من وثائق قصر عابدين أشهر قصور حريم ملوك مصر حتى عام ١٩٥٢ ! ، كما لم ينس إخبارنا بالحريم الشعبى وهن الملكات اللاتى دخلن القصور وتزوجن الملوك ولم يكنّ أصلا من الأسرة الحاكمة ، بل يرجع أصلهن إلى عامة الشعب .

إنها بحق رحلة شيقة .. وجولة أسطورية فى أروقة وغرف كل قصور ملوك مصر من محمد على باشا مؤسس هذه الملكية إلى آخر أحفاده .. الملك فاروق .

الناشر



الكاهرة : ١ شارع محمد محمود - باب اللوق (برج الأطباء) ت : ٣٥٥٨٤٦١

الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق - خلف قاعة سيد درويش - الهرم